أبيات المعاني في شعر المتنبي

دراسة أدبية نقدية مقارنة

تأليف

دكتور عبده عبد العزيز قلقيلة

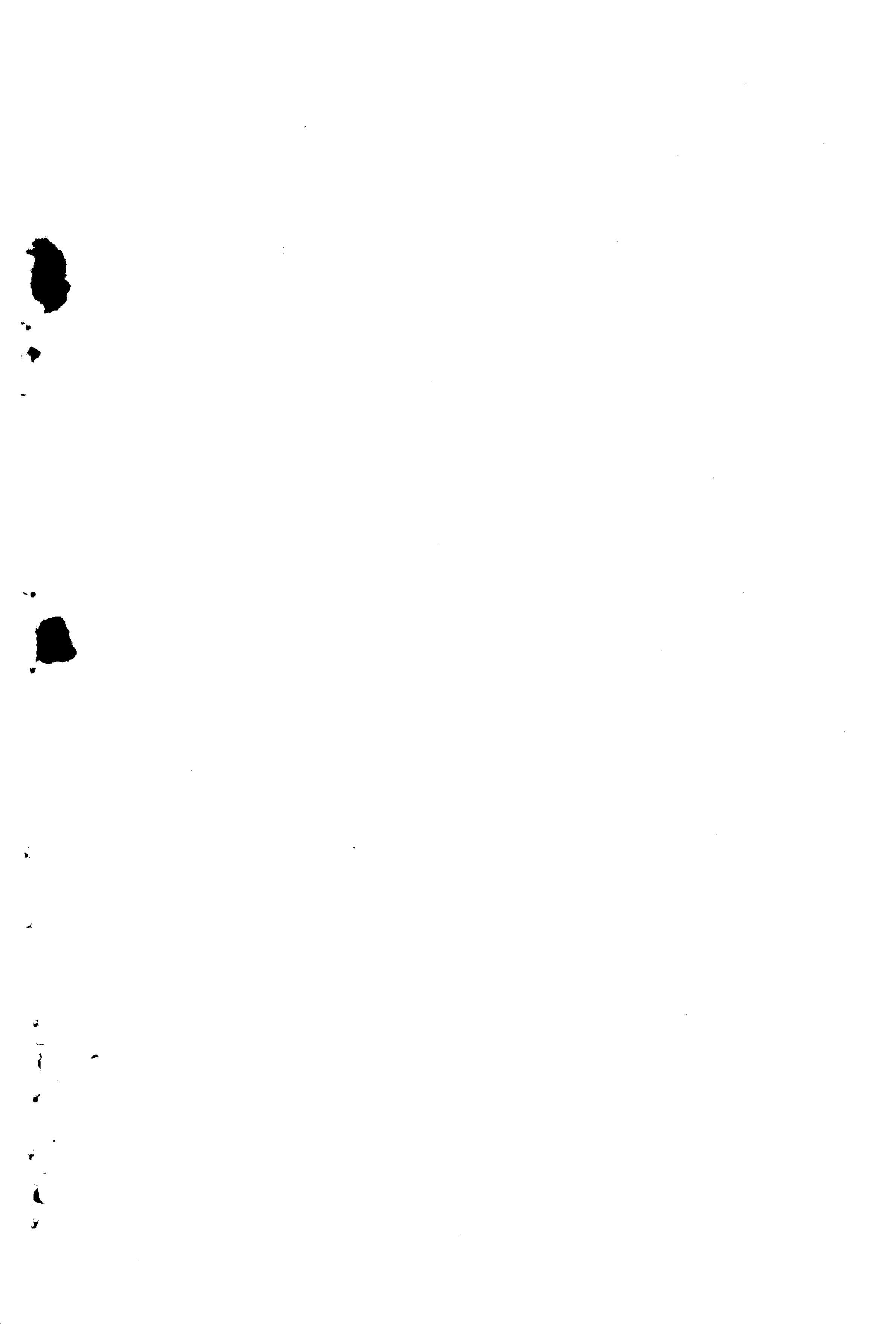
الاستاذ بكلية الآداب جامعة الملك سعود

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

صدر عن الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

« وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء
الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا »
صدق الله العظيم

الآية ٨٨ من سورة الكهف.

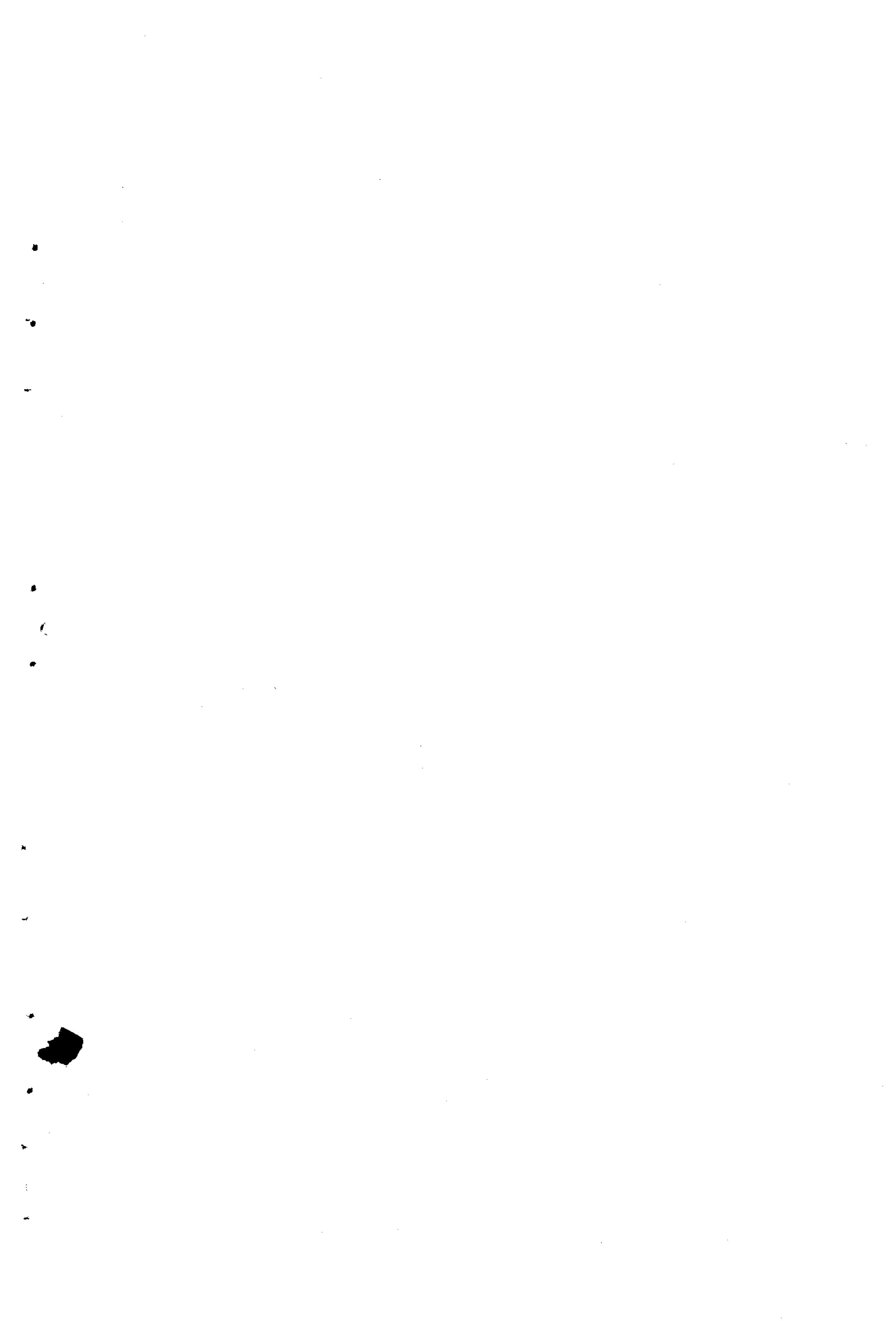
أرى أن هذا الكتاب من أثمن
ما يمكن أن تظفر به مكتبتنا
العربية . وهو بعد إضافة
علمية لا شك فيها

احمد كمال زكي



« وليس في الأرض بيت من أبيات المعاني لقديم أو محدث إلا ومعناه غامض مستتر ، ولولا ذلك لم تكن إلا كغيرها من الشعر ، ولم تفرد فيها الكتب المصنفة ، ولم تشغل باستخراجها الأفكار البارعة » .

من كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه
للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ص ٤٣١



تقـــديم

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد المصطفى الأمين ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : ـ

فهذا كتاب (أبيات المعاني في شعر المتنبي)

وأبيات المعاني هي الأبيات التي يوهم ظاهرها خلاف معانيها أو اختلال معانيها . فإذا أجيد تأملها عرف مقصود قائلها ، وظهرت لها معان صحيحة[1]

ومن الذين ألفوا فيها على إطلاقها :

١ ـ الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة (ت ٢١٠ هـ) .

٢ ـ أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت ٢١٦ هـ)

٣ ـ أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٣ هـ) .

٤ ـ أبو نصر أحمد بن حاتم الباهلي (ت ٢٣١ هـ) .

٥ ـ أبو العميثل عبد الله بن خليل مولى جعفر بن سليمان (ت ٢٤٠ هـ)

٦ ـ ابن عبدوس علي بن محمد الكوفي (ت ٢٤٥ هـ) .

٧ ـ أبو عثمان سعيد بن هارون الأشنانداني (ت ٢٤٧ هـ)

---

(١) انظر « تفسير أبيات المعاني من شعر أبي الطيب » ص ٨ و « الواضح في مشكلات شعر المتنبي » ص ٤٩ هامش رقم ٣ .

٨ ــ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)

٩ ــ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ)

١٠ ــ أبو العباس أحمد بن يحي ثعلب (ت ٢٩١ هـ) [(١)] .

* * *

وجاء أبو الطيب فأعجب وأغرب وأتعب الناس بعجيبه وغريبه ، وكان له حواريون يتصدرهم ابن جني فشرع قلمه وألف كتابين هما :

« الفسر الصغير » و « الفسر الكبير »

وقد استهدف بفسريه ، منهم من قذفه ، ومنهم من عطف عليه .

ثم أقبل المؤلفون على شعر المتنبي : يشرحونه ، وينقدونه ، منهم من يعمه بذلك ..

ومنهم من يقتصر على مشكله .

* * *

ومن الذين اقتصروا على مشكله : الخمسة الذين شغلت نفسي بهم وبكتبهم في هذه الدراسة وهم :

١ ــ أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الاصبهاني صاحب (الواضح في مشكلات شعر المتنبي) .

٢ ــ محمد بن حمد بن عبد الله بن فورجة في : (الفتح على أبي الفتح).

٣ ــ أبو الحسن علي بن سيدة في : (شرح مشكل شعر المتنبي) .

---

(١) انظر بروكلمان : ذيل رقم ١ من ص ١٦٣ إلى ص ١٨١ ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحاله ٥٢١٦ ، ١٨٨/٧ ومقدمة كتاب معاني الشعر للأشناندانى ، ومقدمة كتاب المعاني الكبير لابن قتيبة .

٤ – أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني التغلبي في : (سرقات المتنبي ومشكل معانيه)

٥ – وجيه الدين عبد الرحمن بن عبد الله باكثير الحضرمي في : (تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب) .

رتبتهم ترتيباً زمنياً وأفردت كل واحد منهم بفصل ..

وقد جاء الكتاب لذلك في خمسة فصول وخاتمة .

* * *

وإذا كانت موضوعات الفصول واضحة ومفهومة ، فإن مضامينها – والحمد لله – طيبة .

وقد تكفلت الخاتمة ببيان ذلك .

ومع هذا فقد دفعتنا معالجة النماذج – وهي عشرة من كل كتاب – إلى موضوعات جانبية لكنها حيوية ، كسرقات المعاني ، والقيمة الفنية للأدب ، والأدب الموجه .

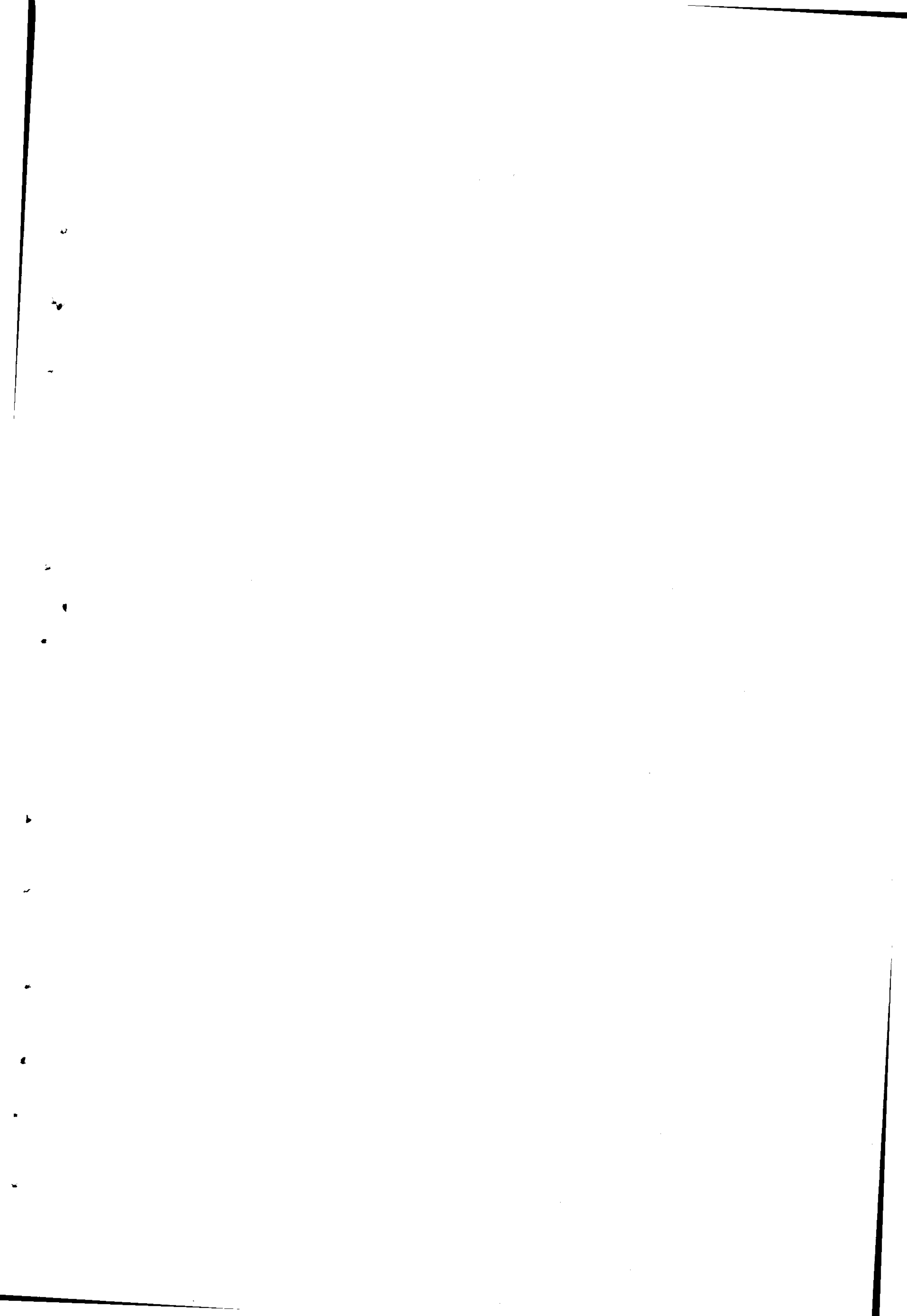
* * *

وهذه الدراسة أصيلة في بابها إذ لم تسبق بعمل آخر يشبهها .

ولأنها كذلك ، أرجو أن يخلفني على موضوعها من يتناوله تناولاً أفضل .

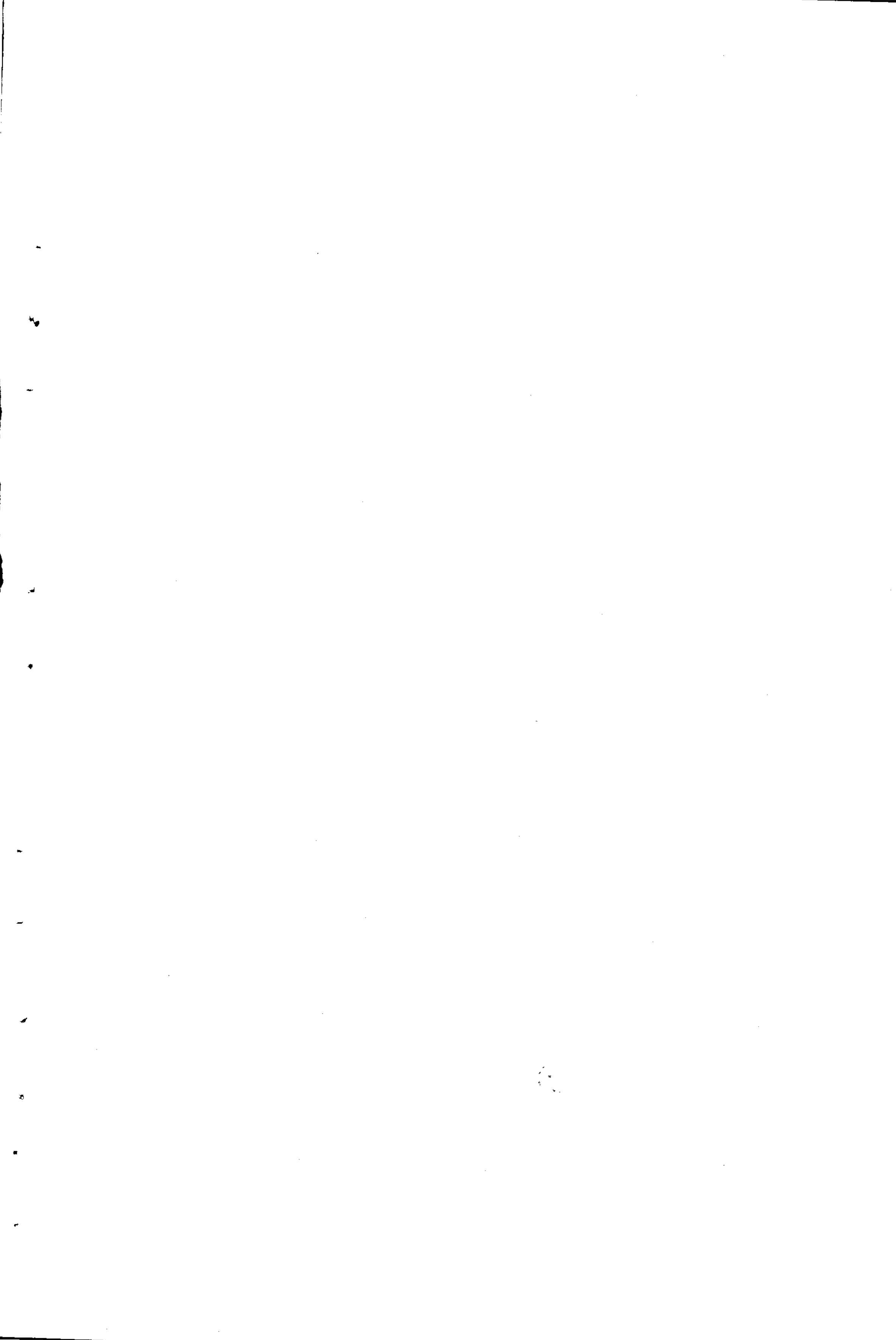
واللهم تقبل .

أ. د. عبده عبد العزيز قلقيله
الرياض ٢٤–٥–١٤٠٠هـ
١٠–٤ ١٩٨٠م



الفصل الأول

الأصبهاني وكتابه : الواضح في مشكل شعر المتنبي



الفصـــل الأول
مـــع الاصبهاني في كتابه
(الواضح في مشكلات شعر المتنبي)

أصبهان :

أصبهان — بفتح الهمزة وكسرها كما في معجم البلدان — و (أصبهان) و (أصفهان) بالباء والفاء — اسمان لمسمي واحد . وإذا كان النديم في (الفهرست) لا يكتب إلا (أصفهان) بالفاء ، فإن الثعالبي في (اليتيمة) وياقوتا في (معجم البلدان) لا يكتبان إلا (أصبهان) بالباء .

وقد جاءت النسبة إليها في كتب الأدب والتاريخ — لهذا — مرة بالباء ، ومرة بالفاء ولم أجد على الخريطة إلا أصبهان بالباء ، فلعل الأصل (أصبهان) بالباء ثم حرفت إلى (أصفهان) بالفاء، بدليل ما في الفارسية من أن (أصب) معناها : بلد .

و (أصبهان) إحدى مدن إيران الآن وعاصمة إقليم من أقاليمها . فتحت سنة ١٩ هـ على عهد عمر بن الخطاب ، وكان بها من الحفاظ خلق لا يحصون، وبخاصة رجال الإسناد، فإن أعمار أهلها تطول ، ولهم مع ذلك عناية وافرة بسماع الحديث .

أما من نبغ فيها من الأدباء والشعراء فقد أورد أبو منصور الثعالبي في كتابه (اليتيمة) بعضاً منهم مع نماذج أدبية لهم في الباب الخامس من الجزء

الثالث[1] وبحسبها أنها خرجت عبدان الأصبهاني ساقة المولدين ومقدمة العصريين[2] وأبا الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني (ت ٣٥٦ ﻫ) ، وأبا محمد عبد الله بن جيان الأصبهاني محدث أصبهان ، ومؤلف كتاب (السنة وفضائل الأعمال) (ت ٣٦٧ ﻫ) ، وأبا عبد الله محمد بن إسحق ابن يحي بن منده الأصبهاني الملقب بمحدث الشرق (ت سنة ٣٩٥ ﻫ) وأبا القاسم صاحب (الواضح) موضوع هذا الفصل ، والراغب الأصبهاني في القرن الخامس (ت سنة ٥٠٢ ﻫ) ، والعماد الكاتب في القرن السادس (ت سنة ٥٩٧ ﻫ) .

ويذكر المؤرخون أن المتنبي لما كان في حضرة ابن العميد بأرجان ، طمع الصاحب بن عباد في زيارته له بأصبهان ، وإجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان . كما يذكرون أن الحجاج قال لمن ولاه (أصبهان) :

« قد وليتك بلدة حجرها الكحل ، وذبابها النحـــل ، وحشيشها الزعفران »[3] .

أبو القاسم الأصبهاني :

هو أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصبهاني . ولد في العقد الرابع من القرن الرابع الهجري ، فقد روى عن عبد الواحد اللغوي الحلبي المتوفي سنة ٣٥١ ﻫ[4] .

---

(١) انظر (اليتيمة) جـ ٣ ص ١٦٨ وما بعدها ، وكتاب (أصبهان) لأبي عبد الله حمزة ابن الحسين الأصبهاني .

(٢) اليتيمة جـ ٣ ص ٢٧٢ .

(٣) معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٠٦ .

(٤) هو عبد الواحد بن علي أبو الطيب اللغوي الحلبي . أصله من عسكر محرم ، وقدم حلب ، فأقام بها إلى أن قتل في دخول الدمستق حلب سنة ٣٥١ ﻫ .
وانظر الواضح ص ١٠ .

وهو لا يكون متأهلا للرواية إلا وقد بلغ الحلم ، كما روى عن ابن جني المتوفي سنة ٣٩٢ هـ ، وعن محمد بن جعفر التميمي المعروف بابن النجار ، والمتوفي سنة ٤٠٢ هـ ، صرح بذلك في كتابه الواضح[١] ، كما صرح بأنه ألحق به ما ألحق من الأبيات بعد تمام سنة ٤١٠هـ [٢] . وموته بعد هذا التاريخ يعني أنه عاش أكثر من خمس وسبعين سنة .

* * *

نقول ذلك ، لأنه لم يمكن تحديد حياته : ولادة ، ووفاة على الرغم من طول البحث عن ذلك في مظانه .

الواضح في مشكلات شعر المتنبي

يدل كتاب الواضح على أن مؤلفه كان ضليعاً في الأدب خبيراً بالشعر ، واقفاً على معانيه وتنظيراته ، وسيتضح ذلك مما سنعرضه له منه هنا .

ولم يكن هذا الكتاب معروفاً حتى كشفه وحققه المغفور له الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور وقد نشرته الدار التونسية للنشر سنة ١٩٦٨ تحت عنوان عام هو (نفائس المخطوطات) .

* * *

والظروف التي ألف فيها الأصبهاني هذا الكتاب تتلخص في أنه كان بحضرة بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه سلطان شيراز في المدة من ٣٧٩ إلى ٤٠٣ هـ جمع كبير من العلماء المبرزين والأدباء المشهورين . منهم أبو الفتح عثمان بن جني وأبو القاسم عبد الله عبد الرحمن الأصبهاني مؤلف (الواضح) ، ولم يكن مجلس بهاء الدولة مقتصراً على العلماء والأدباء ، بل كان يضم إلى هؤلاء عدداً كبيراً من العظماء : أمراء ووزراء .

---

(١) الواضح ص ٦ ، ١٠ .
(٢) الواضح ص ٨٨ .

وقد حدث أن بعض ذوي النفوذ في هذا المجلس طلب من ابن جني استخلاص أبيات المعاني من شعر المتنبي ، وهي الأبيات التي تخفي معانيها ، وتوهم ألفاظها خلاف مرادها بأن يحددها ويفردها ثم يشرحها شرحاً يكشف خفاءها ويزيل غموضها .

وقد استجاب ابن جني لهذا الطلب ، ولا عجب ، فهو بين أن يكون في موضع الامتحان أو في موضع الثقة ، وكلا الأمرين مكلف صاحبه من أمره شططاً .

* * *

وإذا كان كل إنسان يؤخذ من كلامه ويترك ، فإن الأصبهاني قد طبق ذلك على ابن جني ، ها هو ذا يقول عنه :

« فأجابه إلى ما طلب ، وفعل بقدر إمكانه ، واتجاهه له ، ثم قرأه عليّ أحد من تصرف في جلائل الأمور ، وسياسة الجمهور ، فوقعتُ منه على صواب وخطأ » .

وعلى الفور أملى كتابه (الواضح) قربة وازدلافاً إلى بهاء الدولة .

وهو يعرف أن من ألف فقد استهدف ، وأن ما عقب به على ابن جني سيكون له صداه في مجلس مولاه . ولعله من هنا جاء تردده بين بهاء الدولة إن أصاب ، وطبيعته الترابية إن أخطأ . قال : « — فإن أصبت المراد فبها ونعمت ، وصوابها مضاف إليه ، وإن جزت الغرض ولم أقرطس الهدف ، فالآفة من الأرض ، لا تكليف مع العجز ، ومبلغ نفس عذرها مثل منجح[1] » .

---

(١) الواضح ص ٥ .

وكتاب الواضح قسمان :

القسم الأول : وهو ترجمة وافية للمتنبي ، وقد بلغ من إحاطتها ودقتها أن البغدادي قد اعتمدها بل نقلها إلى خزانة الأدب معولا عليها في التعريف بأبي الطيب وبشعره .

قال بعد أن أوردها : هذه ترجمة المتنبي نقلتها من كتاب (إيضاح المشكل من شعر المتنبي) من تصانيف أبي القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصبهاني ، وهو ممن عاصر ابن جني[1] .

ونكتفي في التمثيل لهذا القسم بما ذكره الأصبهاني من أن عضد الدولة كان جالساً في البستان الزاهر يوم زينته وحفله ، وأكابر حواشيه وقوف سماطين . فقال أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الحكامي : ما يعوز مجلس مولانا سوى أحد الطائيين فقال عضد الدولة : « لو حضر المتنبي لناب عنهما[2] » .

أما القسم الثاني : فهو أبيات المعاني في شعر المتنبي ، من وجهة نظر ابن جني وتفسيره لها ، ثم تعليقات الأصبهاني على هذه التفاسير .

وهذا القسم هو موضوع هذه الدراسة .

ويجدر التنبيه إلى أن الأصبهاني قد كرر القول بأن شرح ابن جني الذي جاء كتابه رد فعلٍ له ، إنما هو الفسر الصغير .

لكنه في ص ٨٨ يقول : هذا آخر مشكلات شعر المتنبي بتفسير أبي الفتح عثمان بن جني واصلاح فرطاته . ثم اتفق بعدها في بلدان العجم وقوعي

---

(١) مقدمة محقق الواضح صفحة ى .
(٢) الواضح ص ٢٥ .

إليها بعد تتمة الاربعمائة والعشر ، فاختلف إليّ طائفة من كتاب الإنشاء ، كلهم نظر في الفسر الكبير ، فكانوا يجارونني في عوارض أبيات المعاني التي فسرها ، فقرنتها بالمشكلات .

* * *

وقد عددت الأبيات التي قرنها الأصبهاني بالمشكلات،فوجدتها عشرين بيتاً تنتهى بانتهاء الكتاب الذي جاء في ست وتسعين صفحة ، عدا الفهارس التي وصل بها إلى ثلاث وعشرين ومائة صفحة .

ومن التعريف بالكتاب هذا الدفاع عنه :

ذلك أن نسخ ديوان المتنبي مرتبة بطريقتين :

الطريقة الأولى : على أزمان القصائد ، وبحسب من قيلت فيهم وهذا هو الترتيب الذي رتب عليه المتنبي ديوانه .

الطريقة الثانية : على حروف المعجم ، وبحسب قوافي القصائد .

وقد جاء في صفحتي (ط ، ي) من تقديم المحقق الفاضل رحمه الله ، أن من استقرى هذا الكتاب (كتاب الواضح) يتبين له أن المؤلف التزم ترتيب الأبيات على ترتيب القوافي بحروف المعجم ، لأن ذلك صنيع ابن جني في الفسر الصغير .

ويمضي قائلا : ولما أفضى إلى الكلام على ما وقع لابن جني في الفسر الكبير ، جاء ترتيب الأبيات مشوشا غير جار على شيء من طريقتي نسخ الديوان .

وفي العبارة الأخيرة معنى التساؤل ، أو معنى الاتهام بالإخلال بالنظام.
وأنا أدافع عن المؤلف بقولي : إنه فعل ما فعل ، لأنه أورد الأبيات الأخيرة الملحقة بالمشكلات حسبما سمعها من كتاب الإنشاء في بلاد العجم ، هؤلاء الذين نظروا في الفسر الكبير ، ثم جاءوا إليه يجارونه أو على حد قوله (يجارونني في عوارض أبيات المعاني) .

يعني : سمع ،حسبما يقتضيه التعبير بـ (يجارونني)، وكل مُسْمِعٍ حر في الإيراد وهو يورد حسبما يحيك في صدره ، ويجعله محتاجاً إلى مراجعة أهل الذكر . في أساس البلاغة وتجور خباء الليل : إذا انجلى ظلامه .

قال ابن أحمر يصف الليل :

وقلت له لما قضى جل ما قضى وطار خباء فوقنا فتجورا[1]

فأبو القاسم لا يُسأل ولا يلام في هذا المقام ، لأنه لم يرد على أن رصد ما سمع بترتيب السماع .

ونحن بعد نسأل : ماذا فاته أو ماذا فاتنا بعدم ترتيبه لهذه الأبيات ترتيباً أبجدياً على حسب قوافيها ؟

لا شيء .

ثم إنها ليست من الكثرة بحيث يجب لها أو يستحب معها هذا الترتيب. ولعل ذكرها وفق سماعها أن يدل على مدى انشغال السائلين بما يسألون عنه .

وربما أقدرنا على تصنيف المشكلات تصنيفاً يعطى الأولية لمشكلة قبل مشكلة أي بيت قبل بيت .

---

(١) أساس البلاغة ص ٦٩ .

موقف نقدي

قرر الأصبهاني أن أبا الفتح عثمان ابن جني قد أخبره أن المتنبي أسقط من شعره الكثير ، وبقى ما تداوله الناس[1] .

وهذا يعني أن المتنبي كان يلقي من شعره مالا يرضي عنه ، وهو عمل ذكي ، ولعله إن صح أنه فعله — أن يكون قد أخذه عن البحتري .

ونمضي في القسم الأول من الواضح ، فنجد للمؤلف رأياً مخالفاً قال :

« وأما الحكم عليه وعلى شعره فهو سريع الهجوم على المعاني ، ونعت الخيل والحرب من خصائصه وما كان براد طبعه في شيء مما يسمح به ، يقبل الساقط الردي ، كما يقبل النادر البدع وفي متن شعره وهي ، وفي ألفاظه تعقيد وتعويص » [2] .

وواضح أن لصاحب الواضح رأياً مخالفاً لرأي ابن جني فمع من نحن ؟ وأين الحق في هذه المسألة ؟؟ ليست الإجابة سهلة ، وقد تكفلت الدراسات المكثفة للمتنبي ولشعره بذلك في القديم والحديث ، وهو الذى ملأ الدنيا ، وشغل الناس [3] .

منهج

يقول أبو القاسم في صدر القسم الأول من الكتاب :

« وقد بدأت بذكر المتنبي ومنشئه ، ومغتربه ، ومضطربه ، وما دل

---

(١) الواضح ص ١٠ .

(٢) الواضح ٢٧ — ٢٨ .

(٣) انظر الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني وكتاب (النقد الأدبي عند القاضي الجرجاني ص ٢٧٧ — ٢٩٠ للمؤلف .

عليه شعره من معتقده إلى مختتم أمره ، ومقدمه على الملك[1] نضر الله وجهه بشيراز وانصرافه عنه إلى أن وقعت مقتلته .. ثم أردفه بتفسير مشكلاته . والشرط فيها أن أورد في كل بيت ألبته لفظ أبي الفتح عثمان بن جني بلا زيادة ولا نقصان ، ثم أتعقبه بما يقتضيه النظر وشواهد الشعر والعربية[2] .

وما ذكره أبو القاسم هنا هو منهجه في (الواضح) وأشهد أنه قد التزم هذا المنهج وطبقه في طول الكتاب وعرضه فهو يذكر البيت من شعر المتنبي ، ويعقبه بكلام ابن جني في فسره ، ويتعقبه بنقده . وقد يتوسع وهو يعلق على بعض الأبيات فيجلب من شعر الشعراء نظائره في معناه ولفظه .

لقاءات حول بعض أبيات المعاني في شعر المتنبي

والآن مع هذه اللقاءات حول بعض أبيات المعاني في شعر المتنبي ، بين

---

(١) ، (٢) الملك هو عضد الدولة فناخسرو بن الحسن ركن الدولة بن بويه الديلمي الملقب بأبي شجاع سلطان شيراز ، وفد عليه أبو الطيب بشيراز سنة ٣٥٤ ومدحه بعدة قصائد ، كانت آخر شعره ، وسميت في ديوانه بالعضديات وفي شعبان من نفس السنة ودعه بآخر قصيدة له ، وقد جاء فيها ما كأنه ينعي به نفسه قال :

فأي لك من يقصر عن مداكا   فلا ملك إذاً إلا فداكا
أروح وقد ختمت على فؤادي   بحبك أن يحل به سواكا

وانظر شرح العكبري ج ٢ ص ٣٨٥ ، والواضح ص ٦ هامش رقم ١ .

وقد صحح المحقق الفاضل كلمة (ألبتة) وجعلها (أثبته) ولم أوافقه فـ (ألبتة) جزم من المؤلف بإيراد نص ألفاظ ابن جني التي سيعلق عليها فضلا منه وأمانة . وما ذكره من ملازمة (ألبتة) للكلام المنفي معناه : الأغلب في استعمالها .

ومن غير الأغلب مجيئها مع الكلام الموجب تقول : أزورك الليلة ألبتة أي حتما فلا تكون مخطئاً .

أما بعد . فليست كلمة [البتة] هذه من عند الاصبهاني بل من عند ابن جني ؛ فقد قال في مقدمة فسره الصغير « وسأورد لفظه البتة فيه أو ثمر معاقده ومعانيه » .

ضمير الغائب في كلمة [لفظه] يعود على المتنبي ، ومعنى كلام ابن جني : أنه سيتحرى وهو يشرح الأبيات التي سأل المتنبي عنها أو ناقشه فيها أن يورد نص كلام المتنبي بأن يكون قيده وقت سماعه ، أو لأنه متأكد من تذكره له ، وإذا لم يكن هذا ولا ذاك فإنه يورد كلام المتنبي بمعناه لا بنصه .

وأظن أن ابن جني وأبا القاسم الأصبهاني أقرب إلى الصحة اللغوية من سماحة المحقق وربما من أهل عصرنا قاطبة .

وانظر الفسر الصغير ص ٢٦ .

والواضح ص ٦ هامش رقم ٣ .

أبي الفتح عثمان ابن جني ، وأبي القاسم عبد الله الأصبهاني ، وهي لقاءات يمتزج فيها النقد التفسيري بالنقد الحكمي كما سنرى

— ١ —

فتبيتُ تسئد مسئداً في نيها إسآدها في المهمه الأنضاءُ

أورد ابن جني هذا البيت للمتنبي ، وهو من قصيدة يمدح بها أبا علي هارون بن عبد العزيز الأوراجي الكاتب المتصوف ومطلعها :

أمن ازديارك في الدجي الرقباء إذ حيث كنت من الظلام ضياء

والبيت الذي قبل بيتنا :

شيم الليالي أن تشكك ناقتي صدري بها أفضى أم البيداء

وإذن فالضمير المستتر وهو فاعل تبيت يعود على ناقه المتنبي المذكورة في البيت السابق .

والآن مع شرح ابن جني لهذا البيت ، أورده الأصبهاني قال :

قال أبو الفتح : الإسآد : إغذاذ السير ، ويقال لسير الليل خاصة ، والنيُّ : الشحم ومسئداً : منصوب على الحال من الضمير في تسئد .

وهي حال مؤكدة لعاملها ، وفاعله المرفوع : الإنضاء .

أي فتبيت تسير سائراً في نيها الإنضاء سيراً مثل سيرها في المهمة أي تقطع الفلاةُ شحمها . كما تقطع هي الفلاة ، وهذا الذي حصلته عن أبي الطيب .

وقال أبو القاسم :

تفسير هذا البيت قول أبي تمام الطائي ومنه أخذ المتنبي إلا أنه عقّد الألفاظ وعوصها وأظلم المعنى .

وبيت أبي تمام :

رعته الفيافي بعدما كان حقبةً رعاها ، وماء الروض ينهل ساكبه

وأبو تمام أخذ هذا المعنى من بيت العرب أنشده أبو سعيد السيرافي عن أبي بكر محمد بن دريد في كتاب (الأبيات)[1] للاشناندانى وهو :

وذاتِ ماءيْن قد غيضْتُ ماءها بحيثُ تُستمسك الأرماقُ بالَحجَرَ

ردَّتْ عواريَّ غيطانِ الفلاونجتْ بمثْل إبالةٍ من يابس العشر[2]

* * *

هنا : المفسران لم يختلفا ، فالشرحان متفقان ، لكأنهما شرح واحد ،

---

(١) الأبيات : هي أبيات المعاني . وقد ألف فيها كثيرون منهم غير من ذكرناهم فى التقديم لهذه الدراسة محمد بن حازم بن عمرو الباهلي وأبوسعيد السيرافى .
وانظر الواضح صفحات ٣٠ ، ٤٩ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٥ .
والفهرست لابن النديم ص ٨٩ .

(٢) ذات ماءين = عين ماء وقد ثنى ماء للتكثير .
كقولهم : لبيك وسعديك ، وكقول الله تعالى (ثم ارجع البصر كرتين) واستمساك الأرماق بالحجر معناه :
أن أرواح الركب صارت متوقفة على حجارة تلك العين ، فإن بضت لهم بماء حيوا ونجوا ، وإلا هلكوا عطشاً . هذا ما شرح به محقق (الواضح) البيت الأول وهو خطأ ؛ لأنه يجعل البيتين مختلفين في المعنى ، والحقيقة أنهما يؤديان معنى واحداً بسطه البيت الأول وعمقه البيت الثاني، ثم إن هذا الشرح يخرج بالبيتين عن الغرض الذي قصده الأصفهاني منها ، والصواب في شرحها هوما ذكره الأشناندانى قال ما مختصره : ذات ماءين : يعني ناقة ، والماء ان هما : ماء بدنها وماء فتائها ، أو هما ماء بدنها وماء الفحل في رحمها ، و (غيضت ماءها) رواه الأشناندانى : (غيضت جمها) وقال : الجم : معظم الماء ومجتمعه ، وغيضه بإتعابه إياها حتى ضمرت (بحيث تستمسك الأرماق بالحجر) أي في فلاة يقتسم فيها الماء على الحصاة التي تسمى المقلة تجعل في قعب ثم يصب عليها الماء حتى يغمرها ثم يستوفونه بالسوية ، فجعل الحجر يمسك الأرماق لأن الماء يقسم عليه ، وقوله (ردت عواري غيطان الفلا) رجع إلى وصف الناقة ، يريد أنها كانت رعت الغيطان فسمنت فلما سافر عليها ضمرت حتى كأنها ردت على الغيطان ما استعارت منها من سمنها وشحمها ، وقوله (ونجت) يعني الناقة (بمثل إبالة) والإبالة : الحزمة من الحطب يقول : نجت وقد صارت مثل الإبالة من النحول (من يابس) اليابس : الجاف ورواية الأشناندانى (من حائل) والحائل=

بل إنهما لكذلك كل ما هنالك أن ابن جني شرح فقط ، أما أبو القاسم فقد شرح ونقد ، ونقده مزدوج .

شقه الأول إدانته المتنبي بأخذ المعني من أبى تمام الذي أخذه — بدوره — من البيتين المذكورين بعد بيته .

وشقه الثاني فني ، يتمثل في قوله : إلا أنه عقد الألفاظ ، وعوصها وأظلم المعنى .

والإصبهاني محق في هذه المؤاخذة المزدوجة للمتنبي ولو أنه سالم ابن جني فالمتنبي بحق عقد الألفاظ وعوصها وأظلم المعنى .

* * *

— ٢ —

حتى إذا لم يَدَعْ لي صدقُه أملا شرقتُ بالدمع حتى كاد يشرق بي

هذا البيت من قصيدة للمتنبي في رثاء أخت سيف الدولة ، وقد توفيت بميافرقين سنة ٣٥٢ ﻫ ومطلعها :

يا أخت خير أخ يا بنت خير اب كناية بهمـــا عن أشرف النسب

والبيت الذى قبل بيتنا هو

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي إلى الكذب[1]

وقد شرح ابن جني بيتنا فقال : أي كثر دمعي حتى صغرت أنا بجنبه وبالإضافة إليه .

=الذي أتى عليه حول ، و (العشر) ضرب من الشجر .

انظر (الواضح في مشكلات شعر المتنبي) ص ٣٠ هامش رقم ٣ .

و (معاني الشعر) لأبي عثمان سعيد بن هار ون الأشنانداني برواية ابن دريد طبعة دار الكتاب الجديد . بيروت سنة ١٩٦٤م ص ٥٥ — ٥٦

(١) ديوان المتنبي بشرح العكبري ج ١ ص ٨٦ .

وفي شرحه قال أبو القاسم : معنى هذا البيت : أنه لما أتاني نعي المتوفاة نزفت دمعي بالبكاء حتى لم يكد يجري وبقي حائراً في الجفن ، فكدت أقضي نحبي فيجف الدمع بي .

وليس للكثرة والقلة معنى كما ذكره أبو الفتح وللشعراء في ذكر الدمع والعين أساليب حسان فمن أحسن ما ذكروا قول أبي حية النميري وهو أول من افترعه :

نظرت كأني من وراء زجاجة　　إلى الدار من فرط الصبابة أنظر

وقال بعض العرب :

ومما شجانى أنها يوم أعرضت　　تولت وماء الجفن فى العين حائر

وتبعه بشار فقال :

أقول وقد غصت جفوني بمائها

وقال ابن حبيبات :

أُلم بالباب كي أشكو فيمنعني　　فيضُ الدموع على خدي من النظر
أقبلتُ أطلبها والقلب منزلها　　أعِجبْ بمقتربٍ مني على سفر

وقال البحتري :

وقفنا والعيون مشغّلات　　يغالب دمعها نظر كليل
نهته رقبة الواشين حتى　　تعلق لا يفيض ولا يسيل

وقال المتنبي :

عشية يعدونا عن النظر البكا　　وعن لذة التوديع خوف التفرق

فهؤلاء كلهم وصفوا حيرة الدمع ، وكلهم قاصرون عن أبي حية .

* * *

وأما في معنى تدارك سيلانه فليس فوق قول قيس بن الملوح العامري شيء . أنشدناه المرزباني عن عمر بن شبة عن الأصمعي قال : اخترت من شعر العرب في نعت الوجوه قول المخبل :

وتريك وجهاً كالوذيلة لا ظمآن مختلج ولا جهم

واخترت في صفة العيون قول عدي بن مالك :

وكأنها بين الظباء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت في عينه سنة وليس بنائم

واخترت في نعت الدمع قول قيس :

وإني لأبكي اليوم من حذري غدا فراقك والحيان مختلفان
سجالا وتسكابا وسحا وديمة وهطلا وتهتانا وبالهملان

وطرده البحتري على سبيل التورية إلى المدح فقال :

تجود على الطلاب سحا وديمةً وهطلا وإرهاماً ووبلا وريقا

* * *

وأما في الاعتذار في الدمع فبشار ابتدع فيه وهو قوله :

يقلن : لقد بكيت فقلت : كلا وهل يبكي من الطرب الجليد ؟
ولكني أصاب سواد عيني عويد قذى له طرف حديد
فقالوا : ما لدمعهما سواء أكلتى مقلتيك أصاب عود

وتبعه أبو العتاهية ، وأحسن حيث يقول :

كم خليــل لي أســا رقه البكاء من الحيــــاء
فإذا تأمــــل لا مني فأقــول : مابي من بكاء
لكن ذهبت لأرتــــدي فطرفتُ عيني بالــــرداء

* * *

انتهي تعليق الأصبهاني على شرح ابن جني لبيت المتنبي . وبعملية إحصائية نقول : إنه ضمن تعليقه حشداً من النصوص بلغ عددها اثنى عشر نصاً ، وثّقـهـا كلها عدا نص واحد صدره بعبارة (وقال بعض العرب) ، وهي مسلسلة تسلسلا تاريخياً دقيقاً . وهذا يعني أنه رد المعنى الذي أورده المتنبي في بيته إلى أصحابه على التعاقب ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على فضله وحفظه وتمكنه من معاني الشعر بحيث يرد كل معنى إلى صاحبه الأول وإن أمعن في القدم . والشرحان متغايران لكن النص يعطيهما .

أما الأول فقائم على المبالغة ، وأما الآخر فقائم على القص .

وردُّ الأصبهاني شَرْحَ ابنِ جني يدل على عدم فهمه له أكثر مما يدل على عدم رضاه عنه .

— ٣ —

مَن الجآذرُ في زي الأعاريب حمر الحلى والمطايا والجلابيب

هذا البيت هو السابع في تسلسل الواضح .

وهو مطلع قصيدة في مدح كافور الإخشيدي قالها المتنبي سنة ٣٤٦ ه والجآذر : جمع جوذر ، وهو ولد البقرة الوحشية ، والأعاريب : جمع عرب ، وعرب : اسم جنس . يسأل قائلا : من هؤلاء النسوة اللآتي كأنهن أولاد بقر الوحش ، وهن في زي الأعاريب !

وهو سؤال من باب تجاهل العارف ، للتشكيك في أنهن نساء أو جآذر ، كقول الشاعر :

وما أدري ولست إخال أدري أقوم آل حصن أم نســاء ؟!

ومثله في بابه قول ذي الرمة :

أيا ظبيـــه الوعشـــاء بين جلاجل وبين النقا آانت أم أم ســالم

وفي التساؤل على هذا النحو تخييل لمستقبل الأدب ، وتحرك به بين الوهم والحقيقة .

وقد شرح أبو الفتح صدر البيت فقال : جعل كونهن جآذر حقيقة ، وجعل كونهن أعاريب مجازاً ، وذلك للمبالغة في الصنعة .

ولم يصبر أبو القاسم على ابن جني حتى يفرغ من شرح البيت كله ، وإنما تعجل قائلا : ليس للمجاز والحقيقة محل في هذا البيت ولا مدخل ، وإنما جعلهن جآذر ، لنجل العيون وحورها ، وهن في الخلقة نساء .

وقد أدلى المحقق الفاضل بدلوه في هذا النقاش قائلا : لعل فهم أبي الفتح أرشق مما قاله أبو القاسم ، لأن الشاعر لما استفهم عن كونها في زي الأعاريب، قد أوغل في تخيلهن جآذر حقيقة ، فالاستفهام ترشيح للاستعارة ولا وجه

لتخصيص أبي القاسم وجه تشبيههن بالجآذر أنه نجل العيون[1] .

* * *

ومع أني موافق على أن فهم ابن جني أرشق بل أدق وأعمق من فهم أبي القاسم ، لكني مع أبي القاسم في أن وجه تشبيه النساء بالجآذر إنما هو نجل العيون ، وليكن معلوماً أن الصورة البيانية الموجودة في بيت المتنبي ليست استعارة كما قال المحقق الفاضل بل هي تشبيه مقلوب وهو لا يمارس إلا عند المبالغة بإدعاء أن وجه الشبه أقوى وأظهر في المشبه منه في المشبه به ، ومن المقرر أن المشبه لا يأخذ كل خصائص المشبه به ، وإنما يلحق به في أخص صفاته ، وأظهر حالاته . وأخص صفات الجآذر ، وأظهر حالاتها إنما هو جمال عيونها ، وتشبه بهن النساء ، لذلك قال الأصمعي :

إذا ذكر الشاعر البقر فإنما يريد حسن العيون ، وإذا ذكر الظباء فإنما يريد الأعناق . [2]

وبعد هذا نقرر أن المتنبي قد نجح في إثارة نشاط السامع ، وفي تحريك تطلعه بتساؤله عن حقيقة المشهد الجميل المثير ، مشهد الفتيات الرشيقات وقد ظهرن بمظهر الطبقة المتميزة بدليل تزينهن بالحلي الحمراء من ذهب وياقوت ، وتزينهن بالجلابيب الحمراء ، وركوبهن النوق الشهب ، والخيل الدهم .

إنه مظهر ملوكي أرستقراطي وقد شدنا إليه أبو الطيب ببيت واحد هو هذا البيت .

* * *

(١) الواضح ص ٦٤ هامش قم ١ .
(٢) شرح العكبري ج ١ ص ١٦٨ .

وعن الشطرة الثانية قال أبو الفتح : — حمر الحلي : أي هن شراف وكذلك الجلابيب . وقال أبو القاسم : ليس هذا بشيء ، وإنما المعنى أنهن حسان يلبسن حسان الملابس استضافة جمال إلى جمال .

وروى الأصمعي في كتاب الأجناس أن العرب تقول : إن الخمار الأسود يشب لون المرأة أي ينوره ويجلوه ، وكلما ازدادت الظلمة سواداً ازدادت الأنوار ضياء ، والعرب تقول : الحسن أحمر ، ومنه قول بشار :

وخذي ملابس زينـــة ومصبغات هن أنـــور

فإذا دخلنـــا فادخلي في الحسن إن الحسن احمر

وقد ذكر ابن الرومي هذا البيت في قوله :

قل للمليحة في الخمار المذهب أفسدت نسك اخي التقي المترهب

وجمعت بين المُذهَبَيْنِ فلم يكن للحسن في ذَهَبَيْهِما من مُذْهِبِ

والعلماء يقولون في قولهم « الحسن أحمر » وجهاً آخر ، وهو أنه يخاض فيه الشدائد حتى أن الدم يراق فيه كما يقولون : الموت أحمر ، وهو الذي يراق فيه الدم[1] .

* * *

انتهي تعليق أبي القاسم على تفسير أبي الفتح للشطر الثاني من بيت المتنبيء وما ارتآه من أن تفسير أبي الفتح ليس بشيء ، هو الذي ليس بشيء .

لقد وقف ابن جني عند دلالة اللون الأحمر في الحلل والحلي على أن

(1) الواضح ص ٣٤ .

النساء المعبر عنهن بالجآذر موسرات شريفات ، وهي دلالة تحتاج إلى استنباط ، وفيها إشادة بالجوهر لا بالعرض .

على حين وقف أبو القاسم عند إضافة اللون الأحمر الجميل إلى النساء حسناً فوق حسن أو كما قال هو « استضافة جمال إلى جمال » وهي دلالة قد تكون وقد لا تكون ، والإشادة فيها بالعرض لا بالجوهر ولو اجتمعت الدلالتان ، لكملت إحداهما الأخرى ، ولانْضَم إلى جمال الجوهر جمالُ العرض .

— ٤ —

مُنىً كُن لي أن البياض خضاب ... فيخفي بتبيض القرون شباب

هذا البيت مطلع آخر قصيدة مدح بها المتنبي كافورا .

قال أبو الفتح في شرحه : يقول : شيبي هذا كان مُنىً لي قديماً ، إنما تمنيت الشيب ليخفي شبابي بابيضاض شعري ، وآثر الشيب على الشباب لما فيه من الوقار .

* * *

وقد علق أبو القاسم على هذا الشرح بقوله :

ثانى هذا البيت يرد ما ذكره أبو الفتح من تمني الوقار وهو :

لياليَّ عند البيض فَوْدَاي فتنةٌ ... وفخرٌ وذاك الفخر عنديَ عاب

وإنما المعنى : إني مصروف الهمة إلى اكتساب المعالي والمآثر ، كقوله في عدة قصائد :

ضروب الناس عشـــاق ضروبا   فأعْذَرهم أشفهم حبيبـــا
وما سكني ســوى قتل الأعادي   فهل من زورة تشفي القلوبا

وقال في أخرى :

محب كَنَي بالبِيض عن مرهفاته   وبالحسن في أجسادِهِن عن الصقل
وبالسمر عن سمر القنا غير أنني   جناها أحبائي وأطرافها رسلي

والمعنيان يكمل بعضها بعضاً : فالمتنبي قد تمنى الشيب وآثره على الشباب لا لما فيه من الوقار كما قال ابن جني ، وإنما لأنه لا حاجة به إلى الشباب ، فقد ضاق ذرعاً به وبمظاهره الممتلة في سواد الفودين بعد أن صار هذا السواد فتنة للبيض ينشدن وصاله من أجله ويسببه وهو إذ يتمنى ، فإنما يتمنى الشيب الظاهري ، شيب الجسم أو شيب الشعر أما شيب النفس فلا ولا ، وها هو ذا يقول :

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه   ولو أن ما في الوجه منه حراب
يغير مني الدهر ما شاء غيرها   وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب

ولعل هذا يقوي المعنى الذي قاله أبو القاسم ، ويقويه بأصرح وأوضح من ذلك قوله :

تركنا لأطراف القنا كل شهـــوة   فليس لنا إلا بهن لعـــاب

— ٥ —

أبرحتَ يامرض الجفون بمُمْرَضٍ   مَرِض الطبيبُ له وعيد العُود

هذا البيت من قصيدة للمتنبي يمدح بها شجاع بن محمد الطائي المنبجي مطلعها :

اليوم عهدكم فأين الموعـــد هيهات ليس ليومِ عهدكمُ غَدُ

وقبله :

ابلت مودّتها الليـــالي بعدنـــا ومشى عليها الدهر وهو مقيد

وبعــده :

فله بنو عبد العزيز بن الرضا ولكل ركب عيسهم والفدفـد

وقد قال ابن جني في شرح بيت الأصل ما نصه :

أبرحتَ : أي تجاوزت ، والممرض : جفنها ، ومرض الطبيب له وعيد العود « مثل ضربه ولا طبيب هناك ولا عود ، ولكنه لما ذكر هنا المرض ، ذكر الطبيب معه والعود .

* * *

أما أبو القاسم فقال : أبرحتَ : معناه شددت ، ويقال أمر مبرح ومبرِّح ، ومنه البرحاء لشدة الشوق ، والممرض : هو المتنبي نفسه يقول : اشتددت يا مرض الجفون بمحب أمرضته في شدة مرضه ، وهو لسقمه مرض معالجه وعيد عائده . وهذا المعنى متداول في شعر المحدثين لا يعد كثرة .

كقول أحدهم :

مَرضٌ بناظره إذا ما مَرضَا يقضي على أحبابه قبــل القضا

وكقول غيره :

أسقم جسمي سـقام ناظـره يا ليتني خاطـر بخاطـــره[1]

* * *

والاختلاف بين الشرحين هنا اختلاف بيِّن وكبير .

فالموضوع أن المتنبي يتغزل في فتور وتكسر جفون حبيبته ، أي إسبال أجفانها على عينيها ، وهو نوع من الدل تمارسه المرأة فيضفي عليها جمالا ساحراً يأخذ بالألباب ويسبي المحبين ، ويبالغ بعضهم في ذلك فيقول : إنه ممرضه أو قاتله ، وما إلى ذلك من المبالغات المعروفة في مثل هذا المقام — كما أنهم يسمون هذا الفتور : مرض الجفون ، والجفن غير العين ولو أنه جزء منها وعلى وجه التحديد غطاء لها .

فالمتنبي يخاطب فتور جفون حبيبه بقوله : إنك اشتددت عليَّ بقوة دلالك وبسحر جمالك حتى إن طبيبي المعالج لي مرِض إشفاقاً علي ، وحتي أن عُودي الذين حضروا لزيارتي لما رأوني مشرفاً على الموت بسبب ما أنا فيه من حب ووجد مرضوا كذلك وصاروا يزارون من قبل غيرهم للاطمئنان عليهم .

إلى هذا الفهم اهتدى أبو القاسم فقال به . وأما ابن جني فقد جانبه التوفيق هذه المرة ، وذلك أنه فهم أن المريض إنما هو جفن الحبيب ، وأن مرضه حقيقي ، وأنه قد أبرح به أي بالحبيب صاحب الجفون واشتد عليه .

ويمكن أن نقـول : إن ابن جني قد بالغ في فتور جفـون الحبيبة فقال

(١) الواضح ص ٣٨ .

ما قال . ولو أن أحــد المفسرين – إنطلاقاً من تفسير ابن جني – فرّع على مرض الجفون حقيقة فقال : جعله مــرض الجفون ، لأنه يحملها على البكاء والسهر . وليس الأمر كذلك وإنما الممرّض المتنبي نفسه بدليل قوله عقب هذا البيت : فله (فللمتنبي) بنو عبد العزيز بن الرضا والله أعلم .

– ٦ –

كأن شعاع عين الشمس فيــه ففي أبصارنا عنــه انكســار

هذا البيت من قصيدة طويلة (٦٦ بيتاً) قالها المتنبي لما أوقع سيف الدولة بني عقيل وقشير وبني العجلان وبني كلاب حين عاثوا في عمله ، وخالفوا عليه ، يذكر إجفالهم من بين يديه وظفره بهم[1] .

ولا نجد لابن جني تفسيراً له ، لكأنه في نظره ليس من أبيات المعاني ، أي ليس من الشعر المشكل . ويكون أبو القاسم قد أورده لا ليتعقب ابن جني فيه أو به ، بل لينقد المتنبي رأساً . فهو يثبته ثم يعلق عليه بقوله :

« قول المتنبي ليس ينكشف به المعنى ، ولا ينشرح له الصدر ، وهو مما استبشع منه » وهو في هذه العبارة المختصرة يرمي المتنبي بعيبين كبيرين أحدهما: الغموض (ليس ينكشف به المعنى) . والآخر : عدم مطابقة كلامه لمقتضى حال المخاطبين به فالمقام مقام حرب لا تناسبه كلمة (انكسار) بإيحاءاتها البغيضة أو على الأقل غير المريحة .

ونحن لا نقر الأصبهاني على دعوى الغموض ، فالبيت واضح جدا وها هوذا ابن جني لم يشرحه . كما لا نقره على ما يدل عليه قوله : (ولا ينشرح له الصدر وهو مما استبشع منه) من أن كلَمة (انكسار) فيها مصادمة للقائد

(١) شرح العكبري ج ٢ ص ١٠٠ .

المحارب سيف الدولة ، وإيذاء لشعوره فهي قد انصبت على الأبصار بطريق القصر .

وإذا كان لنا موقف نقفه من المتنبي فهو موقف التقدير له والإعجاب به لقوله بانكسار الأشعة ، أو لإرهاصه به . فإن لم يكن هذا ولا ذاك ، فلمعرفته كيفية الرؤية ، ولاستعماله لفظ (انكسار) الذي صار مصطلحاً علمياً في نفس المجال الذي استعمله فيه ، وبنفس المعنى الذي أراده منه .

* * *

وقد أدلى الأصبهاني بدلوه في قضية (اللفظ والمعنى) فقال : اعلم أن المعاني مطروحة نصب العين وتجاه الخواطر يعرفها نازلة الوبر ، وساكنة المدر والقرائح تشترك فيها ، وإنما المعنى في سهولة مخرج اللفظ ، وكثرة الماء ، وجودة السبك . وأنا أنشدك أبياتاً معناها واحد ، إلا أن تفاوتها في اللفظ عظيم .

قال الأعشى :

لعمري . لقد لاحت عيون كثيرة — إلى ضوء نار في يفاع تَحَـــرقُ

تُشب لمقرورين يصطليانهـــــا — وبات على النار : الندى والمحلق

وقال آخر :

له نـــار تشـــب بكل واد — إذا النيران أُلبست القناعـــا

وقال آخر :

وقالت له : أقبل ، فإنك راشـــد — وإن على النار الندى وابن ماثل

وقال الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء نــاره　　تجد خير نار عندها خير موقد

والمعنى واحد ، والشعراء شركاء فيه ، إلا أن الحطيئة غبَّر في وجوه الكل ، بجودة النظام وانبساط اللفظ[1] .

* * *

انتهي كلام الأصبهاني ، ونفهم منه أنه يعول في جودة الأدب على الألفاظ وهو مسبوق في ذلك ببعض النقاد[2] لكن يبقي له تعبيره الشامخ : « المعنى واحد ، والشعراء مشتركون فيه إلا أن الحطيئة غبَر في وجوه الكل بجودة النظام وانبساط اللفظ » .

* * *

— ٧ —

كيف ترثى التي ترى كل جفن　　راءها غير جفنها غير راق

هذا البيت من قصيدة قالها يمدح بها أبا العشائر : — الحسين بن علي ابن الحسين بن حمدان مطلعها :

أتراهــا لكــثرة العشـــاق　　تحسب الدمـع خلقة في المآقي

والبيت الذي معنا هو البيت التالي لبيت المطلع[3] .

(١) الواضح ص ٥١ — ٥٢ .
(٢) انظر في هذا كتابنا (النقد الأدبي عند القاضي الجرجاني) ص ص٥٠ —١١١ و كتابنا (النقد الأدبي في العصر المملوكى) ص ٣٣٠ — ٣٤٩
(٣) شرح العكبري ج ٢ ص ٣٦٢ .

وقد قال أبو الفتح في شرحه : أي إذا رأت كل جفن أبصرته غير راق من الدمع ظنت ذلك خلقةً في الناس فلم ترث منهم لأحد ، وقوله (غير جفنها) أي جفنها وحده راق ، لأنها لا تعشق نفسها فتدمع عينها .

ولم يوافق الأصبهاني على شرح ابن جني ، وقد عبر عن وجهة نظره بقوله : إن قول أبي الفتح : لا تعشق نفسها فتدمع عينها ليس بشيء ، وإنما المعنى أنها لم تذق طعم العشق فهي غافلة عنه ، فلا تبكي كما قالت الشعراء وأحدهم عمر ابن أبي ربيعة قال :

وكنت إذا ما حدث الناس بالهوى ضحكت وهم يبكون من حرقات

فصرت إذا ما قيل هذا متيم تلقيته بالنوح والعبرات

أي عشقت فصرت مثلهم[1] .

انتهي كلام الرجلين ، والاختلاف بين الشرحين محصور في جزئية بسيطة لكنها دقيقة . ذلك أن ابن جني قد ذهب إلى أنه لايوجد من هو جدير بالعشق سواها رجلا كان أو امرأة ، وإذن فهي لن تعشق غيرها ، ولما كان عشق النفس غير وارد هنا فإنه نفي عشقها إطلاقاً ، ويترتب على ذلك أن يكون جفنها خالياً من الدمع دائماً .

أما أبو القاسم فقد أمسك بما ترتب على المعنى الأصلي وتشبث به ، وهو أنها لا تبكي بسبب عدم عشقها أي لرجل ، إذ لم تجد كفئها من الرجال .

فالمعنيان معنى واحد ، لأنه لا فرق بينهما إلا أن ابن جني قد بالغ

---

(١) الإيضاح ص ٥٨ .

فوسع دائرة المعشوق . في حين وقف أبو القاسم عند الدائرة الطبيعية للعشق ، وهي أن يعشق الجنس الجنس الآخر .

وما ذكرنا معناه أن قول أبي القاسم : (إن كلام ابن جني ليس بشيء) ليس بشيء .

— ٨ —

عيون رواحلي إن حـــرت عيني وكل بغام رازخـــةٍ بغـــامي

هذا البيت من قصيدة يتحدث فيها المتنبي عن حُـمَّـاه التي كانت تغشاه (الملاريا) ومطلعها :

ملـــومكما يجـــــل عن المـــلامِ ووقـــع فعاله فـــوق الكلام

والمتنبي يعرض فيها عضلاته بشكل واضح ، وتأمل قوله بعد بيت المطلع

ذراني والفـــلاة بـــلا دليـــل ووجهي والهجير بـــلا لثـــامِ

فإني أستريح بـــذا وهـــــذا وأتعب بالإناخـــة والمقـــام

عيون رواحلي إن حِرْتُ عيني وكل بغامِ رازحةٍ بغـــامي

فقد أرد الميـــــاه بغير هـــادٍ سوى عَدِّي لها بَرْقَ الغمام[1]

فالقصيدة كما نرى من أبياتها التي افتتحها بها تضج بالقوة ، والثقة ، والفحولة والهمة العالية ، والنفس الكبيرة التي يطاوعها جسم سليم يتمتع بالصحة والصلابة ويقظة الحواس ، والقدرة على مقاومة الأحداث وإن جلت.

---

(١) شرح العكبري جـ ٤ ص ١٤٢ .

ونأتي إلى المفسرين الفاضلين لنرى ما عندهما في شرح « عيون رواحلي...
قال أبو الفتح : حرت : أي تحيرت ، والبغام : صوت الناقة المعيبة ، وسألت ـ المتنبي ـ عن هذا فقال : معناه إن حارت عيني فعيون رواحلي عيني ، وبغامهن بغامي أي إن حرت فأنا بهيمة مثلهن كما تقول : إن قلت كذا وكذا فأنا مثلك .

وقال أبو القاسم : قاعدة : عِلَلُ أبي الفتح إذا أعياه معنى البيت أن يسنده إلى المتنبي أو يقول : هذا حصلته عليه ، أو يقول : بهذا أجابني وقت الاجتماع معه ، والغريق يتعلق بما يرى .

وإنما معنى البيت : أن عيون إبلي تهتدي إلى الطريق وسلوكه لاعتيادها قطع الأسفار وإلفها سلوك المفاوز ، فكلما تحيرت فهن هادياتي ، وإذا ضللت كن مرشداتي ، والبيت الأول يدل على ما قلت وهو .

ذراني والفلاة بلا دليل ووجهي والهجير بلا لثام[1]

* * *

انتهى كلام أبي القاسم ولنا عليه تعليقان هما :

١ ـ أن البيت الذي استدل به على وجهة نظره ليس له بل عليه ، فالمتنبي يقول فيه لصاحبيه : اتركاني وشأني ، لا حاجة بي إلى دليل .

يريد أن يقول : إنني خبير بالمسالك ، وباتقاء المهالك ، لا أن معي ناقتي ستهدين .

ولو كانت ناقته ستهديه ، فهل هي أيضاً التي ستلثمه لتحفظه من الهجير؟!

---

(١) الواضح ص ٧٨ .

إنه يلقي بنفسه في الصحراء بلا لثام ولا دليل ، شراسةً وفراسةً ورجولة . ثم هو قد نص على ذلك في البيت التالي لبيتنا قال :

فقد أرد المياه بغير هاد سوى عدى لها برق الغمام

هو يعرف شئون الغمام والبرق ، أفلا يعرف شئون الصحراء ؟ وهي معرفة حقيقية ، وخبرة واقعية ، لا مبالغة فيها ، ولا ادعاء . قال ابن الأعرابي في النوادر :

كان العرب إذا لاح البرق عدوا سبعين برقة ، فإذا كملت وثقوا بأنه برق ماطر ، فرحلوا يطلبون موضع الغيث ، وأنشد عمر بن الأعور :

سقي الله جيرانا حمدت جوارهم كراما إذا عدوا وفوق كرام

يعدون برق المزن في كل مهمه فما رزقهم الا بروق غمام[1]

وفي الفلاة يضمن الحياة من ضمن المياه ، وها هو ذا المتنبي قد ضمنها فما الخوف عليه إذن ؟

هذا تعليقي الأول .

ومن تمامه ما ذكره المحقق الفاضل في الهامش رقم ٣ ص ٧٨ ، من أن ذكر البغام لا يناسب إلا المعنى الذي رواه أبو الفتح عن الشاعر نفسه .

* * *

٢ – ونصل إلى التعليق الثاني لنقول – بكل أسف – إن هذه المخرقة من الأصبهاني لابن جني ليست أول مخرقة منه له . فقد مررنا بمثلها في صدر تعليقه على شرح ابن جني لبيت المتنبي :

(١) شرح العكبري ج ٤ ص ١٤٣ .

لو مر يركض في سطور كتابه أحصى بحافر مهره ميماتهـا

ذكر تفسير ابن جني ثم قال : « لأبي الفتح ثلاث علل اتخذها قواعدَ في شعر المتنبي إذا ضاق به الأمر :

إحداها : أنه يحيل بالمعنى على الفسر الكبير .

والثانية : أن يقول « بهذا أجابني المتنبي عند الاجتماع » .

والثالثة : أن يقرن بالبيت مسألة في النحو تستهلك البيت واللفظ والمعنى [1] .

وهذا السلوك مذموم في الجدل ، لأنه ينافي أدب البحث والمناظرة ويدل على التكبر الذي قد يكون في غير محله ، أو من غير أهله أو هما معاً .

— ٩ —

بنى كافور داراً أبطأ المتنبي في وصفها ، بل لم يهنئه بها ، ولما أمره كافور بذكرها قال معتذراً ومادحاً :

انما التهنئـــات للأكفـــاء ولمن يدَّنى من البعـــداء

وأنا منـــك لا يهنيء عضـــوٌ بالمسرات سائـــرَ الاعضـــاء

مستقل لك الديار ولو كـــا ن نجوما آجر هـــذا البنـــاء

ولو أن الذي يخـــر من الأمـــ ـــواه فيها من فضـــة بيضاء

أنت أعلى محـــلة أن تهنى بمكان في الأرض أو في السماء

(١) الواضح ص ٣٦ .

ولك النـــاس والبـــلاد ومايــ مرح بين الغـــبراء والخضراء

إنما يفخر الكريم أبـــو المسـ ـك بما يبتنى من العليـــــاء

وبأيامـــه التي انسلخت عنـ ـــه وما داره سوى الهيجـــاء

وبمسك يكنى به ليس بالمسـ ـك ولكنه أريج الثنـــــاء

يفضح الشمس كلما ذرت الشمـ ـس بشمس منيرة ســــوداء

ان في ثوبك الذي المجد فيـــه لضياء يزرى بكل ضيـــاء[1]

* * *

وبدلا من أن يشرح ابن جني البيت يفضح الشمس كلما ذرت الشمس .. علق عليه بقوله « تهزوء وسخرية » .

أما أبو القاسم فقد قال : معناه أن كافوراً في إشراق أفعاله ووضوح مكارمه شمس تغلب ضياء الشمس ، وهو أسود اللون ، ويتلوه قوله .

إنما الجلد ملبس وابيضاض النفـ ـس خير من ابيضاض القباء [2]

وقد تقدمه في هذا المعنى عبد بني الحسحاس حيث يقول :

إن أك عبدا فنفسي حرة كرما أو أسود اللون إني أبيض الخلق[3]

* * *

والخلاف قائم وحاد بين المفسريْن ، فقد وقف أحدهما وهو أبو القاسم عند ظاهر اللفظ ، وتعامل مع النص رأساً .

---

(١) ديوان المتنبي بشرح العكبري ج ١ ص ٣٢ — ٣٦ .
(٢) البيت الذي يتلوه هو ما ذكرناه ثم ما ذكره .
(٣) الواضح ص ٩٤ .

أما ابن جني ، فقد توجه إلى نية صاحبه . والحق كل الحق مع أبي القاسم فالنقد الأدبي بنوعيه — التفسيري والحكمي — يتوجه ويجب أن يتوجه إلى النص المنقود لا إلى نية صاحبه ، أي إلى ما قاله الأديب فعلا ، وليس إلى ما يقال : إنه كان ينوي قوله ، فما هدانا إليه هو المعول عليه في الحكم النقدي، ولا عبرة بما يقال من أن الشاعر أو الكاتب أراد غير ما أفاده كلامه .

وقد دارت معركة حامية حول هذا الموضوع بين ابن الأثير في المثل السائر وابن أبي الحديد في الفلك الدائر ، وهذه ملامح منها مع تعليقي عليها :

أورد ابن الأثير قول المتنبي في كافور :

فمالك تعني بالأسنة والقنـــا وجدك طعان بغير سنـــان

وعلق عليه بقوله : إن هذا بالذم أشبه منه بالمدح ، لأنه يقول :

لم تبلغ ما بلغته بسعيك واهتمامك ، بل بجد وسعادة ، وهذا لا فضل فيه ، لأن السعادة تنال الخامل والجاهل ومن لا يستحقها ، وأكثر ما كان المتنبي يستعمل هذا القسم في قصائده (الكافوريات) وحكي أبو الفتح ابن جني قال « قرأت على أبي الطيب ديوانه إلى أن وصلت إلى قصيدته التي أولها :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل اعجب

فأتيت منها على هذا البيت وهو :

وما طربي لما رأيتـك بدعـة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

فقلت له : يا أبا الطيب لم تزد على أن جعلته أبا زنة [1] ! فضحك لقولي.

(١) أبو زنة : كنية القرد .

وهذا القسم من الكلام يسمي الموجه ، أي له وجهان ، وهو مما يدل على براعة الشاعر وحسن تأتيه[1] .

هذا ما قرره ابن الأثير ، ولم يقره عليه ابن أبى الحديد ، بل تعقبه بكلام مفيد قال : إن الناس واقع لهم واقع ظريف مع المتنبي في هذا الباب ، وكان أصله الشيخ أبو الفتح عثمان بن جني رحمه الله ، وزعم من جاء بعده أن المتنبي كان يقصد ذلك ويتعمده ومنهم من زعم أن كافوراً كان يتفطن لذلك ويغض عنه .

* * *

ولم يجر ابن أبى الحديد في هذا المضمار ، وإنما تلقاه بالإنكار فقال : وما كان ذلك قط ، ولا وقع شيء منه ، ولا قصد أبو الطيب نحو ذلك أصلا فأما هذا البيت وغيره ، فلقد قال في سيف الدولة مثله بل أمثاله ، ومن ذلك قوله :

ولقد رمت بالسعادة بعضـــا   من نفوس العدا فأدركت كلا

وقوله :

إذا سعت الأعداء في كيد مجـده   سعي جَدّه في كيدهم سعي محنق

وقد قال في وداع عضد الدولة أبى شجاع ، وهو أعظم ملكاً من سيف الدولة ، وأشد بأساً ، وأكثر انتقاداً للشعر :

وأيا شئت يا طرقي فكـــوني   أذاة أو نجاة أو هـــلاكا

يشرد يُمْنُ فنا خسر عني   قنا الأعداء والطعن الدراكا

---

(١) المثل السائر ص ٧٨ – ٧٩ .

ولكن سيف الدولة لما اشتهر إخلاص أبي الطيب في ولائه ، عدل الناس عن هذا الشعر الذي يتضمن ذكر الجد والحظ ، فلم يذكروه ، ولم يجعلوه موجهاً متوسطاً بين المدح والذم ، وقالوا ذلك في كافور لما حدث تغيره مع أبي الطيب وانحراف كل واحد منهما عن صاحبه ، ومجاهرة أبي الطيب له بعد مفارقته بالهجاء .

* * *

ولو تأملت الاشعار كلها ، وأردت أن تستنبط منها ما يمكن أن يكون هجاء لقدرت . هذا السيد الحميري من الشيعة العلوية ، لا يختلف في ذلك اثنان ، وقد روى الجاحظ أن بعض الشيعة أنشد أبا مخلد قول السيد :

أقسم بالله وآلائـــــــه	المرء عما قال مسئـــول
إن علي بن أبي طالب	على الهدى والبر مجبـول
ذاك الذي سلم في ليلــة	عليه ميكال وجبريـــــل
ميكال في الألف وجبريل في	ألف ويتلـوه اسرافيـــــل
في يوم بدر بددا كلهم	كأنهم طـــير أبابيــــــل

فقال أبو مخلد الشيعي إن الشاعر لم يمدح صاحبك ، وإنما هجاه في موضعين : أحدهما أنه زعم أن علياً مجبول على البر والهدى ، ومن جبل على أمر لم يمدح عليه لأنه لم يكتسبه بسعيه .

والثاني أنه زعم أنه قد أيد في حروبه بالملائكة ، ولا فضيلة له إذن في الظفر لأن أبا حية النميري لو أيده هؤلاء لقهر الأعداء وغلبهم[1] .

---

(١) اسمه الهيثم بن ربيع شاعر مجيد من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية كان أهوج جباناً بخيلا — وانظر الأغاني ج ١٥ ص ١١ والفلك الدائر ص ٦٤ .

ويستطرد ابن أبي الحديد، مبيناً أن ذلك قانون عام ، وأنه قانون قاصد وراشد قال : « واعلم أن الشعراء ما زالت على قديم الدهر وحديثه يمدحون الرئيس بعلو جده ومساعدة الأقدار له ، ومطاوعة الأفلاك والكواكب والدهر لإرادته ، وأقوالهم في هذا أكثر من أن تورد وتحكي ، وإن كان الأصل في إكثارهم من ذلك أن يثبتوا لأعداء الممدوح وخصومه أنه منصور من السماء ، وأنه محاط بالعناية الإلهية فيوقعوا الرعب منه في الصدور ، والخوف في القلوب ، إلى أن ينخذل من يناوئه من غير حرب ولا كيد .

وقد روى أن ملك الصين عرض جيشه على الإسكندر فاستعظمه ورأى ما هاله فقال الملك : قد كنت قادراً على أن أصادمك بهذا الجيش ، لكني رأيت الأفلاك ناصرة لك ، فرأيت ألا أحارب من تنصره الأفلاك ثم أعطاه الطاعة »[1] .

وابن أبي الحديد بهذا الذي قاله قد صحح مفهوماً خاطئاً لدى القراء الذين غالوا في توجيه الكافوريات ، ووقفوا بالمتنبي من أجلها على الأعراف بين المدح والهجاء ، وغالوا أكثر ، فقالوا إن ذلك كان مقصوداً للمتنبي ، ومفهوماً بل مهضوماً من كافور » .ولم أتبين — وما أظن أني سأتبين — مدى التطابق بين هذا الكلام السخيف للنقاد ، وذلك الشعر المعجب لأبي الطيب .

إحصائية

كتاب الواضح — عدا المقدمة — شطران :

الشطر الأول : تعليقات على شطر بيت أو بيت أو بيتين مما ورد في الفسر الصغير .

(١) الفلك الدائر ص ٦٠ — ٦٥ .

وهذا الشطر هو صلب الكتاب الذي تحركتْ به ظروفه التي شرحناها في صدر هذه الدراسة .

وعدد المواقف في هذا الشطر تسعة وسبعون :

منها إثنان يدور كل منهما حول شطر بيت وهما : الموقف رقم ٢٣ ص ٤٧ ، والموقف رقم ٤٦ ص ٦٧ . ومنها أربعة مواقف يدور كل منهما حول بيتين وهي المواقف : ١٧ ص ٤٢ ، ٢٤ ص ٤٨ ، ٥٥ ص ٧٢ ، ٦٤ص٧٩:

أما بقية المواقف وعددها ثلاثة وسبعون فتدور حول بيت واحد .

* * *

الشطر الثاني : وهو ملحق أو تكملة أو تذييل لكتاب الواضح . وقد اشتمل على عشرين موقفاً منها تسعة عشر موقفاً تعقب فيها ابن جني في فسره الكبير بواسطة أسئلة وجهها إليه طائفة من كتاب الإنشاء في بلاد العجم ، وهذا يعني أنه لم يختر تلك المواقف ولم يحددها كما حصل في المواقف السابقة .

وكل موقف من هذه المواقف قد دار حول بيت واحد إلا الموقف الرابع عشر ص ٩٤ ، فقد دار حول شطرة واحدة . والموقف العشرون يدور حول بيت رأى الأصبهاني أن يفسره دون ذكر منه لتفسير ابن جني له . وتفسيره له – لهذا – نوع من العزف المنفرد .

هذا في الواضح .

* * *

أما خارجه ، فلابن جني عليه شرح أورده العكبري ، وأورد بعده نقدين له ، أحدهما لابن فورجة ، والآخر للواحدي . وهذا البيت العشرون من قصيدة يمدح بها أبا الفضل ابن العميد ، ويودعه قال :

وتنسب أفعال السيـــوف نفوسها إليه ، وينسبن السيوف إلى الهند

قال أبو الفتح : أفعال السيوف أشرف من السيوف ، وأفعالها تتشبه بأفعاله في مضائه وحدته وتنسب السيوف إلى الهند ، ألا ترى أنه يقال : سيف هندي وسيف يماني ، وفعل السيف أشرف منه ، كذلك أنت أشرف من الهند .

قال ابن فورجة : قد خلط أبو الفتح حتى لا أدري أي أطراف كلامه أقرب إلى المحال ولم يجر ذكر التشبيه ، وإنما يقول : – إنها تنسب أفعالها إليه أي تقول : هذه الضربة العظيمة من فعله لا من فعلنا ، وهذا كقوله :

إذا ضربت بالسيف في الحرب كفه　　　تبينت أن السيف بالكف يضرب

والمعنى : أنها تنسب الفعل إلى كفه ، وتنسب السيوف إلى الهند ، وهذا معنى لطيف ، يقول : إن ضربة السيف العظيمة تنسب نفسها إليه ؛ لأنها حصلت بقوته وتنسب السيف أيضاً إلى الهند ؛ لأنها دلت على جودة ضربته وعمله ، فالضربة قد دلت على قوة الضارب ، ودلت على جودة السيف ، وليس في هذا البيت أنه أشرف من الهند .

وقال الواحدي : المعنى أن الضربة بجودتها دلت على أنها حصلت بكف الممدوح ، والدلالة هي نسبة نفسها إليه ، ودلت أيضاً على أنها حصلت بسيف هندي ، أي قد اجتمع للضربة قوة اليد وجودة النصل[1] .

تعليق

قبل أن نودع كتاب (الواضح) نقرر أن الأصبهاني كان أميناً كل الأمانة وهو يورد شرح ابن جني للأبيات التي كانت موضوع (الفسر الصغير) ،

---

(١) شرح العكبري جـ ٢ ص ٦٥ – ٦٦ .

فهو لا يغير كلام ابن جني حتى يجعله موضع مؤاخذة ، ثم يؤاخذه ، كما أنه لا يجتزئه أو يختصره اختصاراً مخلا .

أي أنه قد التزم بما ذكره في أول كتابه حين قال :— « والشرط أن أورد في كل بيت ألبتة لفظ أبي الفتح بلا زيادة ولا نقصان [1] » .

* * *

وهذا لا يعني أن أبا القاسم كان عف القلم وهو يكتب ، فقد رأيناه يمخرق ابن جني ويخرج معه عن موضوعية النقد .. فعل ذلك مرتين في مكانين مختلفين .

رأيناه له أولا في ص ٣٦ فغضضنا الطرف عنه ، ولم نؤاخذه به ، لكننا لما رأيناه يكرره في ص ٧٨ سجلناه عليه ، وبينا خطأه فيه .

ويشفع له أنه مطلع على الشعر العربي قديمه وحديثه فهو بارع في رد المعاني إلىمنابعها ، وفي الانتقال بها من شاعر إلى شاعر ، ولهذا كثيراً ما قال بالسرقة ، أو وازن بن التناول موازنة تدل على ذكائه وعلى قوة حسه ، وأيضاً على تبحره في اللغة .

ومعظم كتابه يدل على ما ذكرناه ، وفيما أوردنا منه مايشهد بصدقه . لكننا سنسوق هذا النموذج تكملة للعشرة ودليلا على أن علم الرجل باللغة لا يقل عن علمه بالأدب ولا عجب ، فقد سلك طرائقها ، وعرف أدق دقائقها قال المتنبي :

وأجفل بالفرات بنـو نمـير وزأرهم الذي زأروا خـوار

فهم حِزَقٌ على الخابور صرعي بهم من شرب غيرهم خمار

(١) الواضح ص ٦ .

قال أبو الفتح : أي قصد غيرهم فظنوا أنه أرادهم ، فأجفلوا بين يديه ، فتقطعوا .

وقال أبو القاسم : ليس معنى البيت ما أراده ، وإنما أراد أن بني نمير صالوا صولة الأسد جرأةً وإقداماً ، فلما لاقيتهم سقتهم سوق البقر انسلالا منك ، ومخافة لبأسك كما قال في أخرى :

ألم يحذروا مسخ الذي يمسخ العدى   ويجعل أيدي الأسد أيدي الخرانق

وقال في أخرى :

أسْدٌ فرائسها الأسود يقودها   أسَدٌ تصير له الأسود ثعالبا

والبيت الثاني : أنه أراق دماءهم ، فهو شاربها وهم مطروحون بالعراء كمن به الخمار . فأما الخُمار فإنما قالته العرب من لفظ الخمر واستقته منه ، ولم يقولوا : به نباذ كما قالوا : به خُمار ، لأن النبيذ ليس من كلام العرب . وضموا الخاء في خمار ، لأنه جار مجرى الأدواء كالصداع والزكام ولم يشذ عن هذا الباب إلا حرف رواه أبو عمرو الشيباني بالفتح وهي (السَّواف) لداء يصيب الإبل ، والأصمعي يرويه بضم (السين) وأنشد :

أفي نابين نالهما سُواف   تَألَّتْ طَلَّتِي ليستْ تَنَامُ[1]

وأما الحِران ، والخِلاء ، فأعطوه الكسرة وهي للعيوب . وأما الفتحة فجعلوها للمصادر كالذَّهاب لكثرتها في الكلام والخمر اشتقاقها من ثلاثة أشياء .

قال أبو عبيد : لأنها تخامر النفوس أي تخالطها ، ومنه خامرني الهم .

---

(١) الطلة : الزوجة .

وقال غيره : سميت خمراً ، لأنها تَخْمُرُ العقول أي تسترها . والخُمْرَةُ : السجّادة لأنها تخمر مكانها أي تستره ، وإليه يرجع معنى الخمار لمقْنَعَةِ النساء ، وأنشد الأصمعي في كتاب الأبيات :

وداهيــة جرهــا جــارم جعلت رداءك فيهـا خِمارا

أي جللت بسيفك رؤوس القوم بالضرب ، وقد أخذ هذا المعنى بعض المحدثين وكشفه فقال :

سَقيْتَ سِمَامَ الرقشِ بالبيضِ فَحلْتَهَــا
وجدلْتَه بالبأس والصــارم الهنــدي

وقيل في الخَمْر : إنها لذكاء رائحتها وطيبها من الخمرة ، وهي الرائحة الطيبة[1] .

* * *

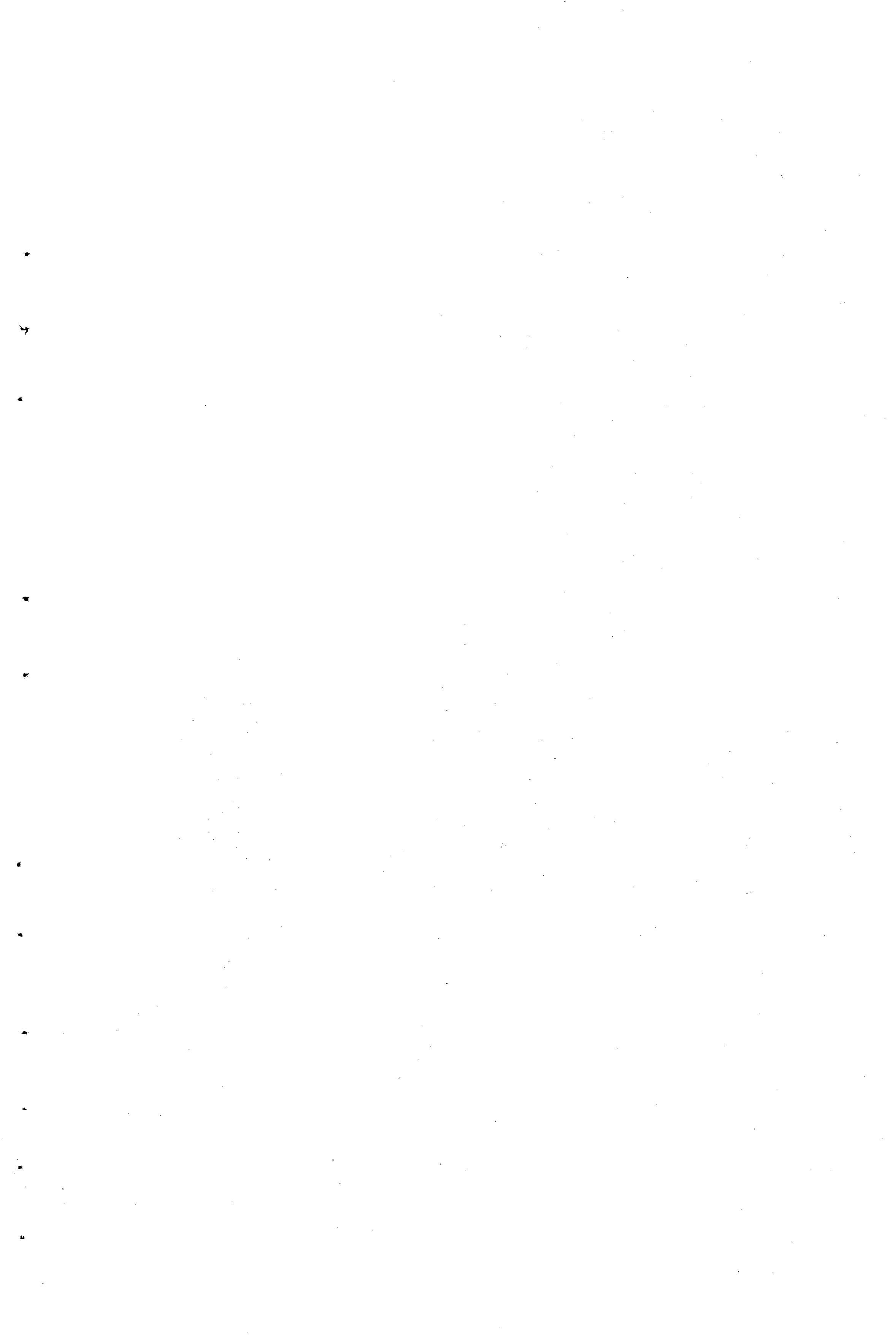
انتهي النموذج الذي ضربناه مثلا لتبحر الأصفهاني في اللغة بعد تبحره في الأدب . وها هوذا يأتى المتنبي من فوقه فيهما معاً بقوله : — وجملة القول في المتنبي أنه من حفاظ اللغة ، ورواة الشعر»[2] وقد رأيناه يعول في روعة الأدب وجودته على صياغته منضوياً تحت علم الألفاظ مع الجاحظ والعسكري

والخلاصة أن الأصبهاني قد دل بكتابه (الواضح) على رسوخ قدمه في الأدب وفي اللغة أما ناقداً فقد جاء بين بين ، وقد وجدتني — لهذا — مرة عليه ، ومرة معه ، والحق أحق أن يتبع .

(١) الواضح ص ٤٨ — ٥٠ .
(٢) الواضح ص ٢٧ .

الفصل الثاني

مع ابن فورجه وكتابه (الفتح على أبي الفتح)



الفصـــل الثاني
مع ابن فورجة في كتابه
الفتح على أبي الفتح

ابن فورجة :

هو محمد بن حمد بن محمد بن عبد الله بن فورجة البروجردي .

(فورجة) – بضم الفاء وسكون الواو وتشديد الراء المفتوحة ، وفتح الجيم – كلمة فارسية مكونة من مقطعين :–

(فور) ومعناها : ولد ، و (جه) وهي أداة التصغير ، فالمعنى العام للمقطعين هو (ولد صغير) أو (الولد الصغير) ، وهذا مثلما نسمي في العربية (وليد) أما (البروجردي) فنسبة إلى مسقط رأسه (بروجرد) : وهي قرية من أصبهان في إيران . ولد في ذي الحجة سنة ٣٣٠ هـ ٩٤١ م واسم أبيه – كما قلنا – حمد ، لا أحمد . ذكر المحقق الفاضل ذلك في تقديمه للكتاب نقلا عن العالم المحقق المستشرق الدكتور بلاشير . ومن عجب أنه خالفه في الأمرين معاً بجعله صفحة الغلاف هكذا :

[الفتح على أبي الفتح تأليف محمد بن أحمد بن فورجة المولود ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩م .]

وابن فورجة مجهول الوفاة . قيل كان موجوداً سنة ٤٥٥ وهو مستبعد وقيل كان موجوداً سنة ٤٢٧ هـ ، وهو – إلى حد ما – غير مستبعد .

ولما عرفوا به قالوا : أديب فاضل مصنف نحوي شاعر . وأضيف إلى

ذلك أنه كان ذواقة للأدب ، ورجلا من رجالات البلاغة والنقد . قرأ ديوان المتنبي بالعراق على عدد من العلماء والرواة ، وحصل على مخطوطات كثيرة له ساعدته على تحقيقه .

يقولون : إنه لما اطلع على (الفسر الكبير) — وهو الذي لم يقتصر فيه ابن جني على شرح أبيات المعاني ، بل تجاوزها إلى شرح ما رآه محتاجاً إلى شرح — أدار حوله كتابه الأول (التجني على ابن جني) ثم لما اطلع على الفسر الصغير — وحجمه مائة وخمسون ورقة — أدار حوله كتابه الثاني (الفتح على أبي الفتح) وستُبطِل هذه الدراسة هذا الكلام أو على الأقل ستضعفه إلى حد كبير .

وإنما سمي ابن جني كتابيه (الفسر الكبير) و (الفسر الصغير) مستعملا مصدر الثلاثي المجرد (فَسَرَ) ولم يستعمل مصدر مضعف العين (فسّر) لئلا يتبادر إلى الأذهان ، أنه تفسير للقرآن ، ذلك أن كلمة (تفسير) قد صارت حقيقة عرفية في تفسير القرآن الكريم ، وهي في الأصل تفسير لأي نص . هذا احتمال ، واحتمال آخر هو أنه أراد الاغراب باسم الكتاب فسماه (الفسر) كما أغرب اسماعيل بن حماد الجوهري فسمي معجمه (تاج اللغة وصحاح العربية) ف (صحاح) بكسر الصاد — جمع صحيح ، و (صَحاح) بفتحها : مفرد بمعنى صحيح مثل براء وبريء .

لكن لعله نظر إلى (صحيح) البخاري فخالف وأغرب .

بين أبي العلاء وابن فورجة

سبق القول بأن ابن فورجة كان شاعراً ، وقد نقل المحقق الفاضل عن صاحب اليتيمة هذين البيتين له :

كأن الأيك يوسعنـــا نثـارا	من الورق المكسر والصحـــاح
تميــد كأنمـــا علت بـــراح	وما شربت سوى المــاء القراح

كما نقل عن ياقوت هذه الأبيات له :

أيها القاتلي بعينيـــــه رفقــا	إنما يستحق ذا من قـــلاكا
اكثر اللائمــون فيـــك عتابي	أنا واللائمــون فيك فداكا
إن لي غيرة عليـــك من اسمي	إنه دائمـــا يقبـــل فاكا

وفي (شرح التنوير على سقط الزند) قصيدة لأبي العلاء المعري ، يجيب بها أبا علي محمد بن حمد بن فورجة من قصيدة أولها :

ألا قامت تجاذبني عنـــاني	وتسألني بعرصتهــا مقيـــلا

أما قصيدة أبي العلاء فمطلعها :

كفي بشحوب أوجهنا دليــلا	على إزماعنا عنـــك الرحيـــلا

وهي طويلة منها :

كلفنا بالعــراق ونحن شرخ	فلم نلمم به إلا كهــــولا
وشارفنـــا فراق أبي عـــلي	فكان أعز داهيـــــة نـــــزولا
سقـــاه الله أبلج فارسيـــــا	أبت أنوار سؤدده الأفــولا
بهرت ويوم عمرك في شروق	فدام ضحي ولا بلغ الأصيلا
وردنا ماء دجــلة خير مـــاء	وزرنا أشرف الشجر النخيـــلا
وزلنـــا بالقليـــل وما شفينـــا	وغاية كل شيء أن يـــزولا
ولو لم ألق غيرك في اغترابي	لكان لقاؤك الحظ الجميلا[1]

(١) شرح التنوير على سقط الزند ج ٢ ص ١١ طبعة مصطفى محمد بالقاهرة .

وقد دلت القصيدة التي منها هذه الأبيات ، بل لقد دلت هذه الأبيات وحدها على علو منزلة ابن فورجة عند أبي العلاء ، ولا عجب ، ففي (تعريف القدماء بأبي العلاء) أن المعري لما رحل إلى بغداد سمع من عبد السلام بن الحسن ، وقرأ عليه بها التبريزي وابن فورجة ، وأبو القاسم التنوخي[1] .

فيظهر — والله أعلم — أنهما لكونهما عالمين أديبين محبين للمتنبي وغريبين جاء أحدهما من الري عاصمة شمالي إيران القديمة ، وجاء الآخر من معرة النعمان بالشام — يظهر أنهما لكونهما كذلك قد تصادقا وتآخيا في بغداد .

* * *

الفتح على أبي الفتح : كتاب (الفتح على أبي الفتح) لابن فورجة تحقيق الأستاذ الجليل عبد الكريم الدجيلي ، ومن منشورات وزارة الأعلام بالجمهورية العراقية سنة ١٩٧٤ م تنفيذ دار الحرية للطباعة بواسطة مطبعة الجمهورية ببغداد في ٣٦١ صفحة من القطع المتوسط ، وهو العدد ٢٨ من سلسلة كتب التراث .[2]

قال الواحدي عنه وعن صنوه (التجني) « أما ابن فورجة ، فإنه كتب مجلدين لطيفين على شرح معاني الديوان (ديوان المتنبي) أحدهما :

(١) ص ٣٣٢ طبعة دار الكتب .

(٢) في كشف الظنون (٢/١٢٣٣) أن اسمه (الفتح على فتح أبي الفتح) . أورد الدكتور محسن عياض ذلك ورحب به في مقدمة تحقيقه كتاب (الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي) لأبي الفتح عثمان بن جني ومن عجب أنه الكتاب رقم ٢١ في سلسلة كتب التراث . بغداد . سنة ١٩٧٣ م . لكن يظهر أن الأستاذ الدجيلي لم يقتنع — مثلي — بأن اسم الكتاب هو (الفتح على فتح أبي الفتح). ولعله ظن كما ظننت أن ما جاء في كشف الظنون من باب السهو .

(التجني على ابن جني) والآخـــر (الفتح على أبي الفتح) أفاد بالكثير فيهما ، غائصاً على الدرر ، وفائزاً بالغرر ، ثم لم يخل من ضعف البنية البشرية ، والسهو الذي قلما تخلو منه البرية »[1] .

وهذا الكلام من الواحدي يعني أن ابن فورجة ألف كتابيه ليشرح فيهما أو بهما أبيات المعاني في ديوان المتنبي ، لا ليتجني على ابن جني ، ولا ليفتح عليه . فلماذا إذن سماهما بهذين الاسمين المثيرين؟!

الرأي عندي أنه جعل اسميهما هكذا طلباً للإثارة ، ورغبة في الشهرة ، ولأن لابن جني سابقة مزدوجة في هذا المضمار هي فسراه ، لكأنه يقول له لست وحدك الخبير بشعر المتنبي يا ابن جني ، وها أنذا آت إليك ، لأعقب عليك .

والذي أوهم أن الكتابين رد على ابن جني – عدا عنوانيهما – ما ذكره المحقق الفاضل من كلام حاجي خليفة قال : وعلى شرح ابن جني رد لمحمد ابن أحمد المعروف بابن فورجة .

ثم هذا العنوان الطويل لمخطوطة الفتح : (مشكلات ديوان شعر أبي الطيب المتنبي رداً على شرح أبي الفتح عثمان ابن جني فيما واخذ به المتنبي)

إنه تعريف بالكتاب أكثر منه عنواناً له ، لكنه تعريف خاطيء من مجهول غير فاهم ، ومعذرة ، فلست راضياً عن قوله .

(رداً على شرح أبي الفتح عثمان بن جني فيما واخذ به المتنبي) :

أجل : لست راضياً عن هذه العبارة له .

---

(١) مقدمة شرح الواحدي لديوان المتنبى ص ٤ .

وهل آخذ ابن جني المتنبي مؤاخذة تستحق الرد وهو الذي عينه المتنبي مديراً لشئون شعره يتولى جمعه وشرحه والرد على من يستفسر عن أي شيء فيه أو منه نيابة عنه ؟

والمفروض والحالة هذه أن يكون مدافعاً عن الشاعر لا مهاجماً له .

وإذا كان ابن جني قد هاجم المتنبي ، فهل جرد ابن فورجة من نفسه محامياً له أو قاضياً يفصل في القضايا المرفوعة من ابن جني عليه ؟

بَخٍ بَخٍ [1] . لكن لماذا لم يقل لنا ذلك في مقدمة كتابه أو في كتابه ؟ إننا لا نجد في المقدمة أنه ألفه (رداً على أبي الفتح عثمان بن جني فيما واخذ به المتنبي) . ومن يقرأ الكتاب لا يجد فيه شيئاً من ذلك لا تلميحاً ولا تصريحاً ، بل لا يجد سر تسميته بالفتح على أبي الفتح .

وسنذكر بعد قليل أن تعقب ابن فورجة لابن جني في الفتح جاء عرضاً لا قصداً وهذا مثلما يؤلف أحدنا فيجد في موضوع تأليفه كلاماً لغيره فيعرض له مؤيداً أو معارضاً .

* * *

هذا عن موضوع الكتاب واسمه . أما عن سبب تأليفه ، ولمن ألفه وهو في الوقت نفسه غير بعيد عن موضوعه فلا نعرف إلا أنه صدره بهذه الديباجة الدالة على أن سائلا سأله تأليفه فألفه لنا وله تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته قال :

سألت أنا لك الله سولك ويسر لك مأمولك أن أتتبع شعر أبي الطيب المتنبي ، فأستخرج منه الأبيات الغامضة وأشرحها شرحاً يأتي على إغرابه وإعرابه ، حتى تكون لمعانيها متصوراً وعلى حل عقدها مقتدراً ، وها أني شمرت لإسعافك بما سألت ، إن كان ظنك بعلمي صادقاً والقَدَرُ على ما أرومه

(١) بخ . كلمة مدح واعجاب بالشيء . وانظر أساس البلاغة ص ٦١ .

موافقاً وبالله أستعين وعليه أتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل[1] .

ونسأل : أكان هناك من سأله فأجابه ؟ أم أنه أخرج كلامه هذا الإخراج الحواري حيث يجرد الإنسان من نفسه شخصاً يسأله فيجيبه بما يريد قوله .

أم لا هذا ولا ذاك ، وإنما أراد أن يرضي غروره ، وأن يقنع نفسه بأنه ليس أقل من ابن جني ، بل إنه مثله من جهة قصد الناس له وسؤاله عما لا يعلمون ؟

لا نستطيع تعيين واحد من هذه الاحتمالات ، فلنترك المسألة معلقة ، ومترددة بين العلمية والفنية ، وتحقيق الذاتية .

منهج الفتح

منهج ابن فورجة في (الفتح) كمنهج الأصبهاني في (الواضح) .

يأتي ببيت المتنبي أولا مرتباً - بالنسبة للقافية - على حسب الحروف الهجائية وفي أعقابه شرحه هو غالباً ثم شرح ابن جني إن وجد ، وقد يبدأ بشرح ابن جني .

ولنلاحظ أن موقف ابن فورجة من ابن جني مختلف عن موقف الأصبهاني منه : الأصبهاني نصب نفسه أميراً عليه ومراجعاً له ، وهو لهذا مشغول بأن ينبه على خطئه هنا أو هنا ، وعلى أنه لم يستكمل كذا ، أو قال كذا ، وكان الأفضل أن يقول كذا ونحو ذلك .

أما ابن فورجة فلم يزد على أن دخل مجال العمل الذي سبقه إليه ابن جني أى أنه منافس له ، وقصده من كتابه إنما هو شرح أبيات المعاني كابن جني ، صرح بذلك في المقدمة فقال « إن ما يستبهم معانيه على الأذهان من الشعر ثلاثة أضرب . وأنا أضع في كتابي هذا لكل نوع منها مثالا تعرفه وأدلك على مثله من شعر

(١) ص ٣٥ من الطبعة المحققة .

هذا الفاضل [1] » وصرح به في أثناء كتابه ، فهو بعد أن صحح زلة من زلات الصاحب ابن عباد قال : « وترك الدلالة على هذه الزلة غير سائغ مع ما قصدنا له من الدلالة على غامض أبيات هذا الفاضل »[2] .

وإذا كان ابن فورجة قد دلف إلى الميدان نفسه الذي سبقه إليه ابن جني ، فمن المنطقي ، بل من المنتظر والبديهي أن يجد كثيراً من أبيات المعاني مشروحة من قبل ابن جني ، وطبيعي بل ضروري علمياً ومنهجياً أن ينظر فيما قاله ابن جني شرحاً لهذه الأبيات ، ليقف على ما فيه من صواب أو خطأ ، ومن نقص أو كمال ، ثم يشرع قلمه ويسجله وهذا هو ما فعله في كثير من الاحترام لابن جني والتأدب معه ، وفي قليل من العنف به والتشنيع عليه . فمن تعليقاته المعجبة . وتعقيباته المؤدبة « وإذا زل الشيخ أبو الفتح في معنى عذرناه ، لكونه عن صناعة الشعر بمعزل ، فأما القاضي أبو الحسن فلا عذر له وإنما جناية العجلة ، وحاشا لله أن أدعي الفضل على تلاميذهما ، فكيف عليهما ؟! ولعل السهو أن يتفق عليّ في كثير مما أظنني أحرزت أطرافه ، إلا أن الدلالة على السهو واجبة[3] » .

« وقال الشيخ أبو الفتح غير ما قلنا ،ولم يعد الصواب لكنا قلنا برأينا»[4]

« هذا على ما قاله رحمه الله إلا أنه يحتاج لهذا البيت إلى فضل تبيان»[5].

وقد فسر هذا البيت أبو الفتح فجود ، ولم يبق ما يزاد إليه ، ونحن نتكلم

(١) ص ٣٢ .
(٢) ص ٧٠ .
(٣) ص ٨٠ .
(٤) ص ٩٥ .
(٥) ص ١٣٠ .

فيه لئلا يشذ عن هذا الكتاب بيت مما له معنى غلق إلا ونأتي به [1] » .

وعندما أورد بيت المتنبي :

جعلتــك بالقلب لى عــدة لأنــك باليــد لاتجعــل

عقب عليه بقوله : قال الشيخ أبو الفتح : أي أنت أكبر قدراً من أن تتصرف فيك الجوارح ، وإنما تنال بالفكر والاعتقاد ، وهذا هو التفسير الذي لا محيص عنه » [2] .

ومرة أثبت شرح ابن جني لبيت ثم علق عليه بقوله « وقد جود في شرح هذا البيت وذكر إعرابه »[3] .

ومن فضل ابن فورجة ، بل من جلاله وكماله أنه ختم كتابه بهذه الكلمات الطيبات له قال : هذه الأبيات التي أتينا بها هي التي توهمناها غلقة المعاني ، ولعل قائلا أن يقول : فهلا فسر بيت كذا وهلا أتى بمعنى كذا ؟ وكل أحد له غرض مقصود ، وما رأيناه غلقاً يراه غيرنا ظاهراً ، ولعل ما يراه غلقاً رأيناه ظــاهراً ، فليعذرنا متأملو هذا الكتاب ويعلموا أننا أردنا نفع قارئه وما توخينا دعوى الفضل على أبى الفتح ابن جني ولاسمت هممنا إلى مباراته . وبودنا لو أدركنا القراءة عليه ، والاستفادة منه ، وإلى الله نرغب في إنالة جواره ، وإفراغ عفوه وغفرانه عليه وعلينا»[4] .

* * *

ولابن فورجة مدخل نقدي صدر به عمله ، واسمع قوله : إن ما يستبهم

(١) ص ١٧٣ .
(٢) ص ٢١٣ .
(٣) ص ٣٠٢ .
(٤) ص ٣٤٧ .

معانيه على الأذهان من الشعر ثلاثة أضرب ، وفي كلها يضرب هذا الديوان ديوان المتنبي بسهم ، ويأخذ منه بقسم ، وأنا أضع في كتابي هذا لكل نوع منها مثالا تعرفه ، وأدلك على مثله من شعر هذا الفاضل لتتدرج به إلى ما ترومه ، وتتخذه سلماً إلى ما تعطو له ، ويكون لك عوناً على ما تتوخاه وتتلمسه ، فلا شيء افتق للخواطر في استنباط المعاني من مهاجسها ، ولا ابعث للقرائح من استثارتها من مكامنها من طول مراسها وعد أنفاسها » .

فأول نوع منه هو الذي صدك جهل غريبه عن تصور غرضه ، وهذا النوع ثلاثة أقسام :

أحدها : مالا يتضمن غير كلام مهجور ولفظ مستشنع ، وبعد أن يمثل له برجز وبيتين لأبى تمام يقول : فأما في شعر أبي الطيب فهذا القسم أيضاً موجود ، وأظنه كان يتعمد إلى ذلك تصديقاً لقوله :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

فمن ذلك قوله :

أحاد أم سداس في أحاد لييلتنا المنوطة بالتناد

ويأخذنا العجب ، إذ نجد أن بيتي أبى تمام وهذا البيت للمتنبي ، ليست من الغريب المهجور الذي إذا عرف انكشف عن معنى ظاهر ، وإنما هي من قبيل التعقيد في الكلام لفظياً كان أو معنوياً .

وبعد بيت المتنبي والكلام عنه . نجد أنفسنا مع القسم الرابع أى من الضرب الثاني الضائع هو وثلاثة أقسامه الأولى ، والقسم الرابع هذا هو الإلغاز الصريح كقول الشاعر :

وصادرة معا والورد شتى على أدبارها أصلا حدوت

وعارية لها ذنب طويل رددت بمضغة مما اشتهيت

يعني بقوله (وصادرة معاً والورد شتى) سهاماً رماها فوردت متفرقة ، يعني وردت الرمية ، فلما التقطها من مساقطها صدرت عن مواردها مجتمعة . و (حدا على أدبارها) يعني : ارتجز حين رماها على عادة العرب في الحروب . أما العارية ذات الذنب الطويل فهي النار ، لأنها لا تكون إلا عارية. وردها بمضغة يعني كب عليها مضغة شهية من اللحم ، فكأنه رد المضغة على وجهها . وهذا الجنس في الأشعار أكثر من أن يحصى . وفي شعر المتنبي منه قوله :

لا ناقتي تقبل الرديف ولا بالسوط يوم الرهان أجهدها

شراكها كورها ومشفرها زمامها والشسوع مقودها

أشد عصف الرياح يسبقه تحتي من خطوها تأودها

يعني نعله ، فهي ناقته التي يمتطيها ، وقد كرر هذا المعنى في شعره فقال من قصيدة أخرى :

وحبيت من خوص الركاب بأسود من دارش فغدوت أمشي راكبا

يعني خفه . وبعد ذلك النوع الثالث أي الضرب الثالث والأخير . ونفهم من هذا التقسيم الذي قسمه ، ومن ذلك الفوت الذي فاتنا بسبب سقوط وريقات من المخطوط أنه جعل هيكل البحث ثلاثة أضرب :

الضرب الأول : ثلاثة أقسام لم يصل إلينا منها إلاالقسم الأول وضاع القسمان الثاني والثالث .

الضرب الثاني : وهو ضائع لم نعرف ما هو ، لكنا قد فهمنا أنه أربعة أقسام ضاعت الأقسام الثلاثة الأولى وبقي لنا القسم الرابع

النوع الثالث : أي الضرب الثالث مما جعله البناء الأصلي والهيكل العام للكتاب وقد سلم والحمد لله قال : « النوع الثالث » ولا أقسام له ، وإذن فالمنهج أن الكتاب ثلاثة أضرب :

الضرب الأول ثلاثة أقسام .

والضرب الثاني أربعة أقسام .

والضرب الثالث لا أقسام له .

ونسأل : هل جاء الكتاب موزعاً على هذه الأضرب الثلاثة ، ومنوعاً بحسب تلك الأقسام السبعة ؟ ونجيب لا ، فبعد أن تكلم عن الضرب الثالث شرع في الكتاب بقوله « وهذا أول ما نبدأ به من أبيات أبي الطيب المعتاصة» وكان الواجب أن يقول : وهذا هو الكلام عن القسم الأول من الضرب الأول. أو وهذه هي الأبيات المعتاصة التي نمثل بها للقسم الأول من الضرب الأول ونحو ذلك . قد يقول قائل : إنه لم يقل ذلك وقد يكون فعله ، أي بنى الكتاب عليه فعلا . وأقول : لا ، فالكتاب من أوله إلى آخره حشد لأبيات من شعر المتنبي ثم كلام حولها .

وإذن فالمنهج المصدر به الكتاب لم يطبق في الكتاب ، وإنما منهج فقط . ومرة أخرى نسأل : هل سلمت لهذا المنهج أضربه ، وتحددت أقسامه ؟؟ أو أنها جاءت فوضى لا ضوابط تضبطها ولا روابط تربطها ؟

الإجابة للأسف الشديد أنها جاءت فوضى لا ضوابط تضبطها ، ولا روابط تربطها ، وإلا فالقسم الرابع من الضرب الثاني إنما هو الضرب الثالث بعينه ، كلاهما الغاز وأما القسم الرابع من القسم الثاني فإلغاز صريح كما سبق . وأما الضرب الثالث برمته وهو الذي ذكر أنه لا أقسام له ، فقد حدده بأنه ما عمّاه إعرابه لمجاز فيه أو حذف من اللفظ أو تقديم وتأخير سوغه الإعراب .

مثل ماذا يا ابن فورجة ؟ يجيب : مثل أبيات الإلغاز التي منها .

محمدِ زيداً وأقتل ابنى فإنه أحب الى قلبى من السمع والبصر

محمّ : منادي مرخم . د زيداً : من الدية ، و (أقت لابني) أي أخدم له ومنه قول عمرو ابن كلثوم : — متى كنا لأمك مقتوينا ؟!!

ما هذا ؟

لا شيء غير أننا بازاء خلل في التصميم أو في التقسيم أو فيهما معاً . نغادر الإلغاز في القسم الرابع من الضرب الثاني لنستقبله في الضرب الثالث الذي لا أقسام له . والحقيقة أن الكتاب قسمان أساسيان، ولا شيء غير ذلك .

القسم الأول : أبيات سبق ابن جني إلى شرحها وتعاقب على هذا الشرح ابن فورجة .

والقسم الثاني : أبيات استقل ابن فورجة بشرحها :

هذا التقسيم الذي ذكرته هو التقسيم الفعلي للكتاب وهو تقسيم قائم على التجميع الذي ننهض به نحن لو أردنا . أما على الطبيعة فأبيات القسمين متداخلة لا تمتاز . حتى هذه لم يعملها ابن فورجة ، ولعل هذا أن يكون دليلا جديداً على أنه لم يقصد تعقب ابن جني ابتداء . ودليل آخر على أنه لم يقصد تعقب ابن جني ابتداء هو نظام **الإيراد** أو ما يمكن تسميته **بالمنهج الجزئي** .

فهو يورد بيت المتنبي ويعقبه بشرحه ، ثم إذا كان هناك شرح لابن جني يريد مناقشته أثبته وناقشه . هذا في الغالب . ومن غير الغالب أن يأتي بشرح ابن جني قبل شرحه ولو أن ذلك لا يغير من موقف ابن فورجة في المناقشة . ومن نظام الإيراد أو ما يمكن تسميته بطريقة التنفيذ هذه المرة ، أن المناقشة لم تبدأ ، وبعبارة أخرى أن اللقاء بين ابن فورجة وابن جني لم يتم إلا في النموذج العاشر . ولو كان غرضه تعقب ابن جني وبيان أغلاطه لبدأ بما هو غرضه ووكده .

إيضاحات

— ١ —

في الفتح اتجاه سائد هو أن ابن فورجة يورد كثيراً من الأبيات التي ليست من أبيات المعاني في قليل أو كثير ثم يشرحها . وهو يفعل ذلك لأمور تتعلق بكل بيت منها على حدة وهي في جملتها تتردد بين النحو واللغة من جهة ، والرد على بعض النقاد كالصاحب بن عباد والقاضي الجرجاني من جهة . فهو مثلا يورد هذا البيت ، وهو من قصيدة يعزي بها المتنبي سيف الدولة في وفاة أخته .

ولم ترد حيــاة بعــد تولية ولم تغث داعيا بالويل والحرب

ويقول : هذا البيت ظاهر المعنى ، وإنما ذكرناه خشية أن يظن ظان أن قوله (بالويل والحرب) متعلق بقوله (تغث) فإنه يكون حينئذ ذماً وهجاء . بل كيف تكون الإغاثة بالويل والحرب وإنما يغاث الإنسان بما يزيل الويل والحرب كما قال أيضاً :

ومنفعة الغوث قبــل العطــب

قال الله تعالى ...

وقال الشاعر ... (١)

وهو يورد قول المتنبي :

دارِ الملم لها طيف يهــددني ليلا فما صدقت عيني ولا كذبا

---

(١) ص ٥١ — ٥٢ .

ويعتذر عن إيراده بقوله « وإنما أوردنا هذا البيت ومعناه ظاهر ، لأن من الناس من يظن أن (عيني) في قوله (صدقت عيني) مفعول ، وفاعل (صدقت) الطيف أنثه ، لأنه يعني المرأة ، وهذا كما تقول : صدقت زيداً الحديث ... [1]

وانظر على سبيل المثال لا الحصر صفحات : — ٧١ ، ٨١ ، ٨٨ ، ١٤٦ ، ١٧٤ ، ١٨٣ ، ٢٩٤ ، ٣١٥ ، ٣٣٦ .

— ٢ —

يلذ لابن فورجة أن يستطرد مع أبيات التنظير ، فهو يذكر بيتاً يقول عنه : إنه هو البيت الذي نظر إليه المتنبي وهو يقول كذا ، أو أنه يشبه بيت المتنبي في كذا ، ولا يشبهه في كذا ونحو ذلك . ثم إذا هو يتكلم عنه أكثر مما يتكلم عن بيت المتنبي ، بل قد ينسى به بيت المتنبي ، نجد ذلك في بيت أبي صخر الهذلي :

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

في نظير بيت المتنبي :

ذكرت به وصلا كأن لم أفز به ... وعيشاً كأني كنت أقطعه وثبا[2]

ونجده في بيت البحتري :

فنلت خسيساً منه ثم تركته ... وأقلعت عنه وهو منعفر ورد

---

(١) ص ٥٥ — ٥٧ .

(٢) ص ٧٨ — ٨١ .

في نظير بيت المتنبي :

ومقانب بمقانب غادرتهـــا أقوات وحش كن من أقواتها

فهو يذكر أن بيت البحتري من القصيدة التي مطلعها :

سلام عليكم لا وفاء ولا عهد .

ثم يجتهد في إثبات أنه ليس له ، ويستغرق ذلك منه صفحة ونصف صفحة ، علماً بأن بيت المتنبي لم يستغرق سوى ثلثي صفحة[1] ومثل هذا كثير بل كثير جداً .

— ٣ —

ابن فورجة من الذين يعولون في الأدب على الألفاظ أكثر مما يعولون على المعاني . وهو في هذا كالأصفهاني صاحب الإيضاح وكبعض النقاد قال : « والصنعة تختص من الشعر باللفظ ووجه استعماله ، لا باختراع المعاني » [2] .

— ٤ —

جعل ابن فورجة — كابن جني — أبيات المدح في الكافوريات وما أشبهها من الشعر الموجه . وهذه قضية فرغنا منها لما كنا مع الأصبهاني في الواضح .

— ٥ —

ناقش ابن فورجة الصاحب ابن عباد والقاضي الجرجاني مناقشات كثيرة ومريرة ، وفي رأيي أنه هاجمهما مثلما بل أكثر مما هاجم ابن جني وانظر في

(١) ص ٨٩ – ٩١ .
(٢) ص ٢٦٦ وانظر هامش رقم (٢) ص ٣٩ من هذا الكتاب .

معاركه مع الصاحب صفحات : ٧١ ، ٧٢ ، ١٠٠ ، ١٦٣ ، ١٩٧ ، ٢٥٤ ، ٣٣٥ .

وفي معاركه مع القاضي الجرجاني صفحات : ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٣٣ ، ١٦٨ .

— ٦ —

عدد النماذج التي اشتمل عليها (الفتح على أبي الفتح) ٢٤٧ نموذجاً صنفتها من حيث انفراد ابن فورجة بشرح النموذج ، أو تعاقبه عليه مع ابن جني ، فوجدت أن ما انفرد ابن فورجة بشرحه ١٢٦ نموذجاً وما اشترك الاثنان فيه ١٢١ نموذجاً . وسأعطي تسلسلا مفصلا لذلك مبيناً فيه رقم النموذج ونوعه وصفحته علماً بأن هناك نماذج على الأعراف بين القسمين السابقين ، وقد أضفتها إلى ما استقل ابن فورجة بشرحه لواحد من أمرين هما :

(ا) أنها مع كونها مشروحة من ابن جني لكن ابن فورجة لم يثبت هذا الشرح بل اشار إليه فقط كأن يقول في النموذج رقم ٣٦ ص ٩٥ وقد قال الشيخ ابو الفتح غير ما قلنا ولم يعد الصواب ، لكنا قلنا برأينا » .

وكأن يقول في النموذج رقم ٤٤ ص ١٠٩ : وقد خفف الشيخ أبو الفتح في تفسير هذين البيتين ، ولم يأت بكبير فائدة » .

وكأن يقول في النموذج رقم ٢٣٨ ص ٣٣٧ ، « وما أشبه هذا بما زعم أبو الفتح في شرحه .

(ب) أن ابن جني قد اكتفي ببيان الغريب أو الصرف الموجود في النموذج. ونحن نعرف ذلك من قول ابن فورجة : تكلم الشيخ أبو الفتح

على العيد بكلام من باب التصريف وأعرض عن معنى البيت[1]
أو (لم يتعرض أبو الفتح لتفسير هذا البيت ، وإنما ذكر الغريب[2]
أو (هذا البيت أهمله أبو الفتح ، ولم يتعرض لشرح معناه ، بل تكلم
في غريب قوله[3] أو لم يفسر الشيخ أبو الفتح هذا البيت ولا الذي
قبله ، ولكنه أتى بالغريب[4] أو : أطال الشيخ أبو الفتح في غريب
هذا البيت ، ولم يعرض لشرح معناه وهو من دقيق معانيه (المتنبي)
ومعقدها[5] .

والنماذج السابقة هي كل ما في الكتاب من هذا النوع ، فهي ليست كثيرة.
وهذا بيان بالأبيات المشروحة في الفتح موزعة على ابن فورجة وحده
أو بالاشتراك مع أبي الفتح .

(١) ص ١٠٦ نموذج ٤٢ .
(٢) ص ١٥٧ نموذج ٨٣ .
(٣) ص ١٨٠ نموذج ١٠٦ .
(٤) ص ٢٥٩ نموذج ١٧٠ .
(٥) ص ٣١٦ نموذج رقم ٢١٩ .

أولا ابن فورجة وحده

رقم النموذج	صفحته	رقم النموذج	صفحته	رقم النموذج	صفحته	رقم النموذج	صفحته	رقم النموذج	صفحته
١	٤٤	٥	٥٠	٩	٥٥	١٩	٦٧	٢٣	٧٣
٢	٤٦	٦	٥١	١٢	٥٩	٢٠	٦٩	٢٤	٧٣
٣	٤٧	٧	٥٢	١٣	٦٠	٢١	٧٠	٢٥	٧٧
٤	٤٩	٨	٥٤	١٦	٦٣	٢٢	٧١	٢٦	٧٨
٢٧	٨١	٨٤	١٥٨	١٤٢	٢٢٥	٢٠٠	٢٩٥		
٢٨	٨٢	٨٨	١٦٣	١٤٩	٢٣٤	٢٠١	٢٩٧		
٣١	٨٧	٨٩	١٦٣	١٥١	٢٣٦	٢٠٨	٣٠٤		
٣٢	٨٨	٩١	١٦٦	١٥٥	٢٤٠	٢١٤	٣١١		
٣٣	٨٩	٩٢	١٩٧	١٥٨	٢٤٤	٢١٥	٣١٢		
٣٤	٩١	٩٤	١٧٠	١٦١	٢٤٩	٢١٧	٣١٣		
٣٦	٩٤	٩٥	١٧٠	١٦٣	٢٥٢	٢١٩	٣١٥		
٣٧	٩٥	٩٦	١٧١	١٦٥	٢٥٣	٢٢٠	٣١٦		
٣٩	٩٨	٩٩	١٧٤	١٦٧	٢٥٥	٢٢٣	٣١٩		
٤٠	١٠٠	١٠٤	١٧٨	١٦٩	٢٥٨	٢٢٦	٣٢٣		
٤٢	١٠٦	١٠٦	١٨٠	١٧٠	٢٥٨	٢٢٧	٣٢٤		
٤٤	١٠٨	١٠٧	١٨١	١٧٢	٢٦١	٢٣١	٣٢٩		
٤٧	١١٣	١٠٨	١٨٢	١٧٣	٢٦٢	٢٣٥	٣٣٣		
٥٠	١١٥	١٠٩	١٨٥	١٧٤	٢٦٣	٢٣٧	٣٣٤		
٥٢	١١٨	١١٠	١٨٦	١٧٥	٢٦٤	٢٣٨	٣٣٦		
٥٣	١١٨	١١٤	١٩٠	١٧٩	٢٧٠	٢٣٩	٣٣٧		
٥٥	١٢١	١١٥	١٩١	١٨٠	٢٧١	٢٤٠	٣٣٩		
٥٦	١٢٢	١١٨	١٩٣	١٨١	٢٧٢	٢٤١	٢٤٠		
٦٢	١٣٢	١١٩	١٩٤	١٨٢	٢٧٤	٢٤٣	٣٤٢		

تكملة ابن فورجة وحده

رقم النموذج	صفحته	رقم النموذج	صفحته	رقم النموذج	صفحته	رقم النموذج	صفحته
٦٣	١٣٤	١٢١	١٩٦	١٨٤	٢٧٥	٢٤٤	٣٤٣
٦٤	١٣٥	١٢٢	١٩٧	١٨٦	٢٨٠	٢٤٦	٣٤٥
٧١	١٤٣	١٢٣	١٩٧	١٨٩	٢٨٣	٢٤٧	٣٤٦
٧٣	١٤٦	١٢٤	٢٠١	١٩١	٢٨٥		
٧٥	١٤٨	١٢٥	٢٠٢	١٩٤	٢٨٩		
٧٨	١٥١	١٣١	٢١٠	١٩٦	٢٩١		
٨١	١٥٥	١٣٢	٢١١	١٩٧	٢٩٣		
٨٢	١٥٦	١٣٦	٢١٤	١٩٨	٢٩٤		
٨٣	١٥٧	١٣٨	٢١٨	١٩٩	٢٩٤		

ثانياً : ابن فورجة مع ابن جني

رقم النموذج	صفحته	رقم النموذج	صفحته	رقم النموذج	صفحته	رقم النموذج	صفحته	رقم النموذج	صفحته
١٠	٥٧	٦٨	١٤٠	١٢٠	١٩٥	١٦٠	٢٤٥	٢١٢	٣٠٩
١١	٥٨	٦٩	١٤١	١٢٦	٢٠٣	١٦٢	٢٥٠	٢١٣	٣١٠
١٤	٦٢	٧٠	١٤٢	١٢٧	٢٠٥	١٦٤	٢٥٢	٢١٦	٣١٢
١٥	٦٣	٧٢	١٤٥	١٢٨	٢٠٦	١٦٦	٢٥٤	٢١٨	٣٢٤
١٧	٦٤	٧٤	١٤٦	١٢٩	٢٠٧	١٦٨	٢٥٧	٢٢١	٣١٧
١٨	٦٥	٧٦	١٤٨	١٣٠	٢٠٨	١٧١	٢٥٩	٢٢٢	٣١٨
٢٩	٨٤	٧٧	١٥٠	١٣٣	٢١٢	١٧٦	٢٦٤	٢٢٤	٣٢٠
٣٠	٨٥	٧٩	١٥٢	١٣٤	٢١٢	١٧٧	٢٦٦	٢٢٥	٣٢١
٣٠	٨٥	٧٩	١٥٢	١٣٤	٢١٢	١٧٧	٢٦٦	٢٢٥	٣٢١
٣٥	٩٢	٨٠	١٥٤	١٣٥	٢١٣	١٧٨	٢٦٩	٢٢٨	٣٢٥
٣٨	٩٦	٨٥	١٥٨	١٣٧	٢١٧	١٨٢	٢٧٣	٢٢٩	٣٢٧
٤١	١٠٥	٨٦	١٦٠	١٣٩	٢١٩	١٨٥	٢٨٠	٢٣٠	٣٢٨
٤٣	١٠٦	٨٧	١٦٢	١٤٠	٢٢١	١٨٧	٢٨١	٢٣٢	٣٣٠
٤٥	١٠٩	٩٠	١٦٥	١٤١	٢٢٢	١٨٨	٢٨٢	٢٣٣	٣٣١
٤٦	١١٠	٩٣	١٦٩	٢٢٦	١٩٠	٢٨٤	٢٨٤	٢٣٤	٣٣٢
٤٨	١١٣	٩٧	١٧٢	١٤٤	٢٢٨	١٩٢	٢٨٧	٢٣٦	٣٣٤
٤٩	١١٤	٩٨	١٧٣	١٤٥	٢٣٠	١٩٣	٢٨٨	٢٤٢	٣٤١
٥١	١١٧	١٠٠	١٧٥	١٤٦	٢٣١	١٩٥	٢٩٠	٢٤٥	٣٤٣
٥٤	١٢٠	١٠١	١٧٦	١٤٧	٢٣٢	٢٠٢	٢٩٧		
٥٧	١٢٤	١٠٢	١٧٧	١٤٨	٢٣٣	٢٠٣	٢٩٨		
٥٨	١٢٤	١٠٣	١٧٧	١٥٠	٢٣٥	٢٠٤	٣٠١		
٥٩	١٣٠	١٠٥	١٧٩	١٥٢	٢٣٧	٢٠٥	٣٠١		
٦٠	١٣١	١١١	١٨٧	١٥٣	٢٣٨	٢٠٦	٣٠٢		
٦١	١٣١	١١٢	١٨٧	١٥٤	٢٤٠	٢٠٧	٣٠٢		
٦٥	١٣٦	١١٣	١٨٩	١٥٦	٢٤١	٢٠٩	٣٠٥		
٦٦	١٣٧	١١٦	١٩٢	١٥٧	٢٤٣	٢١٠	٣٠٧		
٦٧	١٣٨	١١٧	١٩٢	١٥٩	٢٤٥	٢١١	٣٠٨		

ونلاحظ أنه في النماذج الخمسين الأولى لم يلتق ابن فورجة مع ابن جني إلا في ستة عشر نموذجاً ، وفي النماذج الخمسين الثانية لم يلتق به إلا في ستة وعشرين نموذجاً . فهل هذا فعل رجل منفعل برجل ومتحمس ضده وها هو ذا يؤلف ليفند عمله ؟ أو أنها المناقشة الشريفة والموضوعية العلمية ؟

والآن مع ابن فورجة في ثلاثة نماذج مما استقل بشرحه ، وفي سبعة مما شارك فيه ابن جني لتكمل عدة النماذج عشرة أراها كافية .

— ١ —

جزاك ربك بالإحسان مغفرة   فحزن كل أخي حزن أخو الغضب

هذا البيت من القصيدة التي رثى بها المتنبي أخت سيف الدولة تلك التي ماتت بميافارقين سنة ٣٥٢ هـ[1] وقد اخترته مما شرحه ابن فورجة وحده ، لأن شرحه له يدل على قدر لا بأس به من ثقافته العقلية قال :

يقول : جزاك الله مغفرة بهذا الحزن الذي أصابك ، فقد أثمت به ، قال الله تعالى : لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم .

والحزن أخو الغضب لأسباب كثيرة ، منها : أن الحزن غضب في الحقيقة ، لأنه يغضب لما ينال منه الدهر فيحزن ، ومنها أن الرجل يأثم بالحزن ويأثم بالغضب ، قال الله تعالى : « وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » .

ومنها : أن الحزن ينال من الإنسان ويخلط عليه ، كما أن الغضب ينال

(١) شرح العكبري جـ١ ص٩٤ والفتح ص ٥٢ .

منه ويخلط عليه وقد دل على ذلك بقوله أيضاً في عضد الدولة :

آخر ما الملك معزي بــه هذا الذي أثر في قلبـــه
لا جزعاً بل أنفا شابـــه أن يقدر الدهر على غصبــه [١]

ألا تراه فرق بينهما، وجعل تأثيره في قلبه لا للجزع والحزن ولكن للغضب والأنف والحمية أن يقدر الدهر على غصبه ، وكما فسر قوله :

فحزن كل أخي حزن أخو الغضب .

بالبيت الذي يليه وهو قوله :

وانتم نفــر تسخــو نفوســكم بما يهين ولا يسخون بالسلب

ألا تراه قد دل على أن الحزن أخو الغضب ، لأنه يحزن كيف قدر الدهر على سلبه . والحزن والغضب عند المتكلمين شيء واحد ، وإنما يستعمل الغضب على من هو دونك والحزن على فعل من فوقك ، ألا ترى أن السلطان إذا غصب رجلا على مال ، فإنه يحزن عليه، ولو سرقه سارق لغضب عليه[٢]

انتهي كلام ابن فورجة، وقد اطلعنا به على جانب من جوانب شخصيته، وعلى لون من ألوان ثقافته ، ففضلا عن كونه أديباً ونحوياً ولغوياً وشاعراً ، هو مثقف ثقافة كلامية يمتزج فيها الدين بالفلسفة ، وإن طامنا من ذلك قلنا: بمبادىء الفلسفة .

— ٢ —

لا يحزن الله الأمــير فإنني لآخــذ من حالاته بنصيب

(١) شرح العكبري ج ١ ص ٢١٠ .
(٢) الفتح ص ٥٢ — ٥٤ .

هذا البيت مطلع قصيدة قالها المتنبي يعزي بها سيف الدولة عن عبده (يماك) التركي الذي مات بحلب سنة ٣٤٠ ه [1] .

يقول ابن فورجة : هذا البيت ظاهر اللفظ والمعنى ، وإنما حملني على إيراده أني قرأت أوراقاً سميت (مساويء المتنبي) أنشأها الصاحب كافي الكفاة ، فقد ارتكب فيها شيئاً من المزح عجباً ، ليس من طريقة العلم ، ولا مما أفاد غير خيلاء الوزارة ، وبذخ الولاية ، ولعمري إنه لو لم يرد عنه هذا الكتاب لكان أجمل بمثله ، إذ كان لم يتعد فيه غير الهزء الفارغ والكلام اللغو حتى أنه ما يكاد ينتقص شيئاً من الأبيات التي نقمها على أبي الطيب بما يفيد معرفة ، مخطئاً فيها أو مصيباً ، إلا مواضع يسيرة كأنها عثار منه بالجد لا عمد فغلط فيها ودل على أنه لم يفهم ما رده ولم يحط علماً بما كرهه وهذه الرسالة عملها في صباه والترق حداه على إظهارها ، وما أجدر مريد الخير له بكتمانها عليه ، فمن الأبيات التي ردها هذا البيت .

يقول : ولا ندري لم لا يحزن الله سيف الدولة إذا أخذ المتنبي بنصيب من القلق أترى هذه التسلية أحسن عند أمته (أمة المتنبي ، نظراً لأنه كان قد تنبأ ، فهو يمخرقه ، أو أمته بمعنى انصاره ، ولأنهم كثيرون جعلهم أمة) .

أم قول أوس :

أيتهـــا النفس أجملي جزعا إن الذي تحذرين قـــد وقعـــا

فقد أخطأ في موضعين :

أحدهما : أنه ظن أنه يقول : كلما حزن الأمير حزنت فقط ، فظن أن

---

(١) شرح العكبري جـ ١ ص ٤٩ والفتح ص ٧١ .

(يحزن) رفع لأنه إخبار ، ولولا ظنه ذلك لما استفهم فقال : لم لا يحزن الله سيف الدولة إذا أخذ أبو الطيب بنصيب من القلق ؟ وهذا خطأ و (لا يحزن) جزم ، والنون مكسورة لالتقاء الساكنين وهو دعاء كما تقول : لا يمت زيد ، ولا تشلل يدك ، فيقول : لا أصابك الله بحزن ، فإني أحزن إذا حزنت ، كأنه يقول : لاحزني الله . وسائغ في الدعاء متعارف أن يقال : لاحزنني الله . ولا نالني بحزن . غير منكر ولا مبغي عليه . ولو كان كما ظنه لم يكن من كلام العقلاء أن يقال : لا يحزن الله زيداً ، فإنني مشاركه ؛ لأن كونه مشاركاً لزيد ، لا يكون سبباً لأن يصرف الله الحزن عن زيد ، لأنه كلام محال . ولا ريب أن من يظن هذا بهذا البيت يقول : ما قاله الصاحب . لكن الصواب بخلافه .

والغلط الثاني أنه قال : أترى هذه التسلية أحسن أم قول أوس . وأن هذا البيت ليس بتسلية ، وإنما هو دعاء للمدوح . وليحسب أنه على ما ظن قائل هذا القول ، فكيف تكون تسلية إخباره أن الله تعالى لا يحزن سيف الدولة ، لأن المتنبي شريكه ، فهذا ظاهر وترك الدلالة على هذه الزلة غير سائغ مع ما قصدنا له من الدلالة على غامض أبيات هذا الفاضل والله المعين [١] .

انتهي كلام ابن فورجة ، وهو دحض لرأي الصاحب في بيت المتنبي وتفنيد له . والحق معه ، فقد أخطأ الصاحب حينما حول الكلام عن مجراه بجعله خبرياً لا طعم ولا لون ولا معنى له ، بينما هو إنشائي بلاغي غرضه الدعاء لصاحبه وصفيه سيف الدولة في مناسبة حزينة لا يملك الصديق لصديقه

(١) الفتح ص ٧١ – ٧٣ .

فيها إلا مشاركة وجدانية يعبر عنها عملياً أو تلغرافياً بالمشاطرة في الأحزان وبالدعاء له وللفقيد بالصبر والمغفرة .

* * *

هذه واحدة أنا فيها مع ابن فورجة على الصاحب أما الأخرى فهي توضيح علمي أراه مهماً جداً ، وهو توضيح يتعلق برسالة الكشف عن مساوىء شعر المتنبي ، تلك التي ألفها الصاحب بن عباد ، فباء بغضب من الله والناس ولم يسلم من لعنة أمة المتنبي إلى الآن ، وما أراه يسلم إلى آخر الدهر ، علماً بأنه قد أنصف الحق في معظم ما أخذه على المتنبي مما اشتملت عليه هذه الرسالة . وهناك أمران جديران بالالتفات إليهما وأخذ البال منهما وهما : دعوة الصاحب للمتنبي إلى زيارته له بأصبهان ، ثم الحوار الذي دار بين الصاحب وأحد المتأدبين حول المتنبي وشعره ، فالخطأ قد أتى من الربط بين تأليف الصاحب لرسالته ، ورفض المتنبي لدعوته . علماً بأن الصواب ربطه بالحوار الذي دار بين الصاحب وهذا المتأدب ؛ فقد كانت رسالة الكشف هي النتيجة العملية لهذا الحوار .

وانظر في هذا كتاب (النقد الأدبي عند القاضي الجرجاني) ، تحت عنوان (بين المتنبي والصاحب بن عباد)[1] .

— ٣ —

وغر الدمستق قول العدا ... ة إن عليا ثقيل وصب

هذا البيت من قصيدة مطلعها :

فهمت الكتاب أبر الكتب ... فسمعا لأمر أمير العرب

(١) ص ١٤٧ – ١٥٧ طبعة مكتبة الانجلو المصرية وهو للمؤلف .

قالها المتنبي لما تلقي وهو بالكوفة كتاباً بخط سيف الدولة يستدعيه فيه إليه[1] شرحه ابن فورجة فقال : هذا البيت ظاهر اللفظ والمعنى ، إلا أن القاضي أبا الحسن ذكر في كتاب الوساطة ما هو سهو عليه في هذا البيت فاحببت الإبانة عنه : رواه (قول الوشاة) ثم قال : قد عيب عليه هذا البيت ، وقالوا : جعل الأمراء يوشي بهم ، وليس بسائغ أن يقال : وشى فلان بالسلطان إلى بعض رعيته ، ولو قيل ذلك في أميرين لكان قد قصر بالموشي به ، ثم قال المحتج عن أبي الطيب أصل الوشاية استخراج الحديث بالمسألة ، كما يوشي الرجل جرى فرسه بتحريكه وهمزه . وقد يجوز أن تُحمل الكلمة على أصلها ، ويجعل هؤلاء وشاة لما أتوه بهذا الخبر ، والكلام هو الأول عندي والعذر ضعيف .

يقول ابن فورجة : لعمري إن كل ما أورده بدءً اوعودًا ضعيف . وذلك أنه غلط في الرواية فأخذ في التمحل لغلطه . وقد قرأت هذا الديوان تصحيحاً ورواية بالعراق على علماء عدة ورواة ذات كثرة ، فما وجدت أحداً يروي عنه هذه الرواية . وهذا ابن جني ما ضمن كتابه (الفسر) غير (قول العداة) .

ولو أنا حرفنا الروايات عن وجوهها تم أخذنا نتمحل للمحال تفسيراً لما قدرنا عليه والزيادة في الكلام مما لا حاجة إليه .

ومعنى البيت أنك تأخرت عن نصرة أهل الثغور ، وكان الدمستق مقيما بها يحارب المسلمين ويغره أن الأعداء يرجفون بأنك ثقيل البدن عليل[2] .

انتهي كلام ابن فورجة . ولي عليه تعليقان هما :

(١) شرح العكبري جـ ١ ص ١٠١ والفتح ص ٨٧ .
(٢) الفتح ص ٨٧ – ٨٨ .

قوله : (وليس بسائغ أن يقال وشى فلان بالسلطان إلى بعض رعيته)
أجل ليس بسائغ ذلك ، لكن الوشاية هنا ليست بالسلطان إلى بعض رعيته بل إلى سلطان مثله .

إنها وشاية بسلطان المسلمين إلى سلطان الروم الذي علم من أمر مرضه ما علم وها هو ذا يستثمر الوشاية ضده ، فيعلن الحرب عليه ويجتاح أرضه . أريد أن أقول : إن الوشاية في محلها هنا ، وهي مقبولة لغوياً وذوقياً ، والدفع ببطلان الرواية من أجلها دفع ضعيف . وكان خيراً منه لو دفع بأن المتنبي قال في البيت الثالث من نفس القصيدة .

وما عاقني غير خـوف الوشاه وإن الوشايات طـرق الكذب

فالمتنبي لا يمضغ كلماته في شعره كله ، وهو بألا يفعل ذلك في قصيدة واحدة أولى .

٢ — ليتنا نسلط الضوء على هذه الكلمات البارزة لابن فورجة ، وهي :

(ولو أنا حرفنا الروايات عن وجوهها ثم أخذنا نتمحل للمحال تفسيراً لما قدرنا عليه) .

إن هذه العبارة ذات أبعاد عميقة ثم هي هادفة ، فلو التزم كل منا بتحري الدقة فيما ينقده من قول أو فعل لما تعبنا ، بل لما اختلفنا ، فكم من جدل مشتد بين متناقشين لا لشيء إلا لأن مفهوم ما يتجادلان فيه مختلف بينهما ، أو لأن العبارة عنه محرفة . وينبغي لهذا تحقيق النص المنقود قبل نقده والتأكد من نسبته إلى قائله على الوجه الذي وصل الينا به ، كي تكون النتائج المستخلصة منه والمحمولة عليه وعلى صاحبه صادقة في تمثيلها لها . وإن حكما ينصب على نص

مزور أو مغير ليشبه في فساده وزيفه ميراث الخير أو الشر بالنسبة لابن غير شرعي ، كلاهما باطل وظلم ، لأنه ضد الحق ، وضد العدل وشكراً لابن فورجة .

— ٤ —

أنا اليوم من غلمانه في عشيرة لنا والد منــه يفديه ولــده

هذا البيت من قصيدة في مدح كافور مطلعها :

أود من الأيام مالا تــوده وأشكو إليها بيننا وهي جنده [١]

والبيت الذي معنا هو أول نموذج لما تعاقب ابن فورجة على ابن جني في شرحه قال : قد كان يجب أن يقال : (في عشيرة لهم والد منه) إلا أن له عادة في قطع الكلام الأول قبل استيفاء الفائدة وإتمام الخبر . وقد فعل ذلك في كثير من شعره فسنذكر بعضه فمنه قوله :

وإني لمن قــوم كأن نفوسنــا بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

وكان يجب أن يقول : كأن نفوسهم ليتم الكلام الأول . هذا على الظاهر المتعارف ، وقد كان الذي يذهب إليه في هذا الباب قوياً جداً لكثرته في كلامهم وحملهم الكلام على المعنى وصرفهم الضمير عن وجهه ، وترك رده مع الحاجة إليه ، وذلك لأن التعبير بالضمير الثاني هو الأولى في حقيقة الكلام ، وإن اختلف علاماتهما ، ولو لم يأت إلا قول الله تعالى .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » .

وقوله : « والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين » .

---

(١) شرح العكبري ج ص ٢٤ والفتح ص ١٢٤ .

لكفي وأقنع ، إذ ليس في الخبر ما يرجع إلى الأول . و (الذين) من الأسماء النواقص فإذا جاء ذلك في أسماء محتاجة إلى صلاتها ، فهو في غيرها أولى . ومثل هذا من الشعر القديم قول الراجز :

يا أبجر بن أبجر يا أنتـــا أنت الذي طلقت عام جعتـــا

كان الواجب أن يقول : — أنت الذى طلق . ومن ذلك قول أبي النجم :

يا أيها الذكر الذي قد سؤتني وفضحتني وطردت أم عياليـــا

كان يجب أن يقول : قد ساءني ، ومثله : أنا الذي سمتني أمي حيدرة

القياس يوجب أن يقول : سمته .

وقوله :

وأنت التي حببت شعباً إذا بدا إليّ وأوطاني بـــلاد سواهما

الكلام : وأنت التي حببت ، وقول كثير :

وأنت التي حببت كلّ قصيرة إليّ وما تدري بذاك القصـــائر

ومثله :

وأنت التي ما من صديق ولا عدي يرى نضوما أتعبت إلا أوى ليا

ومثله :

وأنا الذي قتلت بكرا بالقنـــا وتركت تغلب غير ذات سنام

فلما رأى أبو الطيب أكثر شعراء العرب على هذا لزم هذه الطريقة فقال :

وانت الذي ربيت ذا الملك ناشئاً وليس له أم سواك ولا أب

قال الشيخ أبو الفتح : كلمته غير مره في هذا فاعتصم بأنه إذا أعاد

الذكر على لفظ الخطاب كان أبلغ وأمدح من أن يرده على لفظ الغيبة ، لأنه لو قال : وأنت الذي ربى ذا الملك ، لعاد الضمير من لفظ الغيبة ، فإذا قال : ربيت ، فقد خاطبه ، وكان أبين ولعمري إنه لكما ذكر . ولكن الحمل على المعنى عندنا لا يسوغ في كل موضع ولا يحسن .

هذا كلام ابن جني ، وقال أيضاً :

لولا أنا سمعنا مثله من الشعر للعرب لرددناه . قلت : وقد لج أبو الطيب في هذا الباب حتى قال :

أنا الذي نظر الأعمي إلى أدبي   واسمعت كلماتي من به صمم

وقال :

قوم تفرست المنايا فيهم   فرات لكم في الحرب صبر كرام

وقال :

أيها الواسع الفناء وما فيـــه   مبيت لمالك المجتـــاز

وقال :

كريم متى استوهبت ما أنت راكب   وقد لقحت حرب فإنك نـــازل

وقد استقريت شعره كله فوجدته لا ينزل عن هذا المذهب في كل ما مدح به . فإذا أورد ضميراً في ذم رده إلى الكلام الأول، تفاد يا أن يخاطب به مواجهاً أو يرده إلى نفسه مخبراً ، فقد قال :

أنا الذي نام إن نبهـت يقظانـــا

ألا تراه : كيف هرب من أن يقول : أنا الذي نمت ، لما كان كلام ذم لفظاً ، ولم يؤثر الإخباربة عن نفسه ، وهذا من أدق ما في شعره من الحسن ،

وأدله على حكمته ، واستيلائه على قصب السبق في شعره ، وجرير قد خلط هذين المذهبين في بيته فقال :

ألم أك نارا يصطليها عـــدوكم وحرزا لما ألجاتم من ورائيا
وباسط خير فيكم بيمينـــه وقابض شرعنكم بشماليـــا

ولم تجر العادة باستقصاء ما يجري في هذا المجرى من الإغراب ، إلا أنه لما تعلق بالمعنى وأردنا التنبيه على مذهبه في أكثر شعره قادتنا الضرورة إلى إيراده . وأما قوله : (لنا والد منه يفديه ولده) يريد أن الجاري في العادة أن يفدي الوالد ولده لفظاً أي – يقول : – (فديته) أعني كقول :

فديت بنتي وفديت أمها .

وكالمثل المضروب (يَحْمِل شن ويُفَدَّي لكيز) وخبره أن أخوين أحدهما (شن) والآخر (لكيز) كان شن باراً بأمه فكان يحملها على ظهره في أسفاره ، وكانت الأم إلى لكيز أميل فكانت تفدي لكيزاً وهي على عاتق ابنها شن فيقول أبو الطيب :

كافور لنا بمنزلة الوالد ، إلا أنا نحن نفديه ، ولا يفدينا هو ، وكأنه يريد بذكر الوالد التعريض له بأنه خصي ، وأنه ربي ولد ابن طغج تربية الوالد ، فكرر ذلك فقال :

إنما أنت والد والأب القاطع خير من واصل الأولاد

وقوله :

وأنت الذي ربيت ذا الملك ناشئـــا

وقوله منه بمكانة كما تقول :

رأيت من زيد أسداً ، ولي منك أخ شقيق [1]

انتهي كلام ابن فورجة المبطن بكلام ابن جني ، والمطعم بكلام المتنبي نفسه ، وإنهم ليدورون في كلامهم وبه حول ما يسمي في البلاغة بالالتفات ، وقد سماه ابن الأثير في (الجامع الكبير) .

شجاعة العربية : وذكر أنه نوع من البيان تتكاثر لطائفه وتتوفر محاسنه لأن معظم البلاغة مندرجة في أثنائه ومنطوية تحت ضروبه ثم تحسر لأنه لم يجد أحداً تكلم فيه قبله غير ابن جني قال :

إلا أني لم أجد شيئاً منه عند أرباب هذه الصناعة ، ولا وجدته في كتاب مصنف في هذا الفن ، سوى أني رأيت أبا الفتح عثمان بن جني ، قد ذكر في كتابه الموسوم بالخصائص شيئاً من التقديم والتأخير ، والحمل على المعنى لا غير ، وقد ذكرنا نحن في هذا النوع أشياء عجيبة ونكتاً طريفة عثرنا عليها في أثناء القرآن الكريم[2] .

والحق أن الالتفات مظهر من مظاهر شجاعة العربية وقدرتها على تفتيق الكلام وتشقيقه والذهاب به إلى حيث يريد مرسل الأدب منه وله من إيصال فكره ووجدانه والتأثير به على القارئين أو السامعين . وهو حر فيما يريد ما دام عنده الرصيد الكافي من النحو والبلاغة ومن ذوق العربية وحسها . واللغة معه معطاء مطواع يمضي بها في طريق الإفراد ، ثم يبدو له فيغير

---

(١) الفتح ص ١٢٥ — ١٣٠ .

(٢) انظر الخصائص لابن جني ج ١ طبعة الهلال بالقاهرة سنة ١٣٣١ هـ ١٩١٣ م صفحات ١٤٨ ، ١٨٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٤٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣ ، ٣٣٩ ، ٣٥١ ، ٥٣٧ ، ٥٦٩ .

والجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور من ص ٩٨ إلى صفحة ١٢٢ .

اتجاهه إلى طريق التثنية أو الجمع ، ويسلك سبيل الغيبة إلى أن يقطع جزءاً منه فيرجع عنه إلى سبيل الخطاب أو التكلم .

وهكذا يقتحم الأديب مختلف الدروب ولغته الشجاعة معه ، لا تتخلى عنه ، ولاتخذ له بل تسبقه إلى وجهته الجديدة لتمنحه الحكمة وفصل الخطاب.

— ٥ —

إليك ابن يحيي بن الوليد تجاوزت بي البيد عيس لحمها والدم الشِّعر

هذا البيت من قصيدة قالها يمدح بها أبا أحمد عبيد الله بن يحيي البحتري المنبجي ومطلعها :

أريقك أم ماء الغمامة أم خمــر بفيَّ بَرود وهو في كبدي جمر[1]

يقول ابن فورجة : قد ألفيت بعض المتشيعين يرويه « (الشعر بفتح الشين ، ويفسره أنه يعني لهزالها لم يبق لحم ولا دم إلا الشعر وحده . ولم يرو ذلك أحد عن أبي الطيب ، وما هو إلا من وساوس الشيطان ، والذي يروي عنه (الشِعر) بكسر الشين ، ويحتمل من المعاني وجوهاً كثيرة كلها جيد فأولها وهو الذي أتى به أبو الفتح .

إني إنما كنت أحثها بمدحكم ، وأحدو لها به ، فأصون بذلك لحمها ودمها . هذا لفظه ، ومعنى ثان : وهو أن يعني نعله ، وهو أنه لا قوة له ولا مال ، ولاوسيلة إلا الشِّعر ، فأقام اللحم والدم مقام المال والوسيلة ، لأن الإنسان بهما يتوسل إلى السير ويكون كقوله أيضاً :

لا ناقتي تقبل الرديــف ولا بالسوط يوم الرهان أجهدهــا

وهو يريد نعله

---

(١) شرح العكبري ج ٢ ص ١٢٤ والفتح ص ١٤٦ .

ومعنى ثالث : وهو أنه يعني ناقة لم يبق لها من هزالها دم ولا لحم ، وإنما بقي لها الشِّعر فقط ، كأنه يريد جميع ما تحمله هو الشِّعر حتى أن لحمها ودمها أيضاً شِعر .

ومعنى رابع وهو أجودها كلها وهو أنه يعني أنها كأنها شِعر قد تجسم ناقة ، فكلها شعر ، إذ كان كلها لحماً ودماً ، فإنه لو قدر لقال : لحمها ودمها وعظمها وعصبها وما أشبه ذلك ، ولا يريد أن ثم هزالا ولا جهداً ، بل يريد غلبة الشعر على راكبها ويكون كقوله في هذه القصيدة بعينها :

هم الناس إلا أنهم من مكـــــارم

أي تجسموا مكارم[1]

انتهي كلام ابن فورجة . ونفهم من وصفه للآراء بالجودة ، ثم من تقديمه رأي ابن جني ، تقديره له وإنصافه ، أجل إنه فضل الرأي الرابع ، ولكن ذلك لم يكن إلا إشارة ذكية إلى أنه رأيه :

الرأي الأول لابن جني .

والرأي الأخير له

أما الرأيان الآخران فجائز أن يكونا له ، وأن يكونا لغيره ، وأن يكونا قسمة بينه وبين غيره .

أريد أن أقول : إن عبارة (ومعنى رابع وهو أجودها كلها) لها معنى ثان هو : إن هذا الرأي لي ، وإنني صاحبه .

ويدل على صحة ماذهبوا إليه من أن قافية البيت إنما هي (الشِّعر) وهو

(١) الفتح ص ١٤٦ – ١٤٧ .

الفن القولي المعروف ، أن الإبل لا شعر لها بل وبر . ثم البيت التالي لبيتنا وهو

نضحت بذكراكم حرارة قلبها   فسارت وطول الأرض في عينها شبر

أي نديت ظمأها ، وأثرت نشاطها بمدائحي فيكم ، وبأحاديثي الرطبة عنكم فغذت السير إليكم حتى طوت الأرض طياً ولا عجب ، فلم تعد ناقتي من لحم ودم بل من شعر وشعور .

— ٦ —

وخرق مكان العيس منه مكاننا   من العيس فيه واسط للكور والظهر

هذا البيت من قصيدة قالها المتنبي في مدح علي بن عامر الأنطاكي ومطلعها :

أطاعن خيلا من فوارسها الدهـــر   وحيدا،وما قولي كذا؟ومعي الصبر[1]

ذكر ابن فورجة بيت المتنبي ، وأعقبه بتفسير ابن جني له قال :

قال أبو الفتح :

معنى البيت : إن هذه الإبل كأنها واقفة في هذا الخرق، ليست تذهب ولا تجيء وذلك لسعته ، فكأنها ليست تبرح منه كما قال الآخر :

يمسي به القوم بحيث أصبحوا .

أي فكما نحن في ظهور هذه الإبل لا نبرح منها في واسط أكوارها ، فكذلك هي كأن لها من أرض هذا الخرق كوراً وظهراً فقد قامت به لا تبرحه ، ألا تراه يقول بعد هذا : :

يخدن بنـــا في جوزه وكأننـــا   على كرة أو أرضـــه معنا سفر

(١) شرح العكبري ج ٢ ص ١٤٨ والفتح ص ١٤٨ .

وأخذ هذا المعنى السري الرفاء الكندي فقال :

وخرق طال فيه السير حتى حسبناه يسير مع الركـــاب

انتهي تفسير أبي الفتح ، وها هو ذا ابن فورجة يعلق عليه بقوله :

قد جود أبو الفتح في هذا التفسير ، على أنه لا يمتنع أن يقال عَنَى : أن العيس منه في وسطه سائرة كما أنا من الكور على واسطته ، ولم يتعرض لوقوفها ولا براحها .

ومما يؤكد هذا قوله : يخدن بنا في جوزه . فلو أراد أنها كالواقفة لما قال (يخدن) وإنما يريد أن سيرها من قطعه كبير شيء ، والجوز الوسط .

فأما قوله : كأننا على كرة . فلا ريب أنه يعني أن الكرة لا تقطع بالسير ، لأنها كلما انتهي من يسير عليها إلى حيث بدأ منها ، لم يكن ذلك لها نفاذاً ، بل أحوج إلى أن يبدأ أيضاً ثانية ، فلم يكن لسيره انقطاع مثل الكواكب ، فإنها كلما قطعت إلى آخر البروج وهو الحوت لم يكن لها من الحمل محيد .

ولفظ البيت الثاني أدل على ما ذكره ابن جني من البيت الأول ، ولم يعد الصواب مما أتى به . وقد ضارع شرح هذا البيت ما ادعي القاضي الجرجاني رحمه الله على أبي الطيب من الغلط في قوله :

وردنا الرهيمـــة في جـــــوزه وباقيـــــه أكثر ممـــا مضى

فقال :

كيف يكون باقية أكثر مما مضى ، وقد قال (في جوزه) والجوز : الوسط ثم تحمل له عذرا من جنس ما قد مضى آنفاً في شرح قوله :

(وخرق مكان العيس ...) وعندي أن المخطيء القاضي فإنه لم يفهم البيت فتجني له ثم اعتذر بما وضعه الله عنه ، وقد تقدم هذا البيت قوله :

فيالك ليـــلا على أعكش أحم البـــلاد خفي الصـــوى

فقد ظن القاضي أبو الحسن أن الهاء فى(جوزه) لليل ، وأنه كقول عمر ابن أبي ربيعة .

وردت وما أدري أما بعد موردي من الليل أما قد مضى منه أكثر

ولعمري إنه لو كان كما ظن لكان كلامه محالاً حيث يقول : (وباقيه أكثر مما مضى) وإنما الهاء في جوزه لأعكش ، وأعكش مكان واسع ، والرهيمة : ماء مكانه في وسط أعكش فهذا كلام صحيح ، ثم قال : (وباقية أكثر مما مضى) أى باقي الليل ، فقد بان أن المعنى لم يفهمه من بدء ، والبيت صحيح السبك[1] انتهي كلام ابن فورجة وقد رأينا أنه :

(ا) اطري أبا الفتح مرتين هما :

— « قد جود أبو الفتح في هذا التفسير » .

— « لم يعد الصواب مما أتى به » .

وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن ابن فورجة لم يكن سوى ناقد محايد يقول ما لابن جني وما عليه ، وبالاستقراء وجدنا أن ما لابن جني في الفتح أكثر مما عليه .

(ب) نص على خطأ القاضي الجرجاني في كثير من الحزم ، لكن دون خروج — ولو بمقدار شعرة — عن أصول البحث والجدل ، وهو من هذه الناحية أفضل بكثير من الأصبهاني الذي مخرق ابن جني في الواضح مرتين .

---

(١) الفتح ص ١٤٨ — ١٥٠ .

ترفع ثوبها الأرداف عنهـــا فيبقي من وشاحيها شسوعا
إذا ماست رأيت لها ارتجاجا له لولا سواعدها نزوعـــا

هذان البيتان من قصيدة قالها يمدح بها علي بن إبراهيم التنوخي ومطلعها :

ملث القطر أعطشهـــا ربوعا وإلا فاسقهـــا السم النقيعا[1]

وبعد أن أورد ابن فورجة البيت : ترفع ثوبها .. وما بعده قال : هذه القصيدة كلها من الشعر الرذل الذي لا ينتفع به ولا بتفسيره ، وقد ضمنها ديوانه فلابد من تلخيص ما يشتبه ، وهذا يريد به كبر عجيزتها . والشسوع . بفتح الشين : البعيد فعول بمعنى شاسع ، يريد أنها إذا رفع ثوبها أردافها عنها شسع عن وشاحها أي بعد . ثم رد الضمير في البيت الثاني في قوله (له) إلى الثوب . وزعم أن شدة ارتجاجها لكثرة لحمها يكاد ينزع عنها ثوبها لولا أن سواعدها تمسكه . وهذا من قول الواصف : امرأة لا يصيب ثوبها إلا مشاشيْ منكبيها ورواد فيْ أليتيها ، وحلمتيْ ثدييها .

وقد فسر أبو الفتح قوله : الشسوع بالضم ، وأظنه يرويه شسوعاً وهو رديء ، إلا أن يصف بالمصدر كما قال قوم قعود ووفود وسجود . وقد أغنى الله من هذا التمحل بفتح الشين فيكون بمعنى شاسع ، وإن روى بضم الشين فليرو (نزوعاً) في البيت الثاني أيضاً بالضم فهما سواء لا فرق بينهما(٢) .

---

(١) شرح العكبري جـ ٢ ص ٢٤٩ والفتح ص ١٧٥ .
(٢) الفتح ص ١٧٥ — ١٧٦ .

انتهى كلام ابن فورجة . وإنما اخترت هذا النموذج لاطلع القاريء على جانب مهم من جوانب هذا الرجل فقد كان محباً للمتنبي كابن جني والمعري وبقية أنصاره الذين سماهم الصاحب أمته ، لكن حبهم له لم يكن ليثنيهم عن قول الحق فيه وفي شعره ، وعن مؤاخذته متى رأوه أهلا للمؤاخذة ، وقد صدقوا في حبهم له وفي موقفهم المزدوج منه . ولا عجب ، فالشاعر ولو كان المتنبي – لا يكون شاعراً في سائر شعره ، بل في بعض شعره وأما الكثرة الساحقة مما يعده الناس شعراً جيداً فلا تكون القصيدة منه شعراً صادقاً إلا في بعض أجزائها ، وتلك الأجزاء هي التي يبلغ التعبير فيها حد الكمال .

– ٨ –

هل الولد المحبـــــوب الا تعلة وهل خلوة الحسناء إلا أذى البعل

هذا البيت من قصيدة يرثي بها أبا الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة ومطلعها :

بنا منك فوق الرمل ما بك في الرمل وهذا الذي يضني كذاك الذي يبلى (١)

وقد سبق شرح ابن جني شرح ابن فورجة هكذا :

قال ابن جني : إذا خلت الحسناء مع حبها أدى ذلك إلى تأذيه بها ، إما لشغل قلبه عما سواها ، أو لغير ذلك من المضار التي تلحق مواصلة الغواني ، يقول ابن فورجة معلقاً على كلام ابن جني وناقداً له : وهذا كلام لم ينضجه التأمل ، وكأنه ظن أن الحسناء لا يخلو بها إلا بعلها ، ولا أذى للبعل في الخلوة بها ، بل كل قرة عينه فيها وليس وصاله لها أيضاً بداعية مضرة على الإطلاق . ولو لم يكن في النساء غير المضرة لما خلقهن الله تعالى فضلا عن إباحتهن ،

(١) شرح العكبري جـ ٣ ص ٥٢ والفتح ص ٢٠٥ .

والأمر بالاستعفاف بهن . وما ورد في الآثارة في الوصاة بهن ، ولا يكون صد المرأة الحسناء بعلها عن غيرها من معالي الأمور أذى ، ولا يقول ذلك ذو منطق بليغ إلا متأولا أو متمحلا . والذي أراده أبو الطيب أن المرأة ذات البعل ينال منها من خلابها غير بعلها الأذاة . يريد أن اللذة منها قاصرة عن أن تكون لذة حقيقية ، وإنما الحاصل منها أذى البعل فقط . يزهد بذلك في الولد وفي طلب اللذة بأعراض الدنيا كلها . أي إذا كان هاتان اللذتان لا حقيقة لها فما سواها أولى بالترك والزهد فيه ، فهذا الأليق عندي بمذهبه . والذي قاله الشيخ أبو الفتح متمحل[1] .

هذا النموذج يظهر المتنبي بمظهر المتشائم الذي لم يقصر تشاءمه على نفسه بل صدره إلى غيره . ها هو ذا يفسد على الناس حياتهم بأن ينذرهم الشر قبل وقوعه من جهة أولادهم ونسائهم . أما أولادهم فبأن يتخطفهم الموت . وأما نساؤهم فبجعله خلوة الرجل بزوجته أذى . وهو بهذا قد وضع السم في العسل فليس أفظع ولا أبشع من أن تنذر الأب بموت ابنه وهو في قمة السعادة به . وليس أفظع ولا أبشع من أن تفرغ خلوة الرجل بزوجته الجميلة من مضمونها اللذيذ الممتع ، وتجعلها بهذا الأسلوب اللاذع القاطع (أذى البعل) .

هذا عن النص . لكن ماذا عن الشرحين ؟ إنهما غير مقنعين وغير مشبعين ، فابن جني عجز عن أن يتصور أذى البعل في خلوته بزوجته إلا بشيء ثقيل سمج هو انشغال البال عنها بسواها ، وهو بعد أن استبدل المحب بالزوج قد استبدل الغانية بالزوجة وليس ما يمنع من أن يكون الزوج محباً ، ولا أن تكون الزوجة غانية أي جميلة . لكن ابن جني قد عمم وأبهم .

(١) الفتح ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

وأما ابن فورجة فينطبق عليه المثل (جا يكحلها عماها) ها هو ذا يفند كلام ابن جني بفتاكة ساذجة فيقول : « وهذا كلام لم ينضجه التأمل وكأنه ظن أن الحسناء لا يخلو بها إلا بعلها ، ولا أذى للبعل في الخلوة بها » .

أما أن الحسناء قد يخلو بها غير زوجها — كما هو مفهوم كلامه — فهذا ليس معنا لا شأن لنا به ، ونعوذ بالله منه . وأما أنه لا أذى للبعل في الخلوة بزوجته الحسناء فهو ضد ما قاله المتنبي بطريق القصر . ويظهر أنه بدلا من أن يفسره كذبه . الرجلان متعثران في فهم البيت ، أو في التعبير عن فهمهما له ، أو فيهما معاً فالأمران متلازمان .

فالمسألة لا تخرج عن كونها لحظة تشاؤم حاد ، واعتلال مزاج صادفت — عند المتنبي — لحظة ميلاد هذا البيت في هذا الرثاء فقاله أوفولده وثلاثة أبيات بعده كانت بمثابة إسدال الستار على المشهد الحزين ، مشهد الثكل المعنوي والمادي عند نفسه وعند صديقه الحميم سيف الدولة . ماذا ؟ أنقول : إن الشيخين الجليلين كانت تنقصهما التجربة ؟ وأن تمرسهم بالعلم النظري لم يترك لها وقتاً للعلم العملي ، ربما . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

— ٩ —

بعث سيف الدولة من حلب هدية إلى أبي الطيب في الكوفة فرد عليه بقصيدة رائعة مطلعها :

مالنا كلنا جوٍ يا رســـول   أنا أهوى وقلبــك المتبـــول

ومنها :

نحن أدرى وقد سألنا بنجد أقصير طريقنا أم يطول
وكثير من السؤال اشتياق وكثير من رده تعليل
لا أقمنا على مكان وإن طاب ولا يمكن المكان الرحيل [1]

وقد أورد ابن فورجة صدر البيت الأخير وعقب بالآتي : قال الشيخ أبو الفتح معناه لم نقم كقوله تعالى : « فلا صدق ولا صلى » يريد : لم يصدق ولم يصل .

والشيخ أبو الفتح لو أنعم النظر لعلم أن (لا) هذه ليست تلك التي عناها ، وإنما هي التي تكون جواب القسم كقوله : والله لاقمت و والله لاضربت . وقد يحذف القسم والكلام يقتضيه ويدل عليه . ألا ترى إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن فعل كذا وكذا : لا تمسه النار إلا تحلة القسم . يريد قول الله تعالى (وإن منكم إلا واردها) ألا ترى أنه لا قسم ظاهرا في هذه الآية ، ولكن تأكيد الإيجاب دال على القسم ، ونائب منابه ولو قلت : لا ضربت زيداً لعلم منك أنك تريد : والله لا ضربت زيداً . وهذا أشهر من أن يدل عليه .

و (لا) في بيت أبي الطيب لها وجه غير ما ذكرنا وهو أن تكون (لا) التي تكون في الدعاء المنفي كقولك (لا يفضض الله فاك)) وقوله : (ولا هجمت بها إلا على ظفر) فيحتمل أن يريد : والله لا أقمنا على مكان . ويحتمل أن يريد الدعاء ، فيقول : لا أقمنا على مكان هذه صفته . وقوله (ولا يمكن المكان الرحيل) له معنى لطيف قد سها عنه الشيخ أبو الفتح ، وأتى مكانه بمعنى كسيف ، وهو أنه يريد (لا نقيم على مكان أبداً حتي نلقاه)

---

(١) شرح العكبري ج ٣ ص ١٤٨ ، والفتح ص ١٤٣ .

يقول : لا أقمنا على مكان إلا ويمكن المكان الرحيل معنا ، وهذا مالا يكون فكذلك نحن لا نقيم كقول القائل :

إذا زال عنكم أسود العين كنتم كراما وأنتم ما أقام ألائم

و (أسود العين) جبل فهو لا يزول ، وكذلك هؤلاء المخاطبون لا يكونون كراماً ، فالواو في قوله : — (ولا يمكن) واو الحال أي لا نقيم في مكان وهذا حاله . فانظر الفضل بين ما ذكرنا وبين ما فسره أبو الفتح قال : أي لو أمكنه الرحيل لرحل إلى سيف الدولة شوقاً إليه . فأي معنى لـ (لو) ترى في هذا المصراع ؟ وأي خاطر سقط به عليه ، وأداه إليه غفر الله له . وما سبب شوق المكان إلى سيف الدولة ، ولا سيما وليس من ممالكه ولامر به قط من عمره وأين نجد من حلب[1] .

واضح ما في كلام ابن فورجة من حس لغوي ، وذوق أدبي ، وبصر بالأساليب ولم يخطيء ابن جني ، لكنه وقف تحت ظله فلم يتحرك في اتجاه المعاني الشعرية التي هي المعاني ، وعلى كثرة تمرسه بشعر المتنبي لم يعرف هويته ، ولم يتبين صنعته في هذا الشطر البسيط ، ولكنه على بساطته ينضح بالفنية .

— ١٠ —

يتفيأون ظلال كل مطيـــــة أجـــل الظليم وربقـــة السرحان

مطلع القصيدة التي منها هذا البيت هو :

الرأي قبل شجاعة الشجعـــان هو أول وهي المحل الثـــاني

وقد قالها يمدح بها سيف الدولة عند منصرفه من بلاد الروم سنة ٣٤٥هـ[2]

(١) الفتح ص ٢٤٣ — ٢٤٤

(٢) شرح العكبري جـ ٤ ص ١٧٤ والفتح ص ٣٢٥ .

اما بيتنا فقد أورده ابن فورجة ثم كتب : قال الشيخ أبو الفتح ورواه (يتقيلون) يقول : يتقيلون آباءً لهم سباقين إلى المجد والشرف كالفرس المطهم الذي إذا رأى الظليم فقد هلك ، وإذا رأى الذئب كان كأنه مشدود بحبل في عنقه . والعرب إذا مدحت رجلا شبهته بالفرس السابق كما قال النابغة . واستشهد بشعر كثير ثم قال :

وإنما استعار هنا لفظ (الظلال) لأن ظل كل شيء موازنه وعلى سمته ، فيريد بذلك احتذاءهم طريق آبائهم وسلوكهم مذاهبهم من غير تبديل ولا تعريج كما قيل :

شنشنة أعرفها من أخزم

ثم قال : ويحتمل أيضاً أن يكون معناه : أنهم يستظلون بأفياء خيولهم في شدة الحر يصفهم بالتعرب والتبدي . فالحمد لله الذي أجرى الحق على لسانه عاقبةً كما أجرى الباطل عليه بدءاً .

ما قال أبو الطيب ، ولا روى عنه إلا (يتفيأون) يريد : يجلسون في أفياء خيولهم للزومهم البادية في صميم الحر ، ولا ظل لهم غيرها . وقد جرت عادة أبي عبد الله بن مقلة رحمه الله والمتشبهين به في الخط من أهل بغداد بإظهار الألف الموصولة من خلف استواء السطر من غير تعقيب حتى تحسبها شرطة شرطت ، فلعلها اتصلت بالواو ، فحسبها أبو الفتح (يتقيلون) وهذا مما يسيء الظن بروايته . غفر الله له ، وما سمعنا أحداً روى هذا البيت (يتقيلون) غير الشيخ أبي الفتح ، ولتكن الرواية ما حكي . فكيف يكون الأب السيد الكريم أجلاً للظليم وربقة للسرحان ؟! أتراه يصفه بشدة العدو ، ولا كبير فخر في ذلك . أم يجعل الفرس أباه ؟! أم يجعله متقيلا الفرس في العدو .

وأي الثلاثة التأويلات تتناول هذا البيت مع روايته ؟! أم يجعل المطهم كرَّةً رجلا وكرةً فرساً فيكون البيت نصفين متنافيين ! ! وسيقول المتعصب له: لا ضير في ذلك، فإنه من باب التوسع . هو أحرج الحرج وقد خصم نفسه، وتنبه بعض التنبه فقال : ولفظ (الظلال) استعارة ، لأن ظل كل شيء موازنه ، وعلى سمته ، كأنه استحيا من قائل يقول له : فما تصنع بالظل ، وهو يريد أن يتقيل أباه ؟! فاعتذر له بالعذر الحسن الذي قد سمعته . فهلا يقول لنفسه : فأولى من الظلال (الخلال) فلو قال : يتقيلون خلال كل مطهم لأدى ما يروم . ثم الثالثة قضت عليه بالحق فاستدرك المعنى . ونسى موضع التصحيف فقال : يجوز أن يكون معناه : أنهم يستظلون بأفياء خيولهم من شدة الحر وقد علم أنه لا يجوز غيره ، غفر الله ذنوبه[1] .

كان هذا الكلام نقداً لتفسير ابن جني أولا ، وشرحاً لبيت المتنبي ثانياً وهو من النماذج القليلة التي فتح فيها ابن فورجة على أبي الفتح بحق . وعنف عليه بعض العنف . لكنه كالعهد به دائما — مؤدب مهذب يكتب ما يكتب بموضوعية وبنزاهة وبقلم عف .

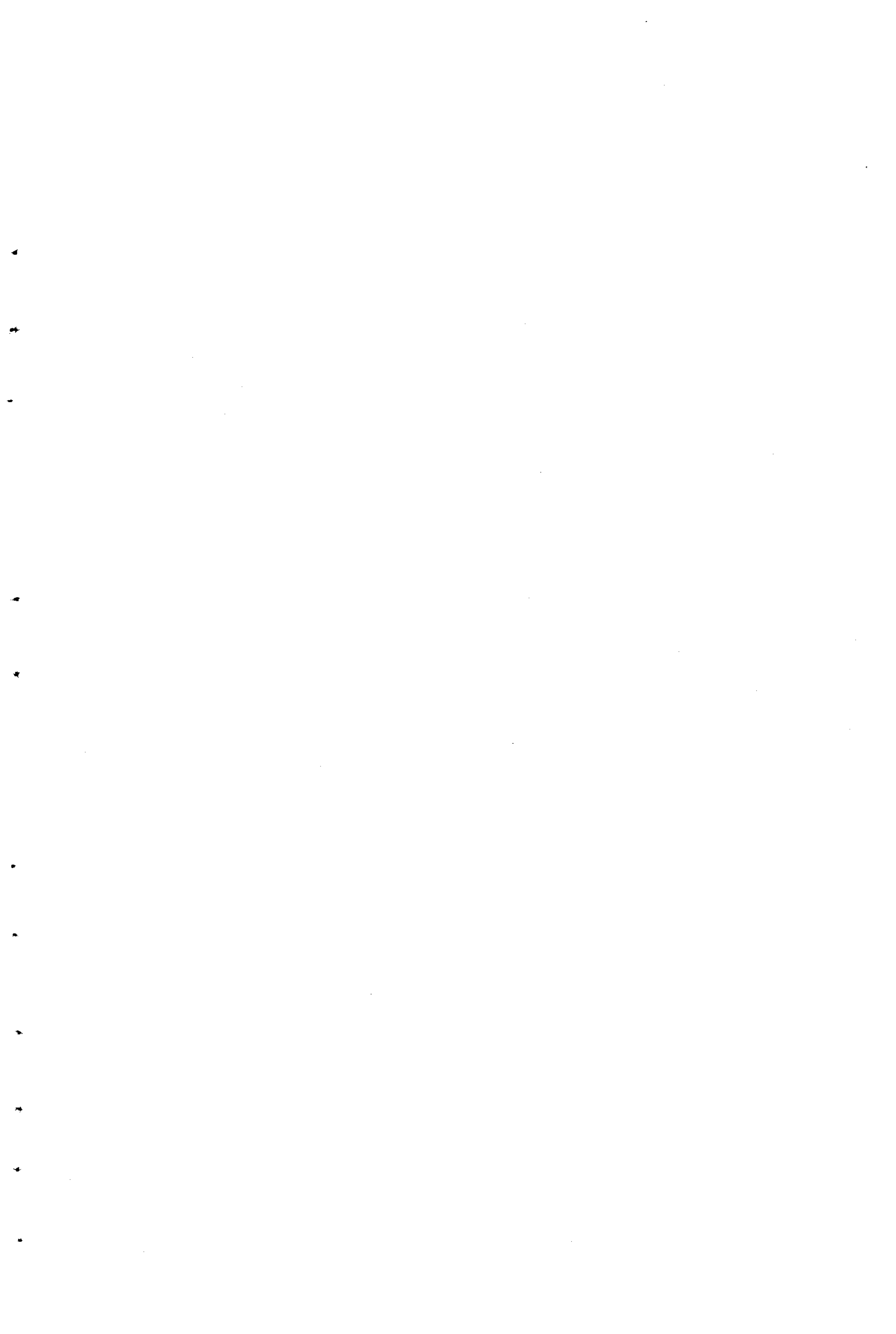
أما بعـــد :

فقد اخترت هذه النماذج من كتاب (الفتح على أبي الفتح) للعرض والنقد وقد نوعتها لدرجة أنه لا يوجد لون أو اتجاه أو شكل في كتاب (الفتح) لم أشر إليه، ولم أنوه به ولم أمثل له . والحمد لله .

(١) الفتح ص ٣٢٥ — ٣٢٦ .

الفصل الثالث

مع ابن سيده وكتابه : شرح مشكل شعر المتنبي



الفصـــل الثالث
شـــرح مشكل شعر المتنبي

مع ابن سيده في كتابه :

قال السلفي : سمعت أبا عبد الله محمد بن الحسن بن أبي زرارة اللغوي يقول : كان بالمشرق لغوي ، وبالمغرب لغوي في عصر واحد ، ولم يكن لهما ثالث وهما ضريران فالمشرقي أبو العلاء التنوخي بالمعرة ، والمغربي ابن سيده الأندلسي ، وابن سيدة أعلم من المعري ، أملى من صدره كتاب المحكم ، ثلاثين مجلداً ، وما في كتب اللغة أحسن منه[1] .

وابن سيده هذا الذي رجحت كفته على كفة المعري : هو أبو الحسن علي بن أحمد – وقيل إسماعيل – بن سيده [2] . ولد في مدينة مرسية بشرقي الأندلس سنة ٣٩٨ هـ . وقد نشأ بها وتعلم على شيوخها – ومنهم والده – حتى ظهر اسمه وسطع نجمه وتصادف أن عاصر الفتنة التي أودت بالمروانيين ، وأنهت دولتهم ، وأسلمت الأندلس إلى ما يسمي في تاريخه السياسي بعصر ملوك الطوائف . وقد تعاقب على مرسية وباقي أجزاء الشرق الأندلسي عدد

(١) الفقرة ٧٠ ص ١٠٩ من كتاب أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي تحقيق وإعداد د. إحسان عباس .

(٢) (أحمد) في جذوة المقبس للحميدي ص ٢٩٣ – ٢٩٤ و (إسماعيل) في الصلة لابن بشكوال ص ٤١٧ – ٤١٨ .

من الفتيان العامريين أبرزهم أبو الجيش مجاهد بن عبد الله العامري الذي حكم من سنة ٤٠٨ إلى سنة ٤٣٦ ﻫ وقد كان مجاهد عالماً بمقدار ما كان حاكماً .

قال لسان الدين بن الخطيب عنه : إنه جمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه وأتت إليه العلماء من كل صقع ، فاجتمع بفنائه جملة من مشيختهم ، ومشهور طبقاتهم كأبي عمرو المقرىء وابن عبد البر وابن معمر اللغوي وابن سيده . فشاع في حضرته العلم حتى فشا في جواريه وغلمانه[1] .

ولم يكن ابن سيدة مثل غيره ممن ذكرهم ابن الخطيب ، زينة المجالس ومن المتكسبين بالتواجد في حضرة مجاهد ، بل كان رجل عمل ، خدم الدولة طول حكم مجاهد ثم خدم بعده في دولة ابنه علي الذي حكم من ٤٣٦ إلى ٤٦٨ لكن ابن سيده لم يكمل معه بسبب وفاته في سنة ٤٥٨ﻫ[2] وقد كان ابن سيده نحوياً كبيراً ولغوياً ضليعاً وهو إلى ذلك أديب يقول الشعر ، وذو باع طويل في الفلسفة والمنطق وعلوم القرآن والكلام ، وبالاختصار كان ابن سيده موسوعة تضرب في شتى نواحي المعرفة بسهام كثيرة . ومع أن صفتي اللغوي والنحوي قد غلبتا عليه عند معظم من ترجموا له ، إلا أنه يرى نفسه خلاف ذلك ، يراها في غير اللغة أحسن منها في اللغة ، ها هو ذا يقول في مدخل المحكم : « إني أجد علم اللغة أقل بضائعي ، وأيسر صنائعي ، إذا أضفته إلى ما أنابه من علم حقيق النحو وحوشي العروض ، وخفي القافية ، وتصوير الأشكال المنطقية والنظر في سائر العلوم الجدلية »[3]
فلنتركه وهذا الإعجاب بنفسه ، ولننظره في مرآة غيره :

---

(١) جذوة المقتبس ص ٢٩٣ وأعمال الأعلام ص ٢١٨ .
(٢) وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٨ .
(٣) المحكم ج ١ ص ١٦ .

قال صاعد الأندلسي عنه : إنه عني بعلوم المنطق عناية طويلة ، وألف تأليفاً كبيراً مبسوطاً ذهب إلى مذهب متى بويونس ، وهو بعد هذا أعلم أهل الأندلس قاطبة بالنحو واللغة والأشعار[1] وفي الصلة لابن بشكوال : ذكر الوقشي عن أبي عمر الطلمنكي قال : دخلت مرسية فتشبث بي أهلها ليسمعوا مني كتاب الغريب المصنف ، فقلت لهم : انظروا لي من يقرأ لكم وأمسك أنا كتابي فأتوا برجل أعمي يعرف بابن سيده فقرأه عليّ من أوله إلى آخره فعجبت من حفظه[2] .

وقد نبه على تبحر ابن سيدة وتعمقه في علوم العقل والنقل وعلى تفوقه في تذوق الأدب ونقده كل من ترجم له .

قال ابن سعيد في المغرب : لا يعلم بالأندلس أشد اعتناء من هذا الرجل باللغة ولا أعظم تواليف ، تفخر مرسية به أعظم فخر ، طرزت به برد الدهر ، وهو عندي فوق أن يوصف بحافظ أو عالم[3] وقال الحميدي في جذوة المقتبس : إمام في اللغة وفي العربية ، حافظ لهما على أنه كان ضريراً ، وقد جمع في ذلك جموعاً ، وله مع ذلك في الشعر حظ وتصرف .

فمن شعره ما اعتذر به إلى علي بن مجاهد العامري الملقب بإقبال الدولة قال

ألا هل إلى تقبيل راحتــك اليمنى سبيل فإن الأمن في ذاك واليمنى
ضحيت فهل في برد نومك نومــة لذي كبد حرى وذي مقلة وسنى
ونضو همـــوم طلحتــه طياته فلا غاربا أبقين منــه ولامتنا

ومنه في المدح :

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ص ١١٩ – ١٢٠ .
(٢) الصلة لابن بشكوال ج ٢ ص ٤١٧ – ٤١٨ .
(٣) المغرب ج ٢ ص ٢٥٩ .

لاتضجرن فما سواك مؤمـــل ولديك يحسن للكرام تـــذلل
وإذا السحاب أتت بوابـــل درها فمن الذي في الرى عنهـــا يسأل
أنت الذي عودتنـــا طلب المنى لا زلت تعلم في العلا ما يجهل[1]

وواضح أن شعر ابن سيدة من نوع شعر العلماء فهو لا يثبت على النقد : نقد المضمون أو الشكل . وعندي أن شاعريته إنما هي أضعف شيء عنده .

شرح مشكل شعر المتنبي

هذا الكتاب يقع في ٣٥٨ صفحة من القطع الكبير عد الفهارس والمراجع الي قفز بها عدد صفحاته إلى ٣٩٣ صفحة . وهو من إصدار دار المأمون للتراث في دمشق بتحقيق الزميل الفاضل سعادة الأستاذ الدكتور محمد رضوان الداية حفظه الله . ومن تنفيذ مطبعة محمد هاشم الكتبي ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م . والمادة العلمية المكونة لهذا السفر القيم موزعة على ثلاثة وأربعين ومائة نموذج شعري من ١٤٣ قصيدة ، وتتردد كمية النماذج بين نصف بيت وثلاثة وعشرين بيتاً . لكن هذين الطرفين لم يتكررا ، فلم نجد الحد الأدنى وهو نصف بيت إلا مرة واحدة وكذلك الحد الأعلى . أما بقية النماذج فتمضي بين هذين الطرفين مع قلة واضحة في عدد النماذج المكونة من بيت واحد أو بيتين اثنين . وقد بلغ عدد أبيات النماذج ٨٣٦ بيتاً « وهذا بيان بها عبارة عن (أ) رقم النموذج (ب) رقم صفحته (ج) عدد أبياته .

(١) الجذوة ص ٢٩٣ والمغرب جـ ٢ ص ٢٥٩ .

رقم النموذج	صفحته	عدد أبياته	رقم النموذج	صفحته	عدد أبياته	رقم النموذج	صفحته	عدد أبياته	رقم النموذج	صفحته	عدد أبياته
١	٢٣	١	٢٩	٨٥	١	٥٧	١٤٥	٥	٨٥	١٩٨	٤
٢	٢٤	١١	٣٠	٨٦	٢	٥٨	١٤٦	٩	٨٦	٢٠٠	٦
٣	٣٢	٤	٣١	٨٧	٣	٥٩	١٥٠	١٤	٨٧	٢٠٢	٨
٤	٣٦	٢	٣٢	٨٨	٤	٦٠	١٥٥	٢	٨٨	٢٠٥	٥
٥	٣٧	١	٣٣	٩٠	١٦	٦١	١٥٦	١	٨٩	٢٠٧	١١
٦	٣٨	٢	٣٤	٩٧	٧	٦٢	١٥٦	٥	٩٠	٢١٢	٦
٧	٤٠	١	٣٥	٩٩	٤	٦٣	١٥٨	١١	٩١	٢١٤	٥
٨	٤١	١	٣٦	١٠١	٢	٦٤	١٦٢	١	٩٢	٢١٦	١٠
٩	٤١	٢	٣٧	١٠٢	٨	٦٥	١٦٢	٢	٩٣	٢٢٠	٤
١٠	٤٤	٥	٣٨	١٠٥	٦	٦٦	١٦٣	١	٩٤	٢٢٢	١٠
١١	٤٧	٤	٣٩	١٠٧	١٢	٦٧	١٦٤	٥	٩٥	٢٢٦	١
١٢	٥١	٥	٤٠	١١١	٤	٦٨	١٦٦	١	٩٦	٢٢٧	٧
١٣	٥٢	٢	٤١	١١٢	٣	٦٩	١٦٦	١	٩٧	٢٣٠	١
١٤	٥٤	٤	٤٢	١١٤	٤	٧٠	١٦٧	١	٩٨	٢٣٠	١
١٥	٥٦	٨	٤٣	١١٦	١	٧١	١٦٧	١٢	٩٩	٢٣١	٤
١٦	٥٩	٣	٤٤	١١١٦	٢	٧٢	١٧٣	١٠	١٠٠	٢٣٣	٦
١٧	٦١	٢	٤٥	١١٨	١٧	٧٣	١٧٧	٥	١٠١	٢٣٦	١
١٨	٦٢	٢	٤٦	١٢٥	٨	٧٤	١٨١	١	١٠٢	٢٣٦	٦
١٩	٦٤	٢	٤٧	١٢٨	٥	٧٥	١٨١	٧	١٠٣	٢٣٨	٣
٢٠	٦٧	٢	٤٨	١٣٠	٨	٧٦	١٨٤	٢	١٠٤	٢٤٠	١٣
٢١	٦٨	١	٤٩	١٣٣	٨	٧٧	١٨٥	٣	١٠٥	٢٤٤	
٢٢	٦٨	٢	٥٠	١٣٦	١	٧٨	١٨٧	٢	١٠٦	٢٤٥	٨
٢٣	٦٩	١	٥١	١٣٦	٤	٧٩	١٨٧	١	١٠٧	٢٤٩	١١
٢٤	٧٠	١٠	٥٢	١٣٩	١	٨٠	١٨٨	٢	١٠٨	٢٥٤	٢
٢٥	٧٣	٥	٥٣	١٤٠	٠,٥	٨١	١٨٩	٨	١٠٩	٢٥٥	٥
٢٦	٧٦	٧	٥٤	١٤٠	١	٨٢	١٩٢	٣	١١٠	٢٥٧	١١
٢٧	٧٩	٨	٥٥	١٤١	٦	٨٣	١٩٣	١	١١١	٢٦١	٧
٢٨	٨٣	٤	٥٦	١٤٤	١	٨٤	١٩٦	٤	١١٢	٢٦٤	١٥

رقم النموذج	صفحته	عدد الأبيات	رقم النموذج	صفحته	عدد الأبيات	رقم النموذج	صفحته	عدد الأبيات
١١٣	٢٧٠	٢	١٢٥	٢٩٥	٥	١٣٧	٣٢٨	٢٣
١١٤	٢٧١	٥	١٢٦	٢٩٧	٤	١٣٨	٣٣٦	٦
١١٥	٢٧٣	٧	١٢٧	٢٩٩	٢	١٣٩	٣٣٩	٤
١١٦	٢٧٥	٤	١٢٨	٣٠٠	١	١٤٠	٣٤١	٢
١١٧	٢٧٧	٩	١٢٩	٣٠١	٤	١٤١	٣٤٢	١٠
١١٨	٢٨١	٤	١٣٠	٣٠٣	٥	١٤٢	٣٤٦	١١
١١٩	٢٨٣	٤	١٣١	٣٠٥	٢	١٤٣	٣٥١	١٤
١٢٠	٢٨٥	١	١٣٢	٣٠٧	١٢			
١٢١	٢٨٦	٩	١٣٣	٣١٢	٢			
١٢٢	٢٩٠	٧	١٣٤	٣١٤	١٣			
١٢٣	٢٩٣	١	١٣٥	٣٢١	٧			
١٢٤	٢٩٣	٣	١٣٦	٣٢٣	١٦			

ونحن في هذه النماذج مع رجل قادر على توليد المعاني والغوص وراءها واستخراجها من أصدافها الضنينة بها، لأنها محكمة الإغلاق عليها، ومشدودة الرتاج دونها . إنه يختلف عمن سبقه من شراح المتني :

ابن جني والأصبهاني وابن فورجة .

هؤلاء كان يستوقفهم البيت غالباً ، والبيتان نادراً ، أما هو فقليلا ما يقف عند ذلك ، إنما هي القطعة المكونة من ثلاثة أبيات فما فوقها إلى ثلاثة وعشرين بيتاً من القصيدة الواحدة ولهذا فقد كشف عن مساحة كبيرة مما أسموه أبيات المعاني في شعر المتنبي أو ما سماه هو (مشكل شعر المتنبي) وإنه ليختلف عنهم من جهة ثانية هي أنه يتعامل مع ما يورده من شعر المتنبي لا غير فلا شأن له بما قاله الناس قبله في شرحه . حتى الأبيات التي دار حولها كلام كثير من قبله ، لا شأن له به ، كأنه لم يطلع عليه . علما بأنه قد اطلع على الفسرين : الكبير والصغير لابن جني ، فهو يذكره بين الحين والحين لا ليريش بشرحه شرحه ، بل ليكمله مادياً أو معنوياً . فهو يشرح بيت المتنبي :

تحمي السيوف على أعدائه معه كأنهن بنوه أو عشائره

ويعقب على شرحه له بقوله : قال أبو الفتح : وهذا أبلغ من قول أبي تمام :

كأنما هي في الأوداج والغلة وفي الكلا تجد الغيظ الذي نجد

إلا أن أبا الطيب قد جعل السيوف بنين له وعشائر ، وإذا كانت المناسبة، استحكمت العصبية وازدادت الأنفس حمية ، وأبو تمام لم ينط بيته بشيء من معنى المناسبة .[1]

(١) شرح مشكل شعر المتنبى ص ٥٢ .

وهو يورد بيت المتنبي :

أبرحت يا مرض الجفون بممرض   مرض الطبيب له وعيد العود

ويشرحه ثم يقول في ختام شرحه : — « ولابن جني في هذا البيت كلام أجله عن أن أعزوه إليه »[1] وقد يذكره ليتعقبه وينقده . مثال ذلك أنه لما كان بصدد شرح قول أبي الطيب .

كفرندى فرند سيفي الجراز   لذة العين عـــدة للبراز

أبدع ما شاء له علمه واطلاعه واستشهاده بالقرآن الكريم ، ثم عرج على أبي الفتح فقال : وأما ابن جني فقال : عنى أن جوهر سيفي كجوهري ، فإن كان عنى بالجوهر الفرند فخطأ لأن الفرند إنما هو صفاء السيف بما يحدث من الصقالة ، فهو — لهذا — عرض وإن كان عنى بالجوهر سنخ هذا السيف أي أن سنخي في نوع الإنسان كسنخ سيفي هذا في نوع الحديد ، فصفاء فهمي من جهة شرف جوهري ، كما أن صفاء هذا السيف من جملة شرف جوهره فهو حسن . ويقوى ذلك أنه قد استطرد في أبيات السيف من هذا الشعر تشبيهه نفسه به وجعله نفسه في نوعه كسيفه في نوعه[2]

ومرة — لعلها أن تكون وحيدة — اعتمد كلام ابن جني مع كلام غيره شرحاً لبيت أورده وهذا البيت هو :

فقد مل ضوء الصبح مما تغيره   ومل سواد الليل مما تزاحمـــه

يقول ابن سيده في عقبه : ذكر طاهر بن الحسين أن (تغيره) في البيت من الغيرة يريد أن الصبح يغار من كثرة ما تفعل فيه من قلبه إلى ضده من شدة

(١) شرح مشكل شعر المتنبي ص ٥٦ .
(٢) شرح مشكل شعر المتنبي ص ١٤١ .

القتال . وكذلك الليل أيضاً يغار من ذلك لأنه يصيره يوماً لإظهاره فيه السيوف والرماح من ضيائها .

وقال أبو الفتح بن جني : أراد تغير فيه ، فحذف حرف الجـــر اختصاراً ، وقال : في (تزاحمه) أي تسري فيه . فاستعمل (تزاحمه) في موضعها ، والهاء في (تزاحمه) مفعول وليس بمعنى تزاحم فيه .
وقال الوحيد : ليس هذا أراد بقوله (تغيره) ، وإنما أراد تسير في بياض الحديد من البيض والدروع فكان الصبح يغار عليه إذا رأى ضياء غيره قد ألبس به .
وقوله : ومل سواد الليل مما تزاحمه : يعني بالغبار كأنه ليل آخر يزاحم الليل الذي هو الظلمة[1] .

وربما دل هذا النقل على أن ابن سيده لم يطلع من الأعمال النقدية التي كانت رد فعل للفسرين إلا على الأعمال القريبة من ابن جني ، والمعاصرة له . وقد كان الوحيد معاصراً لابن جني ، ولقي المتنبي بمصر في المدة من ٣٤٦ إلى ٣٥٠ هـ [2] .

أما بعد فقد أحسست بالارتياح ، وبالهدوء النفسي ، وبزوال التوتر الذي صحبني وأنا أخوض المعارك المتصلة بين الأصبهاني وابن جني ، والمتقطعة بين ابن فورجة والصاحب والجرجاني وابن جني والسبب في ذلك يحسه من

---

(١) شرح مشكل شعر المتنبي ص ١٧١ .
(٢) هو أبو طالب سعد بن محمد بن علي الأزدي البغدادي المعروف بالوحيد البغدادي ت ٣٨٥ هـ كان عالماً بالنحو واللغة والعروض بارعاً في الأدب ذكروا أن من مؤلفاته شرحاً على ديوان المتنبي . والموجود ليس سوى تعليقات على بعض ما شرحه ابن جني من مشكل شعر المتنبي وانظر الأعلام جـ ٣ ص ١٣٨ ، وتاريخ النقد الأدبي عند العرب للدكتور إحسان عباس ص ٢٨٧ وهامش رقم ٣ ص ١٧١ من شرح مشكل شعر المتنبي .

يدخل كتاب ابن سيده بعد خروجه من الكتب السابقة . ففيه العلم المصفي من أية شائبة . فيه النحو والقراءات والتفسير والحديث والأمثال .

فيه الذوق الأنيق والحس المرهف . فيه تشقيق الألفاظ لتخرج منها جواهر المعاني عن طريق توجيه الكلام توجيهات ذكية وقيمة ، وفيه قبل ذلك وبعده : المضي قدماً إلى الغرض الذي جعله نصب عينه وهو إزالة الغموض عن أبيات المعاني في شعر المتنبي ، فهذا الغموض مشكل أخذ على عاتقه إزالته ، وقد فعل ، ونجح فيما فعل . لقد ذكرت بابن سيده وبكتابه (شرح مشكل شعر المتنبي) ما يقوله الجغرافيون عن منطقة النيل الأبيض في مجرى النهر الخالد ، فهم يصفون هذه المنطقة بأنها فسيحة ومنبسطة ورقراقة . والنيل يدخل بدخولها منطقة هادئة وديعة يستبدل فيها خريره بهديره ويتسع مجراه له فتترسب الرمال العالقة به والطمي المعكر لمائه ، ويصير صافياً رائقاً كأنه الفضة السائلة وذلك بعد الدكنة والعتمة في لونه ، وقد سموه لهذا النيل الأبيض . فابن سيده وكتابه هو النيل الأبيض في خط سير الأعمال وردود الأعمال التي إن نسبناها إلى شعر المتنبي مرة ، فإننا ننسبها إلى شرح هذا الشعر من قبل ابن جني أكثر من مرة . إن إعجابي بابن سيده في شرح مشكل شعر المتنبي لا ينقضي . وقد حيرني وأنا أختار نماذج منه ، فقد كنت عولت على أن أختار نموذجاً تتضح فيه أو تغلب عليه الناحية اللغوية وآخر تتضح فيه أو تغلب عليه الناحية النحوية ، وثالثاً تتضح فيه أو تغلب عليه الناحية المنطقية أو النقدية أو البلاغية لكني كنت أجد النموذج غير خالص لواحدة من تلك التي أردته لها وسقته شاهداً عليها ولا عجب ، فالأمثلة من هذه النواحي متشابهة ومتداخلة وليست وقفاً على ناحية معينة .

وقد عدلت لهذا عما كنت عليه عولت ، وقررت أن يكون الأساس في اختيار النماذج إنما هو التدرج الكمي لها ، بمعنى أننا نختار نموذجاً مكوناً من بيت أو بيتين ثم نموذجاً مكوناً من ثلاثة أبيات أو أربعة ، فنموذجاً مكوناً من خمسة أبيات أو ستة وهكذا حتى يكون آخر نموذج نعرضه إنما هو أكبر نموذج عرضه ، وأنا ضامن أن الكيف سائر مع الكم وملازم له فابن سيده – على عكس ما علمنا – الكيف عنده هو الجوهر والكم هو العرض . وسأكون بحول الله تعالى مع النماذج ، منبهاً على ما فيها من سمات فنية وقد تكون المسألة من السهولة بحيث أستطيع بلورة السمة المستخلصة وتقييمها تقييماً قائماً على مدى الأهمية التي كانت لها عند ابن سيده في مشكلة بعينها ، أو فيها وفي غيرها ، ثم تصنيفها .

ويلزم التنبيه إلى أن الأبيات المختارة من القصيدة الواحدة متناثرة بها ومتفرقة فيها بمعنى أنها ليست متلاحمة ولا متصلة . فالنموذج الثاني مثلا مكون من أحد عشر بيتاً ، وهو مأخوذ من قصيدة عدتها ٤٢ بيتاً . والأحد عشر بيتاً المكونة للنموذج هي ٢ ، ٦ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٤١ ، من القصيدة . وهذه حالة سهلة لأن الأبيات فيها مأخوذة على حسب ترتيبها في القصيدة فـ ٦ بعد ٢ ، ١٠ قبل ١٢ وهكذا .

لكن قد تؤخذ الأبيات المكونة للنموذج بدون نظام ، ومعنى ذلك أن الأبيات المكونة للنموذج لا يكون أخذها من القصيدة بترتيب ورودها فيها بل حسبما اتفق فمثلا النموذج رقم ١١٠ وهو مكون من أحد عشر بيتاً ترتيبها في النموذج والقصيدة هو : –

البيت	١ في النموذج	هو ١١ في القصيدة
»	٢ » »	» ١٣ » »
»	٣ » »	» ٢٦ » »
»	٤ » »	» ٣٤ » »

إلى الآن لا بأس على ما فيه مما سنقوله . لكن البيت ٥ في النموذج هو البيت ٤ في القصيدة ولنذكر أن البيت السابق على ذلك في النموذج وهو البيت الرابع كان البيت الرابع والثلاثين في القصيدة . ويمضي التدني في النموذج عن البيت الرابع والثلاثين في القصيدة هكذا :

البيت	٦ في النموذج	هو البيت	١٦ في القصيدة
»	٧ » »	» »	١٧ » »
»	٨ » »	» »	١٨ » »
»	٩ » »	» »	٢٠ » »
»	١٠ » »	» »	٢٢ » »

وإذا كان الاختلال في هذا النموذج بسبب كسر الترتيب في بيت واحد، فإنه قد يكون في نماذج أخرى بسبب كسره في بيتين أو ثلاثة ، علما بأن النموذج ١١٠ ليس وحده فيما ذكرته ، بل مثله النماذج :

١٠ ، ١١ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٧١ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١١٤ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٤٢ .

وليس من شك في أن إيراد النماذج على هذه الصورة عقبة كبيرة في

سبيل فهم معانيها ومثل هذا يقال في خلخلتها . فهذان الأمران (التخلخل مع عدم الترتيب) و (التخلخل) وحده ، يربكان الذهن ويسببان عدم الفهم

أريد أن أقول : إن كثيراً من الأبيات التي أُخذت لتُشرح قد يكون سبب غموضها إنما هو أخذها من سياقها وإفرادها ، بل جعل ذلك بعضها يتحول عن معناه في السياق الأصلي إلى معنى مغاير في السياق الحادث سياق المؤلف . وعندي أن هذا العمل من قبل ابن سيده يعد إخلالا بالأمانة الأدبية إنه – إلى حد ما – تحريف للكلم عن مواضعه .

عند ابن سيده البيتان ٣ ، ٤ في النموذج رقم ٢ هما :

كيف يحيك الملام في همم   أقربها منك أبعدها

أحييتها والدموع تنجدني   شئونها والظلام ينجدها

الضمير في (أحييتها) يعود تواً وطبعاً إلى الهمم التي يحيك بها الملام في البيت الأول وينجدها الظلام في البيت الثاني . ونرجع إلى الديوان فنجد أن البيتين المذكورين هما ١٠ ، ١٢ في القصيدة وأن البيت ١١ الذي أسقطه ابن سيده من سياقه هو :

بئس الليالي سهرت من طرب   شوقاً إلى من يبيت يرقدها

وإذن فالضمير في أحييتها لا يعود إلى الهمم وإنما يعود آلياً أو مغناطيسياً إلى الليالي في البيت الحادي عشر .

ماذا ؟ هل أسقطه ابن سيده ليخلق مجالا للكلام في البيت الرابع هنا والثاني عشر في القصيدة ؟ أو نقول : إن ذاكرة ابن سيده التي بلغ من أمرها أنها أملت المحكم ثلاثين جزءاً ، وأنها أسمعت الطلمنكي كتاب الغريب المصنف حتى عجب من حفظه . نقول :

إن هذه الذاكرة راحت تخون صاحبها فتمده بالبيت بعد البيت أو أو الأبيات مرة ، وبالبيت قبل البيت أو الأبيات مرة ؟!!

لا أظن أن اتهامنا لذاكرته في محله ، فلنتهم عقله وعمله ومنهجه ، ولنقل : إنه لم يكن يحق له أن يفصل الأبيات عن بعضها ، وأن يخل بترتيبها ليحدث لها سياقاً جديداً يربكها ، ويربك المعنى ويربكنا معها ومع المعنى . ومثل ذلك ما نجده في البيت الحادي عشر مما أورده ابن سيده ، فهذا البيت — فضلا عن أنه يمكن ضربه مثلا للأبيات التي عالجها وكأنها شواهد نحوية — نقول هذا البيت هو — إلى ذلك — يشتمل على ضمير تائه لا يجد مستقره بعد أن قطعه ابن سيده عما قبله وعما بعده . وهو (البيت والضمير) :

اقر جلدي بها عليّ فلا أقدر حتى الممات أجحدها

ما مرجع الضمير في (بها) وفي (اجحدها) ؟

لا يوجد ، وليفسر ابن سيده ما شاء له التفسير لكن . لنعد البيت إلى أصله فسنجده هناك هكذا :

ومكرمات مشت على قدم البـ ـرإلي منزلي ترددها

أقر جلدي بها عليّ فلا أقدر حتى الممات أجحدها

فعد بها لاعدمتها أبدا خير صلات الكريم أعودها[1]

هذا البيت لم يعد في حاجة إلى شرح ، ولم يعد الضمير في (بها) و (أجحدها) تائهاً لا يجد مقصده ، ولا عجب فقد وجده في (مكرمات) بالبيت قبله ، وعرفنا نحن أن مكرمات) هي (صلات الكريم) في البيت

---

(١) شرح العكبري ج ١ ص ٣١٢ وشرح مشكل ... ص ٣١ .

بعـــده .

والآن مـــع النماذج وتحليلها ، والتعليق عليها ونقدها وكالعادة سنسوق عشرة أمثلة .

— ١ —

قال المتنبي في صباه :

محبى قيامي مالذلكم النصـــل سليما من الجرحي بريئاً من القتل

وبعد بيتين عبر فيهما عن اعتزازه بسيفه وببأسه قال :

أمط عنك تشبيهي بما وكأنه فما أحد فوقي ولا أحد مثلي

وقد أورد ابن سيده البيت الأول وقال في شرحه : أي يا محبي ثورتي وقيامي بدولتي وتركي للأسفار ، كيف أفعل ذلك ولم أكسر سيفي ولا ثلمته بضربي أعدائي به فكنى عن الكسر بالقتل ، وعن الثلم بالجرح إذ الجرح والقتل إنما يلحقان الحيوان ، والسيف جماد لا حياة به ، وأراد سليما من الجرح ، فوضع الجرحى في موضع الجرح .

وإن شئت قلت : كان على حذف المضاف أي سليما من ألم الجرحي أو من هيئة جرح الجرحي ، و (بريئاً) و (سليما) منصوباً على الحال ، من قوله : (ما لذلكم) أي أستفهم عنه ، وهو في هاتين الحالتين كقوله تعالى : « فمالهم عن التذكرة معرضين » .

ثم أورد البيت الثاني وعقب عليه بقوله أما (كأن) فلفظة تشبيه ، فالكلام بها هنا على وجهه ، كأنه يقول : لا تقل فيَّ كأنه الأسد ، ولا كأنه السيف ، ولا كأنه الموت أو السيل فكل ذلك إنما هو دوني ولا ينبغي أن تشبه الشيء بدونه ، إنما المعتادعكس ذلك وأما (ما) فليست بلفظة تشبيه بمنزلة كأن ، لكن إنما استجازها في التشبيه ؛ لأنه وضع الأمر على أن قائلاً قال : مايشبه؟فقال

له المسئول : كأنه الأسد ، كأنه السيف . ف (كأن) هذه التي للمسئول إنما سببها (ما) التي للسائل ، فجاء هو بالسبب والمسبب جميعاً ، وذلك لاصطحابهما ، ومثل هذا كثير . وقد يجوز أن تكون (ما) هنا بمعنى الجحد فجعلها اسماً وأدخل الحرف عليها ، كأنه سمع قائلا يقول : (هو الأسد) وفي هذا معنى التشبيه أي مثل الأسد فأبى هو ذلك ، ثم رجع إلى النوع الأشرف فقال :

« فما أحد فوقي ولا أحد مثلي ؛ مفضلا نفسه عليهم . [1]

* * *

وابن سيده هنا أستاذ أدب يشرح النص لطلابه ويحلله لهم تحليلا أدبياً لغوياً بلغة تعليمية سهلة يقف فيها عند المعضلات النحوية بنصه على أن (سليما) و (بريئاً) منصوبان على الحال من (مالذلكم) وهو في البيت الثاني خبير بالمصطلح البلاغي الذي هو المعنى اللغوي ل (لكأن) فهي أداة تشبيه ، ولذلك كان الكلام بها هنا على وجهه . أما (ما) فليست أداة تشبيه والكلام فيها — لذلك طويل عريض ، قال ابن سيده زبدته ثم لم يعرج على آراء من سبقوه : ابن جني والجرجاني وابن فورجة والأصبهاني ، بل لم يعرج على كلام المتنبي نفسه ولو أنه قد اعتمده رأياً له . لكنه لم يشر إلى ذلك لا من قريب ولا من بعيد ، وهذا شأنه غالباً . قال أبو الفتح ، وهو الذي كان إذا سئل عن هذا أنه يعتبر كأن قائلا قال : بما يشبه ؟ فيقول الآخر : كأنه الأسد ، فقال هو : معرضاً عن هذا القول :

أمط عنك تشبيهي بما وكأنه ، فلما جاء بحرف التشبيه ذكر (ما) في التشبيه .

---

(١) العكبري جـ ٣ ص ١٦١ وشرح ابن سيده ص ٣٦ — ٣٧ .

هذا النموذج ضعف النموذج السابق أي أربعة أبيات . وهو من قصيدة قالها المتنبي يمدح بها أبا شجاع بن محمد الطائي المنبجي مطلعها :

عزيز أسى من داؤه الحدق النجل عياء به مات المحبون من قبـــــل

وأبيات النموذج هي الأبيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٧ من القصيدة التي تنتهي بالبيت ٢٩ وها هو ذا النموذج مشروحاً من قبل ابن سيده :

إذا قيل حلما قال : للحلم موضع وحلم الفتى في غير موضعه جهل

أي طلب الرفق في موضع التنازل خديعة لا يخلد إليها أريب كقوله :

يناشدني حاميم والرمح شاجـــر فهلا تلا حاميم قبل التقدم

وإنما يروم بذلك قرنه منه التماس نهزة ، أو جذبا إلى كشف شدة عن نفسه .

ولولا تولي نفسه حمل حلمه عن الأرض لانهدت وناء بها الحمل

الحَمْل : المصدر ، والحِمْل : الاسم ، وناء بها : أثقلها ، وفي التنزيل :

(ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة) ولا يقال (ناء) إلا في حد الإتباع (لساء) يقال : له عندي ما ساء وناء ، وقد يكون مع الإتباع صيغ لا توجد فى حد الإفراد كقولهم : هنأه ومرأه ، فإذا أفردوه قالوا (أمرأه) وقالوا : ـ إني لآتيه بالغدايا والعشايا ، والغداة لا تجمع على غدايا ، لأن (فعلة) لا تكسر على (فعايل) لكنهم تجوزوه لما قرنوه بالعشايا . ولا عليك أتبع الثاني الأول ، أم صيغ الأول على الثاني ، لأن مذهب العرب في ذلك أن تصوغ الكلام من وجه واحد طلباً للمشاكلة .

ومعنى البيت أن حلمه وزين رزين ، فلو لم يتول حلمه نفسه بنفسه ، ووكل الأرض بحمله أثقلها فانهدت، وإنما يوصف الحلم بالرزانة لما يتبعه من الوقار ، كقول الآخر .

أحلامنا تزن الجبال رزانــة ويزيد جاهلنـــا على الجهال

وقد قال هو ايضا :

وبقيات حلمه عافت النـــــا س فصارت ركانة في الجبال

* * *

وحالت عطايا كفه دون وعــده فليس له إنجاز وعد ولا مطل

أي إن عطاياه بلا عدة ، والإنجاز والمطل غرضان أو خاصتان للوعد ، في وجودهما بوجوده ، فإذا ارتفع الوعد ارتفعت خاصتاه اللتان هما الانجاز والمطل ، وكذلك كل خاص ومخصوص إذا انتفي المخصوص انتفت الخاصة كالضحك وقبــول العلم والأدب اللذين هما خاصتا نــوع الإنسان ، فإذا انتفي الإنسان انتفت هاتان الخاصتان . وإنما مثلت الوعد والإنسان وإن كان الوعد عرضا والإنسان جوهراً تقريباً وتثبيتاً فلا تظن بنا غير ذلك ، ولو وثقنا بفهم بني الزمان لغنينا عن إطالة البيان .

كفى ثعلا فخرا بأنك منهم ودهر لأن أمسيت من أهله أهل

أي ودهر لكونك من أهله ، أي دهر مستحق لذلك ، ورفعه بفعل مضمر ، أي وليفخر دهر ،، وحسن هذا الإضمار لأن قوله : — كفي ثعلا فخراً بأنك منهم ، في قوة قوله : لتفخر ثعل ، فحمل الثاني على المعنى ،

فكأنه قال : لتفخر ثعل وليفخر دهر ، والحمل على المعنى كثير ف (أهل) صفة لدهر ، وأراد كفى الفخر ثعلا فخراً بكونك منهم[1]

ولا زال ابن سيده كما كان في النموذج السابق أستاذاً بين طلابه ، لكنه هذه المرة أستاذ أدب ومنطق أو أستاذ أدب عليه مسحة من منطق . ومع أنه لم يطل في شرحه ـ كالعهد به في نماذج كثيرة من كتابه ، إلا أنه يعتذر بعد شرح البيت الثالث بقوله الممثل لعجبه « ولو وثقنا بفهم بني الزمان لغنينا عن إطالة البيان » وبماذا يعتذر ؟

إنه يعتذر بغباء أو بالتشكيك في ذكاء بني الزمان ، وهو نوع من التفرعن والاستطالة على أهل العصر ، وتلك عادة بغيضة للسادة النبغاء في كل زمان ومكان . يستعلون ، وقد يتألهون ، ولا عجب فالنبوغ فنون وجنون .

ومن علماء النفس من يعذر النابغ في استعلائه ، لأنه تعبير طبيعي وغير إرادي عن ذكائه أي أنه ايس من كسبه ، أو أنه من كسبه وأراد به شن حرب وقائية ، فقد توقع أن يستصعب معاصروه كلامه ، أو أن يوجد على المدى البعيد من يلومه فقال ما قال على طريقة (ولم لا تفهم ما يقال) فإن لم تنفع أو لم تردع فعلى طريقة : — (وما علينا إذا لم تفهم البقر) .

وقد أعرب لفظة (دهر) في صدر الشطرة الأخيرة بما أعربها به ابن جني دون أن يسميه فهل هو توارد خواطر ؟ ! أميل إلى ذلك خصوصاً وأننا في (نحو) ومن النحو في (إعراب) الاتفاق فيه أكثر من الاختلاف . وإذن فهي قواعد النحو توافت على أقلام النحويين ، أو هي أصول الإعراب جرت

---

(١) العكبري جـ ٣ ص ١٨٠ وشرح ابن سيده ص ٥٤ — ٥٦ .

على السن المعربين لا فرق في ذلك بين سابق ومسبوق ولا بين مشرق ومغرب .

— ٣ —

هذا النموذج الثالث أوله مطلع قصيدة يمدح بها المتنبي عليّ بن إبراهيم التنوخي وأبياته هي الأبيات ١ ، ٨ ، ٩ ، ١٤ ، ١٨ ، من القصيدة المذكورة قال ابن سيده : وله أيضاً .

أحاد أم سداس في أحـــــاد ليبلتنا المنـــوطة بالتنـــــادي

أي أواحدة ليلتنا هذه أم ست في واحدة ؟!!! ليبلتنا : صغرها تصغير التغطيم كقول أوس : —

فويق جبيل شاهق الرأس لم يكن ليبلغه حتى يكل ويعمــــــلا

فقال جبيل ، والجبل الذي هذه حاله ليس بجبيل ، إنما هو جبل ، وإنما وجه تصغير التعظيم أن الشيء قد يعظم في نفوسهم حتى ينتهي إلى الغاية ، فإذا انتهاها عكسوه إلى ضده لعدم الزيادة في تلك الغاية ، وهذا مشهور من رأي القدماء الفلاسفة الحكماء أن الشيء إذا انتهي انعكس إلى ضده ، ولذلك جعل سيبويه الفعل الذى يتعدى إلى ثلاثة مفعولين وهي نهاية التعدي بمنزلة الفعل الذي لا يتعدى إلى مفعول قال :

لأنه لما انتهي فلم يتعد ، صار بمنزلة مالا يتعدى ، وهذا منه ظريف جداً . والتنادي القيامة : لما جعل الليلة ستاً استطالها بعد ذلك فجعلها هو أكثر مدة فقال : — إنها منوطة بالبعث . و (أحاد) خبر مبتدأ مقدم ، ولا تكون مبتدأ ، لأنه نكرة . و (ليبلتنا) معرفة فهو أولى بالتقديم ، وصغر الليلة على القياس .

متى لحظت بياض الشيب عيني فقد لحظتــه منهــا في السواد

أي حزني على بياض شيبي كحزني عليه لو رأته عيني في سواد ناظرها ، كقول أبي دلف :

في كل يوم أرى بيضاء قد طلعت كأنما طلعت في ناظر البصر

* * *

متى ما ازددت من بعد التناهي فقد وقع انتقاصي في ازدياد

أي إذا ازددت عمراً بعد تناهي الأشد ، فتلك الزيادة في سني نقصان مني ، لأنه قد بلغ غاية النماء ، ببلوغ الأشد ، فهو آخذ بعد ذلك في التحلل إلى بسيط العنصر كقوله هو وقد مدح بعض الأمراء بشعر عدد أبياته أربعون :

فبعثنـــا بأربعـين مهـــار كل مهـــر ميدانــــه إنشاده

عدد عشتَــه يَرى الجسمُ فيــه أربا لا يُــراه فيما يُــزاده

أي عدد عشته أنت أيها الممدوح ، لأن سن الممدوح حينئذ كانت أربعين ، فسوى عدة الأبيات بعدة سنيه ، وقال (يرى الجسم فيه أربا لا يراه فيما يزاده) يعني بالأرب النماء ، ولا يكون إلا إلى الأربعين . فإذا زيد عليها عمراً لم ير الجسم في ذاته نماء وإنما هو راجع عن التركيب إلى التحلل .

وأبعـد بعدنا بعـد التـداني وقرب قربنـا قرب البعـاد

يقول : كنت منه بعيداً فكان البعد مني حينئذ قريباً ، والقرب بعيداً ، فلما جئته وقربت منه انعكس الحال فعاد البعد بعيداً وكان قريباً ، وعاد القرب قريباً وكان بعيداً . ونسب الإبعاد والتقريب إلى هذا الممدوح ، لأن انعكاس الحال إنما كان بسببه ، فلولا هو لم يبعد البعد الذي كان قريباً ، ولا قرب القرب

الذي كان بعيداً. وإخراجه مصدر أبعد وقرّب علىَ بُعد وقَرُب، وإنما مصدرهما إبعاد وتقريب على قوله تعالى (والله أنبتكم من الأرض نباتا) أي نبتم نباتاً ، وكذلك أبعد وقرّب مطاوعهما بعد وقرب فأخرج المصدر عليهما ومثله كثير .

وأنك لا تجود على جـــواد هباتك أن يلقب بالجـــواد

أي لم تترك هباتك أحداً غيرك يستحق أن يلقب بالجواد إذا قيس بك .
وتلخيص ذلك :

أي لاتجود هباتك على أحد بهذا الاسم ، وإن كانت لا تمنع غيره من ضروب العطايا ، فـ (أن) على هذا القول : نصب بإسقاط الحرف أي بأن يلقب و (هباتك) فاعلـــة بتجود ولا تكـــون التاء في (تجـــود) للمخاطبة ، وتكون (هباتك) بدلا من الضمير الذي في تجود . لا يجوز ذلك ألبتة ، لأن المخاطب لا يبدل منه (ألبتة) ومن هنا منع سيبويه البدل في قولك بك المسكين مررت . إنما تنصبه على الترحم أو على نية إسقاط الألف واللام في قول يونس ، فيكون منصوباً على الحال . وقد كره هو أيضاً قول يونس وقال :

ولو جاز هذا لقلت مررت بعبد الله الظريف تريد ظريفاً[1] .

هنا ابن سيده لغوى نحوي منطقي ، ذاتيته قوية وهو أستاذ متمكن من علمه بارع في فنه ، بليغ في أداء مقولته . وقد رأيناه يغمض وهو يشرح البيت الرابع ، لكنه غموض الفلسفة ، والحمد لله فهي فلسفة بليغة ، لأن المقام يقتضيها مقام المعاني الفلسفية العويصة . نجدها في شعر المتنبي وقد ، كان وجودها فيه داعي ابن سيده إلى أن يتفلسف ما شاء له التفلسف ، فيروي عن القدماء الفلاسفة الحكماء ، ويذكر العنصر البسيط ، ويتكلم في الكيمياء

---

(١) شرح العكبري جـ ١ ص ٣٥٣
وشرح مشكل شعر المتنبى ص ٧٣ – ٧٦ .

عن التركيب والتحلل ، وعن التفاعلات التي تحدث في الجسم البشري بعد الأربعين ، وهي تفاعلات بيولوجية تأخذ أكثر مما تعطي وتهدم أكثر مما تبني ، ولا تزال كذلك حتى تقضي على صاحبها القضاء المبرم .

وقبل أن نترك هذا النموذج ننبه إلى أن البيت الثاني منه لم يكن بحاجة إلى شرح أي شرح ، لوضوحه المشع ، فهو ليس من أبيات المعاني ، كما أنه ليس من مشكل شعر المتنبي . هذا رأيي .

— ٤ —

والنموذج الرابع كالنموذج الثالث في أن أوله مطلع قصيدة مدح وهو هذه المرة يمدح بها بدر بن عمار ، وكان قد فصد لعلة . والقصيدة ٤٤ بيتاً .

أما أبيات النموذج فهي ١ ، ٢ ، ٨ ، ١٢ ، ٢١ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٧ منها وهذه هي مشروحة :

أبعد نأي المليحة البخل في البعد مالا تكلف الإبل

جعل النأي أنواعاً أبعدها البخل ، إذ سائر أنواع النأي يرجى دنوه ، إما بإياب المحبوب ، وإما بتجشم السير إليه . فأما البخل فلا احتيال فيه ، لأنه من قبل المحبوب نفسه ، لا من قبل نأي أو جبه ، ولذلك قال : (في البعد مالا تكلف الإبل) . أي أن بخل هذه المليحة مسافة نفسانية ليس للإبل فيها عمل ، فلا تكلفها ولا تعمل فيها ، إنما تكلف الإبل قطع الأرض ، وهذا كقوله هو :

لو عدا عنك غير هجرك بعد لأراك النسيم مخ المناقي

أي لو كان بعدك من جهة المسافة الأرضية لأعملنا إليك الإبل حتى

نهزلها ولكن بعدك نفساني ، إنما هو من جهة هجرك ، فالهجر هنا كالبخل في بيته الأول إلا أن البيت الأول أوجز ، لأنه انتظم قضيتين كل واحدة منهما مستغنية بذاتها مع قصر عروضه .

ملولة ما يدوم ليس لهـــا … من ملل دائم بهـــا ملل

أي أنها تمل كل دائم إلا مللها فإنه دائم وهي لا تمله مع دوامه . ف(ما) على هذا مفعول ب(ملولة) ، لأن فعولا عند صاحب الكتاب مما يتعدى .

ومن رواه (تدوم) جعل (ما) جحداً أي ما تثبت . دام الشيء ثبت حكي سيبويه عن العرب : (ما يدوم لي أدوم لك) أي أدوم لك ما يدوم لي . وأراد : ما تدوم صلتها أو ما تدوم لخليل .

بصارمي مرتـــد ، بمخـــبرتي … مجتزيء بالظـــلام مشتمـــل

أي لا صاحب لي في سفري إلا سيفي مرتدياً به ، ولا دليل لي إلا خبرتي بالفلاة ، ولا مانع لي من الأعداء سوى الليل الذي يسترني عنهم .

وقوله (بمخبرتي مجتزىء) كقوله :

ذراني والفـــلاة بـــلا دليـــل … ووجهي والهجير بـــلا لثـــام

ورفع ذلك كله بإضمار مبتدأ أي أنا مرتد ، مجتزيء ، مشتمل .

أصبح مالا كماله لـــذوي الـــ … ـحاجة لا يبتـــدي ولا يُسَل

أي يصرفه على احتكامنا واقتراحنا كما يصرف ماله . فلا هو يبتدئنا بالعطاء ، ولا نحن نسأله . أي فكما أنا لا نستأذن ماله ، بل نأخذه محكتمين ، كذلك لا نستأذن بدراً في أخذ ماله ، فقد استوى هو وماله في أنهما لا يستأذنان ، ولذلك قالت العرب :

ما هو إلا هشيمة كرم أي يأخذه الوارد كيف شاء لا يعسر عليه منه شيء، كما أن الهشيمة وهي العود اليابس لا تتعذر على محتطبها ولا تحوجه إلى تعب في تناولها .

إن أدبرت قلت لا تليل لها أو أقبلت قلت : مالها كفل

التليل : العنق وما يليها من الصدر : أي صدرها المقبل يحجز عن كفلها ، وكفلها المدبر يحجز عن صدرها ، فأنت من حيث تأملتها رأيتها مشرقة . والمستحب من الفرس أن تهتز مقبلة وتنصب مدبرة ، فباهتزازها مقبلة .. يخفي الكفل لإشراف التليل ، وبانصبابها يخفى التليل لإشراف الكفل .

أنت نقيض اسمه إذا اختلفت قواضب الهند والقنا الذبل

جعل اسمه – وهو بدر – دالا على صورته وطبيعته ، وذلك أن البدر إنما يسمي به القمر إذا قابل الشمس فامتلأ نوراً ، وهو مع ذلك سعد لانحس . يقول : فأنت خلاف هذا الاسم أي خلاف طبيعة المسمي بهذا الاسم في الحرب ، لأنك في السلم طلق نير ، وحظك السعادة ، وتلك طبيعة البدور . وفي الحوب عبوس مهلل وتلك طبيعة زحل ، فأنت في الحرب على غير ما أنت به في السلم طبيعة ، فقد وجب لاسمك في الحرب أن يكون غير اسمك في السلم وقال : أنت نقيض اسمه ، ولم يقل ضد اسمه ، لأن النقيض أشد مباينة لنقيضه من الضد لضده .

أنت لعمري البدر المنير ولكن لك في حومة الوغي زحل

أي أنك سعد في السلم وشيمتك في الحرب ضد ذلك ، وليس بالبدر ولا بزحل في الحقيقة ، إنما عنى بالبدر أنه مسعد وبزحل : أنه منحس، والمنير هنا مفيد ، لأن البدر قد يلبسه الغيم فلا ينير .

مددت في راحة الطبيب يدا   وما درى كيف يقطع الأمل

أي كفك مجتمع الآمال قد اتصلت بها كأن عروقها قد صارت آمالا . والطبيب لا معرفة له بصنع الآمال ولا بمعاناتها ، إنما يعاني الأبدان فلا تلحقنه ملاماً ، لأنك كلفته (معاناته) ومالا يحسن ، والإنسان إنما يلام على تقصيره فيما يعزي إليه علمه . فإن قصر فيما ليس من علمه فغير ملوم . وقوله (كيف يقطع الأمل) لم يرد القطع المفسد ، وإنما أراد : كيف يقطع الأمل للاصلاح[1] .

هنا من الحداثة التي سبق بها ابن سيده عصره تلك المسافة النفسانية أو البعد النفساني بالقياس إلى المسافة الأرضية والبعد المكاني . ومن النقد الأدبي تلك الموازنة بين بيتي المتنبي والحكم بأن بيت النموذج أحسن لأنه انتظم قضيتين كل واحدة منهما مستغنية بذاتها مع قصر عروضه » ونلاحظ أن التخلخل بين البيتين الثالث والرابع من النموذج وهما البيتان ٨ ، ١٢ في القصيدة فقد أحدث بينهما فجوة واسعة في المعنى حالت بيننا وبين الاسترسال في الفهم فقد انتقل السياق الحادث بنا فجأة من قمة فخر المتنبي بنفسه إلى قمة مدحه وتلك جناية التخلخل . وهذه المراوحة بين التليل والكفل ذهاباً وجيئة لا تقل في روعتها وجمالها وحنكتها عند ابن سيده في النثر عما هي عليه عند المتنبي في الشعر . وإذا كان البيتان ٦ ، ٧ من النموذج يدلان على ثقافة فلكية عند المتنبي ، فإن ابن سيده قد طور هذه الثقافة الفلكية إلى (علم فلك) في الشرح وقد ختم النموذج بسبب النزول ، وهو مناسبة الشعر ، ثم فلسف ذلك وعلله واحتاط بأن شق الجلد للإصلاح لا للإفساد ، ولا لمجرد القطع .

(١) شرح العكبري ج ٣ ص ٢٠٩ ، وشرح مشكل شعر المتنبى ص ١٠٢ - ١٠٥

النموذج الذي نحن بصدده من قصيدة قالها المتنبي في مدح سيف الدولة سنة ٣٣٩ هـ ومطلعها :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلو جبنوا أو حدثوا شجعوا

وقد قدم الواحدي لها هكذا : وقال يمدحه ويذكر الواقعة التي نكب فيها المسلمون بالقرب من بحيرة الحدث ، ويصف الحال شيئاً فشيئاً مفصلا . وأبيات النموذج ٥ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٥ والقصيدة كاملة تسعة وأربعون بيتاً . قال ابن سيده : وقال أيضاً :

أأطرح المجد عن كتفي وأطلبــه وأترك الغيث في غمدي وأنتجع

كنى بالمجد عن الرمح الذي يحمل على الكتف معتقلا ، لما كان المجد يكتسب به فهذا من باب الاستغناء عن ذكر السبب بذكر المسبب . وإن شئت قلت : جعل الرمح هو المجد مبالغة كقولهم ما زيد إلا أكل وشرب ، وإن شئت كان على الحذف ، أي ذا المجد وهو الرمح أيضاً لإدراك المجد به . وأطلبه : أي أطلب أثراً بعد عين . و (أترك الغيث في غمدي) — يعني السيف »الذي هو سبب خصب المعيشة ، وليس الغيث هنا ذات السيف ، وإنما عنى السيف ، وإن شئت قلت : جعله الغيث مبالغة إذ كان سبباً له . ثم قال : أأطلب الرزق على غير هذا الوجه الذي لا يكرم عيش ولا خصب إلا به ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم : الخير في السيف والخير مع السيف . وأصل الانتجاع : طلب الكلأ ، ثم صار كل طلب نجعة وحسن لفظ الانتجاع لتقدم ذكر الغيث .

ذم الدمستق عينيه وقد طلعت سود الغمام فظنوا أنها قــزع

أي غرت الدمستق عيناه ثم توهم جيش سيف الدولة قليلا ــ وهو كثير ــ فأقدم اغتراراً بما خيلته إليه عينه ، فذم عينيه ولا مهما إذ لم تخبراه باليقين فترياه الجيش على ما هو به من الكثرة ، لأنه لو صدقتاه لم يقدم . والقزع : قطع السحاب المتفرقة ، يقول : ظن الجيش قليلا كقزع السحاب وهو كسود الغمام ، وإنما شبهه بالغمام السود ، لأنه أهول منظراً ، ولأ ن فيه صواعق بلا غيث فهي أشبه بصفة الجيوش من جهة العاقبة واللون ، ألا تراهم قالوا : كتيبة جأواء وخضراء وخصيف ، وكل ذلك إلى السواد . فتلخيص البيت : ذم الدمستق عينيه حين أوهمتاه الجيش قليلا وهو كثير فأقدم ، وكان أذهب في الصنعة ــ لو اتزن دون زحاف ــ أن يقول بلفظ الإفراد ، ولكنه حمل الضمير عليه وعلى من حوله .

كأنمـــا تتلقـاهم لتسلكهم فالطعن يفتح في الأجواف ماتسع

أي كأن خيله تريد سلوك عداه ، كما يسلك السهم الرمية ثم يمرق ، الطعن يفتح في أجوافهم ما تسع الخيل،إشادة بالطعن وتشيعاً له ، كقول لحطيم يصف الطعنة :

ملكت بها كفي فأنهرت فتقها يرى قائم من خلفها ما وراءها

وأراد ما تسع الخيل فحذف المفعول لتقدم ذكر الخيل .

يهز السهام ودون الفر طافحةً على نفوسهم المقْوَرَّةُ المــزعُ

أي قد تغشتهم الخيل حتى صارت أقرب إليهم من السهام التي فيهم ، مبالغة وليس بحقيقة ، لأن السهام التي فيهم أقرب إليهم من الخيل التي عليهم ،

و (دون الفر) أي أن الخيل تمنعهم الفرار ، وقال (على نفوسهم) ولم يقل (على أبدانهم) لأن نفوسهم قد فاضت على أبدانهم ، فكأن الخيل عليها دون أبدانهم . وقيل معناه أن هذه الخيل تسبق السهام وتفوت حتى تغني عن الفر . ويروى : دون السهام ودون الفر ، فتكون المقورة على هذا الدروع التي قد أخلقها التداول حتى عادت كالمقورة من الخيل وهي الضامرة المتجردة .

و (المزع) : على هذا ـ التي قد تمزعت أشلاؤها أي تمزقت ، كما يتمزع اللحم الذي يتبدد ، فيكون المعنى : أنه لاتقيهم الكسا حراً ولا برداً ، ولكن هذه الدروع المقورة . والرواية الأولى أصح .

إذا دعا العلج علجا حال بينهما أظمى تفارق منه أختها الضلع

رمح أظمي أسمر ، وقيل : ظمآن إلى الدم ، والأول أولى . إذ لو كان من الظمأ لكان حريا أن يسمع مهموزاً ولم أسمعه كذلك ، إلا أن مثل هذا الإبدال قد يجوز في الضرورة كقولهم (لا هناك المرتع) ولا حاجة بنا إلى توجيه ذلك هنا ، إذ المشهور في كتب اللغة أن الأظمي : الأسمر . يقول : إذا تداعي العلجان لتناذر أو تشاور أو تناصر حال بينهما رمح أظمى يدخل بين الضلعين فيفرج بينهما حتى تفرقا . و(منه) أي من أجله ، وحسن ذلك المفارقة هنا لقوله : حال بينهما ، وكان من حسن الصنعة ـ لو اتزن له ـ أن يقول : إذا دعا العلج صاحبه ليوازي به قوله (أختها الضلع) لأن الاخوة والصحبة من باب المضاف ولكنه ذلك أراد كأنه قال : إذا دعا العلج صاحبه أو أخاه .

كم من حشاشة بطريق تضمنها للباترات أمــين مالــه ورع

الحشاشة : النفس . وقيل بقيتها ، والباترات : السيوف القاطعة ، والأمين هنا : القيد ونفي الورع عنه ، إغراباً بأمين لا ورع له ، وإنما سماه أميناً لحفظه على السيف ما استودع إياه من الأساري حتى يردهم إليه عند القتل ، فهو أمين لذلك وليس له ورع ، لأن الورع إنما يكون لذي العقل ، ولذلك أمانته غير حقيقية ، ولو كان أميناً عاقلا لكان ورعاً ، إذ لا أمانة إلا بورع .

يقاتل الخطــو عنه حين يطلبه ويطرد النوم عنه حين يضطجع

أي تقصر خطا هذا الأسير بضيق القيد إذا أراد أن يخطو ، ويطرد النوم عنه ترنم حلقه كقول أبي نواس :

إذا قام غنته على الساق حلقــة لها خطوه عنــد القيام قصير

* * *

قل للدمستق إن المسلمين لكم خانوا الأمير فجازاهم بما صنعوا

خيانتهم إياه : خلافهم له بسعيهم إلى النهب واستلاب العدو المسرعين ، وإسلامه إياهم له : تركه الطلب بثأرهم ، أو رضاه لهم ما حل بهم .

وجدتموهم نياماً في دمائكم كأن قتلاكم إياهم فجعــوا

أي خافوكم فألقوا نفوسهم في دماء قتلاكم لتحسبوهم منهم فتتجافوا عنهم وكأنهم هم المفجعون بقتلاكم ، يلقون أنفسهم عليهم كإلقاء المفجوع نفسه على القتيل تأسفاً ، وقيل : ــ كان المسلمون يأتون قتلى الروم يتخللونهم فينظرون من به رمق فيقتلونه ، فبينما هم كذلك أكب عليهم المشركون فقتلوهم .

تشقكم بفتاها كل سلهبــــة والضرب يأخذ منكم فوق ما يدع

بفتاها : بفارسها ، ذهب في لفظ الفتى إلى الرفع من شأن الفارس كقولهم : أنت الفتى كل الفتى ، لا يذهب به إلى فتاء السن ، ولكنه كقولك : أنت الرجل . تمدحه بالصبر والثبات لا تعني به الرجولة التي هي الذكورية .
(والضرب يأخذ منكم فوق ما يدع) . ذهب قوم إلى أنه عنى أن القتلى أكثر من الناجين ، وهو لعمري قويل ، والذي عندي أنه لم يعن بذلك الكم ، وإنما عنى أن الضرب يأخذ النفوس ويدع الأبدان . والنفس فوق الجسم في لطف الجوهر وشرف العنصر ، فهذا معنى قوله (فوق ما يدع) لا الكمية التي ذهب إليها أولا[1] .

* * *

تطالعنا البلاغة في هذا النموذج من أول كلمة فيه والصورة المنوه بها هي الكناية هكذا قال . لكنه لما شرح اتضح أنها مجاز مرسل علاقته المسببيه ، وقد أوشك أن يسميه ، ويجد النقد الأدبي ما يقوله فيما دعاه ابن سيده بالمبالغة . وقد تشبث بها أكثر من مرة في هذا النموذج . والنقد التطبيقي متحقق في تبرير حسن لفظ الانتجاع بتقدم ذكر الغيث ، وفيما تمناه الشارح – وكان أذهب في الصنعة لو اتزن دون زحاف – أن يكون المتنبي قد قال (فظن) بلفظ الافراد ، لأنه أخبر عن الدمستق . وفي الإغراب بأمين ماله ورع . ويبلغ ابن سيده قمته في النقد ، وفي خفة الظل ، وفي الفهم الحضاري ، وفي أدب الجدل ، وهو يصافح النموذج مودعاً عند الشطرة الأخيرة منه فيقول : – ذهب قوم إلى أنه عنى أن القتلى أكثر من الناجين ، وهو لعمري قويل ، والذي عندي أنه لم يعن بذلك الكم ، وإنما عنى أن الضرب يأخذ

(١) شرح العكبري جـ ٢ ص ٢٢١ وشرح ابن سيده ص ١٧٤ – ١٧٧ .

النفوس ، ويدع الأبدان ، والنفس فوق الجسم في لطف الجوهر وشرف العنصر ، فهذا معنى (فوق ما يدع) . لا الكمية التي ذهب إليها أولا .

ودرءاً لمضرة التخلخل نقول : إن فاعل تتلقاهم في البيت الثالث من النموذج ضمير يعود : على الجياد التي حوليهًا جذع والتي :

يذري اللُّقان غبارا في مناخرها وفي مناجرها من آلسٍ جُرع

ونجد في البيتين الثامن والتاسع من النموذج مالا نجده في كتب التاريخ المجملة أو المفصلة إذ يعاني المؤرخ المحترف مالا يعانيه الشاعر الذي لا يخضع شعره لما تخضع له كتب التاريخ من رتابة ، وربما رقابة . ويتعدد الشرح بتعدد الروايات ، والرواية الأولى هي الأصح وبناء عليه يكون الشرح الأول هو الأفضل .

— ٦ —

مطلع هذا النموذج هو مطلع قصيدة قالها المتنبي في مدح سيف الدولة وفي وصف جيشه بميافارقين سنة ٣٣٨ هـ . وأبيات النموذج في القصيدة هي الأبيات ١ ، ٥ ، ٧ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٨ ، ٣٠ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٠

قال ابن سيده : وله أيضاً :

إذا كان مدح فالنسيب المقـــدم أكلُّ فصيح قال شعرا متيم

من شأن الشعراء إذا أرادوا المدح أن يقدموا النسيب ، هذا هو الأغلب حتى سموا الشعر الذي لا يصدر بالنسيب خصياً ، حكي هذا عن أبي زيد . فالمتنبي قد خرق في هذا الشعر عادتهم ، وأنكرها عليهم ، وجعل ابتداء شعره مدح سيف الدولة . ثم قال : — (أكل فصيح قال شعراً متيم) هذا في

اللفظ إنكار ظاهره استخبار ، وهو في الحقيقة خبر منفي . أي ليس كل فصيح شاعراً متيما فيلزمه النسيب إذا مدح .

فجاز له حتى على الشمس حكمه وبان له حتى على البــدر ميسم

أي إذا سار أثار الغبار فحكم على الشمس بالاسوداد – وهو ضد لونها – وإذا سار ضاعف الغبار ، وكلف البدر ، والميسم على هذا القول من الوسم الذي هو العلامة بالنار والقطع وليس بآلة هنا ، إذ لا معنى لذلك . وقيل : الميسم هنا : الحسن أي فاق البدر في الحسن،والأول أولى . وتقدير البيت : فجاز له حكم على كل شيء حتى على الشمس ، وبان له وسم على كل شيء حتى على البدر . وينبغي أن يكون الفعل منوياً مع (حتى) كأنه قال : حتى جاز على الشمس ، أي (إلى أن) ولا تكون (حتى) هنا حرف غاية وتكون داخلة على (على) لأن (حتى) و (على) حرفان ، ولا يدخل حرف على حرف . فلابد من تقدير (حتى) بـ (إلى أن) ، وإذا قدرتها بـ(إلى أن) فقد حصل الفعل ، لأن (أن) لابد لها من الفعل .

ولاكتب إلا المشرفيــة والقنــا ولارسل إلا الخميس العرمرم

أي الذي يقوم له مقام الكتب إنما هو السيوف ، والذي يقوم له مقام الرسل إنما هو الجيش العظيم يهديه إلى عدوه وإنما نفي عنه الاخلاد إلى الكتب والرسل ، لأن ذلك تأن وأخذ بالهوينى .

يطأن من الأبطال من لا حملنه ومن قِصَد المرّان مالا يقــوم

القِصَد: كِسرُ الرماح واحدتها قصدة، والمران: وشيج الرماح إذا لان وتحلق من المرانة وهي اللين ، ألا تراهم قالوا في هذا المعنى : رمح لدن ، واللدونة : اللين ، ومن هنا زعم سيبويه أنك إذا سميت بمران صرفته

لتصوره معنى اللين فيه . ومعنى البيت أن خيله يطأن من أعدائه من لم يحملنه ، فوضع الماضي موضع المستقبل وإنما توضع الأفعال بعضها موضع بعض في غالب الأمر مع الحروف ، نحو قولك إن فعلت فعلت أي إن تفعل أفعل ، وقولك والله لافعلت ، تريد لا أفعل، و (من قصد المران مالا يقوم) أي قد بالغت في تحطيم الرماح وتعويجها حتى ليس في الإمكان أن يجبر كسرها ، ولا أن يقوم منآدها . وقيل : (من لا حملنه) : دعاء للمدوح أي لا غلبت عداه حزبه فيملكوا خيلهم ، والأول عندي أولى لقوله (ومن قصد المران مالا يقوم) فهذا خبر ، إلا أن تضع (يقوم) موضع (قوم) فيتوجه معنى الدعاء ، وقد يجيء لفظ الدعاء مساوياً للفظ الخبر كما يكون ذلك في الأمر والنهي كقول الشاعر .

كملقي عقال أو كمهلك مالك ... وليس لحي هالك بوصيـــــل

وقال الهذلي :

ليس لميت بوصيل وقـــــد ... علق فيـــه طرف الموصـــل

فمعنى هذا كله : ولا وصل هذا الحي هذا الهالك ، وهذا دعاء ، وقد خرج على لفظ الخبر ومثله كثير .

يقر له بالفضل من لا يـــوده ... ويقضي له بالسعـــد من لا ينجم

أي أن فضله ذائع شائع يضطر عداه إلى الإقرار به. له تنكباً لخرق الإجماع ، وعلماً منهم أنهم إن أنكروا لم يقبل ذلك منهم ، وكان دليلا على تعسفهم كقول البحتري :

لا أدعي لأبي العلاء فضيـــلة ... حتى يسلمها إليـــه عـــداه

(ويقضي له بالسعد من لا ينجم) أي قد عهد سعيداً ميموناً مدركاً لكل من طلب ، فيقاس بماضي أفعاله وحاضرها على مستقبلها .

أجار على الأيام حتّى ظنته تطالبــــه بالرد عــاد وجرهم

أجار على الأيام : حمي ومنع ، وجعل نفسه ملاذاً للناس منها حتى ظننت أن الغابرين من الأمم ستطالبه بأن يردها إلى الحياة ، وأن يعديها على الأيام التي تحيفتها وأهلكتها وخص عادا وجرهما لقدمهما ، وإن شئت قلت لعظمهما .

كأجناسها راياتها وشعارهــا وما لبستــه والســلاح المصمم

عسكر العرب قبيلة واحدة ، فخيله وسلاحه وملبوسه كله عربي ، وإنما مدح عسكره بذلك لأن الجيش إذا كان من قبيلة واحدة كان أشد لبأسها .

هذا قول أبي الفتح : والذي نؤثره نحن أن عسكر العرب إنما هو كما قال ، ألا ترى أن النابغة قد قال :

وثقت له بالنصر إذ قيل قــد غزت كتائب من غسان غير أشائب

وهي التي تسمي الجمرة . ومنه قول الحطيئة لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين كنا ألف فارس ذهبة حمراء أي لم يختلط بنا أحد . فهكذا عسكر العرب ، فأما عساكر الملوك ، فكلما تنوعت أجنادها كان أعظم لملكها وأقدر لملكها ، لأنه متى تغيرت حرب ما قوم بحرب آخر ؟ فيقول : إن أجناس هذا الملك كثيرة مختلفة بالنوعية ، فينبغي أن تختلف أيضاً أعلامها وبزتها وسلاحها، لكل من أنواع الخميس زى يخالفه زي صاحبه كقوله هو يصف عسكراً :

تجمع فيــه كل لسن وفرقــة فما تسمع الأحداث إلا التراجم

وتقدير البيت : راياتها وشعارها وسلاحها كأجناسها ، أي أن هذه المحمولات كلها متنوعة في ذاتها ، كما أن الحاملين لها متنوعين . والتنوع الذي ذكرناه في هذا البيت إنما هو تنوع بالنسب ، وتنوع بالصورة ، لا تنوع بالفضول الذاتية ، ولو قال هو كأنواعها لكان أشبه ، ولكنه آثر كلام الجمهور :

بغرته في الحرب والسلم والحجا وبذل اللها والحمد والمجد معلم

أي أنه معلم بغرته في هذه الفضائل ، كلها مطروز بها ، ذهب إلى شهرته وجهرته .

ضلالا لهذي الريح ماذا تريده وهديا لهذا السيل ماذا يؤمم

دعا على الريح لأنها عارضت سيف الدولة فآذت ، ودعا للغيث لمشاكلته إياه في طبيعة الجود .

تلاك وبعض الغيث يتبع بعضه من الشام يتلو الحاذق المتعلم

تلاك يعني الغيث ، ويخاطب الملك ، وكان الغيث قد صحبه من الشام إلى ميافارقين (وبعض الغيث يتبع بعضه) أي أنك غيث فلا تلم الغيث في اتباعه إياك ، لأن بعض الغيث يتبع بعضاً و(من الشام) متعلق بـ (تلاك) أي تلاك هذا الغيث من الشام . (ويتلو الحاذق المتعلم) إما أن يكون هذا على المثل فيكون (الحاذق) و (المتعلم) نوعين أي كل حاذق يتلوه متعلمه من أي الطبقات كان ، فهذا وجه المثل الكلي ، وإما أن يعني بالحاذق سيف الدولة وبالمتعلم الغيث ، أي سيف الدولة هو الحاذق بسلوك طريقة الجود والغيث متعلم منه ، فهو يتبعه لذلك . ولو اتزن له أن يقول : يتلو المتعلم المعلم لكان حسناً لمقابلة الفاعل بالمنفعل ، ولكن في (الحاذق) مزية ، إذ ليس كل معلم حاذقاً .

ألم يسأل الوبل الذي رام ثنينا   فيخبره عنك الحديد المثلم

أي ألم يسأل الوبل الذي أراد صرفنا عن وجهنا الحديد المثلم فيخبره عنك أنه لم يجد فيك مطمعاً ، ولا لصرفك موضعاً ، فكيف يروم الغيث من كفك وصرفك ما عجز عنه الحديد الذي هو أقدر على ذاك منه . فالعامل في هذا البيت الفعل الآخر الذي هو (فيخبره) وهذا كقولك : ضربت وضربني زيد ، أي ضربت زيداً ، وضربني زيد . فحذف الأول لدلالة الثاني عليه ، وقد أبان سيبويه ذلك وقال : إنه كلام العرب أو أكثر كلامها ، يعني إعمال الثاني ، ولو أُعمل الأول لقال : الحديدَ المثلمَ ، ويضمر في (يخبر) كأنه قال : ألم يسأل الوبل الحديد المثلم فيخبره وهو كقولك ضربت زيداً وضربني[1] .

بدأ ابن سيده منهجياً ، فتكلم عن نظام القصيدة ، وعما جرت عادة العرب به من تقديم النسيب بين يدي المدح ، وسجل أن المتنبي ، قد خرق في هذا الشعر عادتهم ، وقد رفض أن يكون (الميسم) في البيت الثاني آلة ، مكتفياً في الرد على صاحب هذا الرأي بأنه لا موضع له هنا بهذا المعنى . وهو يتكلم في النحو بفهم ، بل بعمق في الفهم ، وقد أتى سيبويه من فوقه بقوله : ومن هنا زعم سيبويه أنك إذا سميت بـ (مران) صرفته . وفاعل (يطأن) في صدر البيت الرابع نون النسوة ، وهي تعود على (نجوم) في البيت الذي قبله في القصيدة وغير الوارد في النموذج وهو :

تبارى نجوم القذف في كل ليلة   نجوم له منهن ورد وأدهم

---

(١) شرح العكبري ج ٣ ص ٣٥٠ وابن سيده ص ٢٠٧ – ٢١٢ .

وقد عاد الضمير عليها في : كأجناسها راياتها وشعارها وما لبسته ...
وهو يورد كلام ابن جني مطلقاً ثم يقيده ، أي أنه يسلم له ما قاله جزئياً .
ومن عمق العمق في المعاني الفلسفية جعله التنوع مرة بالنسب ومرة بالصورة ومرة بالفصول الذاتية .

وقد حصل ارتباك كبير بسبب تقديم البيت (تلاك ...)

وهو رقم ٢٣ في القصيدة على البيت : (ولم يسأل الوبل ...)

وهو رقم ٢٠ بها ومعلوم أن فاعل (تلاك) وهو البيت رقم ١٠ في النموذج هو (الوبل) الموجود في البيت ١١ بعده . ونرى النقد الأدبي في المثل الكلي ، وفي « ولو اتزن له أن يقول : يتلو المتعلم المعلم لكان حسناً لمقابلة الفاعل بالمنفعل ، ولكن في (الحاذق) مزية ، إذ ليس كل معلم حاذقاً » .

— ٧ —

هذا النموذج من قصيدة في مدح سيف الدولة مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وأبيات النموذج فيها هي الأبيات : ٥ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١٥ ، ٢١ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

قال ابن سيده : — وله أيضاً :

تفدى أتم الطير عمرا سلاحه نسور الفلا أحداثه والقشاعم

أتم : هنا بمعنى أطول ، وإنما جاز ذلك لأن التمام في باب (كيف) نظير الطول في باب (كم) وإنما المستعمل في العمر أطول ، فلم تتزن له ،

ونحوه قول رؤبة : «كالكرم إذ نادى من الكافور » . وإنما المعروف صاح الكرم وسائر الشجر إذا بدا ثمره ، إلا أنه لو قال : صاح الكرم لكان في الجزء طي ، وهو ذهاب فاء مستفعلن ، فاستوحش من الطي ، فوضع نادى مكان صاح ليسلم الجزء . والمتنبي أعذر ، لأنه لو قال : أطول لانكسر البيت . ورؤبة لو قال (صاح من الكافور) لم ينكسر البيت إنما كان يلحقه الزحاف الذي وصفناه . وقال : تفدى : فأنث الفعل ، وإن كان للأتم ، والأتم مذكر حملا على المعنى لأن الأتم هو النسور في الحقيقة ، ونظيره قول بعض العرب (فلان لعوب جاءته كتابي فاحتقرها) أنث الكتاب لما كان في معنى الصحيفة ، ونسور الفلا : بدل من أتم الطير ، و (أحداثها والقشاعم) بدل من النسور ، وكلاهما بدل بيان . يقول : أوسعت سلاحه النسورشبعاً من لحوم القتلى قديماً وحديثاً ، لأن قشاعمها – وهي المسنات – تشكر القديم ، وأحداثها تشكر الحديث لأنها متأخرة الكون عن زمن القديم ، فكلا النوعين يشكر سلاح هذا الملك ويفديه ، أي يقولان نحن الفداء لسلاحه ، واستعار الأحداث للنسور ، وإنما هو في نوع الإنسان . ومثل هذه الاستعارة كثير .

هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أي الساقيين الغمائم

الحدث : حصن معروف ، وأنثه على معنى القلعة أو المدينة ، وجعلها حمراء ، لما سال عليها من الدماء ، وكانت غير حمراء . يقول : فهل تعرف الآن لونها القديم الذي بدلت منه الحمرة ، وإن شئت قلت : هل تعرف الآن أنها حمراء أم تنكر ذلك ؟

وقيل : جعلها حمراء ، لأن سيف الدولة بناها بحجر أحمر ولم تك قبل ذلك كذلك يقول : فهل تعرف هذه القلعة أن بناءها الحديث غير بنائها القديم ؟!!

وكذلك بلت هذه السيوف هذه المدينة بالدم كما يبل السحاب الأرض بالمطر ، فهل تعرف أن الغمام سقاها الآن أم السيوف . وقد بين ذلك بقوله بعد هذا :

سقتها الغمام الغر قبل نزوله فلما دنا منها سقتها الصوارم

أي سقاها السحاب قبل نزول سيف الدولة ، فلما دنا منها قتل من كان بها من الروم فسقتها السيوف بدمائهم .

وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمائم

التمائم : العوذ . وهي تناط بمن كان به مرض أو جنون أو سحر ، فيقول : كانت هذه القلعة مضطربة غير مطمئنة ولا مستقرة بمن غلب عليها من الروم حتى كان بها من ذلك مثل الجنون ، لأن الجنون يخالطه اضطراب ، وقلة ثبات ، ولذلك قيل له : الأولق ، لأن الولق سرعة الطعن والمشي ، وهذا فيمن أخذه من ذلك فجعله أفعل ، فأما سيبويه فهو عنده (فوعل) بدليل مألوق . فلما وردها سيف الدولة فقتل من تغلب عليها استقرت واطمأنت ، فكأن جثث القتلى عليها تمائم أوجبت لها الاستقرار والطمأنينة .

وقد حاكموها والمنايا حواكم فما مات مظلوم ولا عاش ظالم

أثبت حكماً من حيث أثبت ظلماً ، لأن الظلم جور ، والجور نوع من الحكم ضد العدل فحاكموا هذه القلعة ، والسيوف حواكم ، أي هن ذوات الحكم على المتحاكمين عليها . وكان الظلم من قبل الروم لهذه المدينة بهدمهم إياها ، وإخلائهم لها ، فلما كان الحكم للسيوف مات الظلم بقتل هؤلاء الروم الظالمين .

(فما مات مظلوم) يعني القلعة أي لم يعف أثرها ، بل جدد بناؤها

وزيدت تحصيناً (ولا عاش ظالم) أي لم يعش الروم الذين هدموها بل قتلهم سيف الدولة .

تقطع مالا يقطع الدرع والقنا وفر من الأبطال من لا يصادم

أي ما كان من السيوف قاطعاً للدرع وللابسها بقي ، وما لم يبلغ من الشدة والحدة أن يقطعها تقطع وفني ، وذلك اشدة ماكان هنالك من الضرب . ومن كان من الفرسان غير مزاحم ولا مصادم لم يثبت . يذهب في كل ذلك إلى أنه لم يبق إلا الجيد الصابر على الكفاح من الرجال والسلاح ألا تراه يقول :

ولله وقت ذوب الغش نـــاره فلم يبق إلا صارم أو ضبارم

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى إلى قول قوم : أنت بالغيب عالم

أي أن أناساً من الحذاق لما رأوا إقدامك وإعمالك رمحك وحسامك ينتجان لك سلامة الحوباء . والظفر أبداً بالأعداء . قالوا : إأنه لا يقتحم ذلك إلا بعدما ظل عالماً أنه لا يؤوب إلا سالماً غانماً . فحصلت عندهم بذلك عالم غيب منتقيا للعواقب غير ذي ريب . وهذا أرفع منه منزلة الشجاعة والتدبير .

تظن بنات الفتخ أنـــك زرتهـــا بأماتها وهي العتـــاق الصـــلادم

أي أن خيلك صعدت الجبال حتى انتهت إلى أعاليها . وهناك وكور العقبان ، فلما أشرفت على تلك الوكور جمجمتْ – والحمجمة تشبه صرصرة عتاق الخيل – ظنتها فراخ العقبان أماتها . ومما يدلك على أن الحمجمة تشبه الصرصرة قول الشاعر .

إذا الخيل صاحت صياح النســـور هزرنا شراسفها بالجـــذم

وعنى بالفتخ : العقبان . أقام الصفة مقام الموصوف ، لأنها صفة غالبة

تقوم مقام الاسم ، وإنما سميت العقاب فتخاً للين جناحها . والفتخ : اللين ، والصلادم : شداد الخيل واحدها صلدم وصلدمة .

أفي كل يوم ذا الدمستق مقـــدم   قفاه على الإقدام للوجـــه لائم

أي إن هذا الدمستق في كل يوم يقدم فينهزم ، ويحجم فيسلم وجهه ويضرب قفاه فالقفا يلوم الوجه على الاقدام ، يقول له : كم تتوجه إلى من علمت أنه لك هازم ، فتسلم أنت ويهون عليك ما ألقاه إذا سلمت أنت . أراد : قفاه لائم لوجهه على الاقدام فقال (الوجه) لأن إضافة القفا يشعر أنه لا يعني من الوجوه إلا وجهه .

بضرب أتى الهامات والنصر غائب   وصار إلى اللبات والنصر قادم

أي إن الضرب إذا قرع الهام لم تعتدده نصرة ، إذ في الإمكان أن يموت صاحبها وألا يموت فإذا وصل من الهامة إلى اللبة هلك لا محالة ، فحينئذ يعتد بالنصر وضرب الغيب مثلا للشك في النصر ، والقدوم للتيقن . وكذلك الغائب مشكوك فيه والحاضر متيقن .

حقرت الردينيات حتى طرحتها   وحتى كأن السيف للرمح شاتم

الردينيات : الرماح ، منسوبة إلى امرأة تسمي ردينة ، كانت تركب فيها الأسنة يقول : إنما أحببت لقاء العدو على قرب ، معانقة ومصافحة لجرأتك وشجاعتك ولم ترض أن تستعمل في قتاله الرمح ، لأن ذلك مشعر بالجبن ، لأن القتال به إنما هو على بعد فاطرحته واستعملت السيف مكانه ، قال : وحتى كأن السيف للرمح شاتم . أي لكأنك قد رأيت السيف قد عير الرمح بالضعف والتقصف وقلة الغناء ، فهان عليك الرمح لذلك ألا تراه يقول بعد هذا :

ومن طلب الفتح الجليل فإنما مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

ومن كلام العرب : (الرمح أخوك وربما خانك) وقال عمرو بن معد يكرب في السيف :

خليلي لم أخنـــه ولم يخني على الصمصامة السيف السلام(1)

* * *

في هذا النموذج من الفلسفة والمنطق أن (التمام) في باب (كيف) نظير (الطول) في باب (كم) . وفيه من العروض أن (أطول) لم تتزن للمتنبي ، كما لم تتزن (صاح) لرؤبة والمتنبي أعذر ، لأنه لو قال (أطول) لانكسر البيت ، ولو قال رؤبة (صاح) لكان في الجزء طي وهو ذهاب فاء مستفعلن ، وفيه من اللغة جواز تأنيث (الأتم) حملا على المعنى وتذكيره حملا على اللفظ . وفيه من روح المعلم غير الواثق بتلاميذه هذا الإلحاح الشديد على ترسيخ ما يريد في أذهانهم وانظر قوله : – فكلا النوعين يشكر سلاح هذا الملك ويفديه أي يقولون نحن الفداء لسلاحه . وفيه من البلاغة أنه استعار الأحداث للنسور ، وإنما هي في نوع الإنسان . ومثل هذه الاستعارة كثير . وفيه تداخل معجمه اللغوي ومعجمه الأدبي ، ربما ليحصل على سجعة أهون بها في سبيل الوضوح قال : « ولما رأوا إقدامك ، وإعمالك رمحك ، وحسامك ، ينتجان لك سلامة الحوباء والظفر بالأعداء » ، والحوباء هي النفس . وفيه أنه لم يلتفت إلى الفنية المتبدية في (أفي كل يوم ذا الدمستق مقدم) ولم يبرز (الكاريكاتير) الذي رسمه المتنبي في (قفاه على الإقدام للوجه لائم) . كما لم يبرز المعنى الحكمي في البيت الأخير ، لأنه غير مقصود لذاته ، بل

(1) شرح العكبري ج ٣ ص ٣٧٨ وشرح ابن سيده ص ٢٤٠ – ٢٤٤ .

لتأكيد معنى البيت الذي قبله ، ولأنه بيت واضح وتوضيح الواضح صعب .

— ٨ —

ثامن النماذج هذا من قصيدة مشهورة قالها المتنبي في مدح أبي الفضل ابن العميد ومطلعها :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجرد معك أو جرى

وأبيات النموذج منها هي الأبيات : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، وشرح ابن سيده لهذا النموذج قطعة أدبية بالغة الفنية قال : وله أيضاً :

تعس المهارى غير مهري غدا بمصور لبس الحرير مصورا

(تعس المهارى) دعاء على نوع المهارى وهي إبل منسوبة إلى مهرة ابن حيدان ، وإنما دعا عليهن ، لأنهن جند البين ، ومقطعة ما بين الحبيبين ، أي تعسهن الله فلا انتعشن ، ثم استثنى منها المهرى الذي ركبته محبوبته . وقد كان أولى أن يدعي عليه من سائر المهارى لانفراده بالحبيب وحمله إياه ، لكن استثناه لأنه يحمله فيقيه الرحلة وما يلحق معها من الكسل والكلل .

وقوله (بمصور) أي بستر رقم عليه صورة شخص قد لبس حريراً مصوراً ، ومن عادة عقائل العرب رقم الحجال كقوله :

كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم

وذلك أن حب الفنا أحمر ما لم يكسر ، فإذا كسر ذهبت حمرته ، وإن شئت قلت : (بمصور) يعني هَوْدَجاً عليه حرير مصور ، وإنما جعل الهودج مصوراً ، لأنه ذو شكل ، وكل شكل مصور .

نافست فيه صورة في سترها لو كنتها لخفيت حتّى يظهرا

كان دون هذا المحبوب ستر فيه صورة ، فيقول : حسدت هذه الصورة على قربها منه ، فلو كنت مكان الصورة ، أو كنت إياها لخفيت فزلت عن وجهه ليزول الستر فتظهر للعيون . فإن قلت : لا يلزم زوال الستر الحامل الصورة لمكان زوال الصورة ، لأن الصورة تخطيط موضوع فيه ، والتخطيط عرض . قلنا لو ارتفعت الصورة المنقشة في ذات الستر لارتفع الجوهر الحامل لها ، وإنما ارتفاع التخطيط عن المخطوط وبقاء الجوهر بعد ذلك متوهم لاموجود ، وإذا تأملت البيت فهو شعري لاحقيقي ، لأن من الصور الموضوعة في الثياب ما يمكن إزالته ومنها مالا يمكن . وأحسن ما في ذلك أن يقال : إن المتنبي عنى الصورة بالخرقة الحاملة لها .

لا تَربِ الأيدي المقيمة فوقـــه كسرى مقام الحاجبين وقيصرا

كِسْرى وكَسْرى: لغتان ، واختار ابن السكيت الكسر ، قالوا ترب الرجل : قل ماله وأترب كثر ماله . أي لا تفتقر الأيدي المصورة التي أتقنت هذه الصورة صنعاً ، وأجادتها وضعاً فأقامت كسرى وقيصر ملكي فارس والروم لها مقام الحاجبين فحجباها ، وإنما عنى بذلك صورتيهما لا ذواتهما ، لأن ذلك ليس في الإمكان إذ الصورة الصناعية لا تقبل طبيعة الحيوان .

ولو استطعت إذا اغتدت روادهم لمنعت كل سحابة أن تقطـــر

الرواد : منتجعو الكلأ ، وافتراق العرب من حلالها إنما هو للنجعة بهم ، يقدمون الرواد ليخبروهم بمواقع الماء في مواضع الكلأ والمثل (لا يكذب الرائد أهله) فإذا أخبرهم بوجود ذلك ظعنوا ، وإن أخبرهم بعدمه سكنوا فلم يظعنوا ، فإذن إنما سبب الفراق نزول المطر ، وظهور

الخضر ، فيقول : لوكان فيقولي أن تطيعني السحاب لنهيتهن عن المطر ، لئلا يجد رائدهم أرضاً مخصبة ، ولا روضة معشبة يدعوهم إليها ويدلهم عليها فلو كان ذلك من قوتي لم تفارقوني .

فإذا السحاب أخو غراب فراقهم جعل الصياح ببينهم أن يمطرا

هذا البيت تفسير للأول وهو عندي داخل في نوع التضمين ، وإن لم يكن منه في الحقيقة وذلك أنه محمول على المعنى ، أراد : لأني تأملت بينهم فوجدت إنما سببه هو النجعة وهو كقوله تعالى : « فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً » .

أي فضرب فانفجرت ، فكذلك أراد المتنبي : لأني تأملت فإذا الأمر كذا ، لأن المطر إذا وافي خرجوا في إثره منتجعين له ، فصار السحاب بمنزلة الغراب في أن أمطاره مشعرة بالبين كما أن صياح الغراب معلم بذلك عند العرب ، وجعلـه إذن غراب فراقهم ذهاباً إلى تشبيهه به لأن الأمرين في غالب الأمر متشابهان ، أي أقام السحاب الأمطار مقام صياح الغراب في الايذان بنواهم وبعد مثواهم و (جعل) ها هنا بمنزلة (صير) فهي متعدية إلى مفعولين كما أن صير كذلك ، وذكر السحاب لأنه مما ليس بينه وبين واحده إلا الهاء ، وسوغ التذكير في هذا الضرب من الجمع خروجه إلى شكل واحد .

يحملن مثل الروض إلا أنـه أسبي مهاة للقلوب وجُـؤْذرا

شبه ما على الهوادج من الحرير المزين والوشى الملون بالروض الذي سارت فيه إبلهم في تزاهي قواريره وتخايل أزاهيره ، والمها : وهي بقر الوحش عقائل الخمائل الأريضة ، والجفون المريضة كقول ابن مقبل يصف بقرة وحشية :

عقيلة رمل دافعت في حقوفه رخاخ الثرى والاقحوان المديما

فلما جعل الوشي ، وما على الهودج من صنوف الرقم بمنزلة الرياض ، جعل ما يستره من النساء بمنزلة المها والجآذر ، وذلك في النَجَل والكَحَل . ثم استثنى فقال : إلا أن ما على هذه الهوادج من هذه المها أسبى مهاة وجوْذرا للفوْاد من هذا الروض الباقي فكأنه قال في كل ذلك : سرن في الأرض بمثل نقوشه من رقوم الهوادج وحملن مثل وحشها من رباتها كقول البحتري :

لما مشين بذي الأراك تشابهت أعطاف أغصان به وقدود
في حلتي حبرْ وروض فالتقى وشيان وشي ربى ووشى برود

ومثله قوله أعني المتنبي أيضاً :

إذا سارت الاحداج فوق نباته تفاوح مسك الغانيات ونده

وأراد : أسبى مهاة للقلوب وجوْذرا منه ، فحذف (من) وهو كثير .

فبلحظها نكرت قناتي راحتي ضعفاً وأنكر خاتماي الخنصرا

أي بليت بعشقها حتى بليت ، فضعفت راحتي عن حمل قناتي ، فأنكرتها كأن القناة تقول : ـ ليست هذه اليد التي عهدتها ، ولا القوة التي شهدتها ، وكذلك دقت خنصري ورقت عن خاتمي حتى أنكرها لما رأى فيها من خلاف ما كانت عليه ، وأراد : وأنكر خاتمي ، فوضع الاثنين موضع الواحد كقول امريء القيس :

وعين لها حدرة بدرة شقت مآقيها من أخر

وهذا الضرب من الاتساع وعكسه كثير . ونكر وأنكر لغتان فصيحتان جمع بينهما في بيت واحد ، وهذا من غريب الصنعة الشعرية .

أُمِّي أبا الفضـــل المبرَّ أليّتي   لأيمنَّ أجلَّ بحـــر جوهرا

أي اقصدي أيتها الخيل أبا-الفضل الذي لما حلفت فقلت : لأيمن أجل بحر جوهرا والله أو غير ذلك من أنواع المقسم به ، ثم قصدته فوجدته أجل البحور جوهراً ، أبر بذلك يميني ، وقوله : (لأيممن أجل بحر) تفسير الألية ، فكأن هذه الجملة بدل من الألية .

أفتى برؤيته الأنام وحاش لي   من أن أكون مقصرا أو مُقْصِرا

أي لما حلفت لأيممن أسنى البحور جوهراً لم أعلم أي البحور هو ، وقد لزمتني الألية — فاستفتيت فقهاء الأنام ومتفلسفيهم فأفتوا به وقالوا إذا يممت أبا الفضل ابن العميد ، فقد بررت ، لأنه أجل بحر جوهراً . وجلالة الجوهر كناية عن جزالة العطاء ، ولو قال : أفتى بأمه الأنام فاتزن له لكان أشد مطابقة لما قبله ، ولكن لم يستقم فيه الوزن . وسوغ ذلك أنه إذا كانت رؤية فقد كان أم ، وهذا لا ينعكس لأنه قد يكون أم ولا رؤية .

خنَّثَ الفحولَ من الكماة بصبغه   ما يلبسون من الحديد معصفرا

خنث الفحول من الكماة : خنث الله الخنيث : خلقه خنثى ، وهو الذي لا يخلص إلى الاناثية ولا إلى الذكورية ، والمعصفر من زي الإناث وذوي الانخنات فيقول : صير الفحول من الكماة إناثاً بصبغه ما يلبسون من الدروع والجواشن والبيض بالدم فزياهم زي النساء ، وألحقهم بهن في الجبن بما ألقي في قلوبهم من الرعب .

فدعاك حسَّدُك الرئيس وأمسكوا   ودعاك خالقك الرئيس الأكبرا

خلفت صفاتُك في العيون كلامه   كالخط يملأ مسمعي من أبصرا

أي إن حسدك لم يجدوا بدأ من أن يدعوك رئيساً ، إذ لو جحدوا ذلك لما جومعوا عليه ولا طوو عوا بالإجابة إليه ، لكن لم يبلغوا الغاية في إنصافك ، حين لم يسموك الرئيس الأكبر وأنصفك خالقك فدعاك الرئيس الاكبر ، ثم أقام البرهان على هذه الدعوى الحقيقية فقال : لك صفات توجب لك أن تسمي الرئيس الأكبر ، فكأنها خط فيها حكاية قوله تعالى : إنك الرئيس الأكبر وإن كانت لا تسمع .

وترى الفضيلة لا ترد فضيلة الشمس تشرق والسحاب كنهورا

الكنهور : السحاب المتراكم . أنشد سيبويه : كنهور كان من أعقاب السمي ،وإشراق الشمس وتكاثف السحاب فضيلتان ضديتان ، والضدان مختلفان لا مؤتلفان ومعتقبان لا ملتقيان ، وهذا الممدوح قد جمع إشراق الشمس وتكاثف السحاب ، لأنه مستبشر الوجه جميله منتشر النيل جزيله ، فالإشراق بشره وجماله . والأمطار بره ونواله ، وهذا كقوله فيه :

وأحسن ذي وجه وأسمح ذى يد وأشجع ذي قلب وأرحم ذي كبد

فجعله حسناً سمحاً بهذا كوصفه إياه بالشمس والسحاب ، فيقول : ليت هذه الباكية التي أبكاها نواى عند وداعها إياي ، شهدت ما شهدته من هذه القضية فتعذرني فيما رأتني عليه من اجتماع النية ، وإزماع المطية إلى هذا الممدوح لمشاهدة ما فيه من الأمر العجيب والفضل الغريب . وقوله (الشمس) و (السحاب) بدل من الفضيلة ، وهو محمول على المعنى ، لأن معناه فترى فضيلتين لا تترادان على ما هما به من كونهما نوعين متضادين . ولو قال : الشمس والسحاب لكان حسناً ، لكنه تمم بقوله (تشرق) لقوله . كنهوراً، إذ قد تكون الشمس مع السحاب إلا أن كل واحد منهما

غير متناه في صفته ، فإذا وقع التناهي فكانت الشمس مشرقة ، والسحاب كنهوراً لم يمكن اجتماعهما[1] .

* * *

بدأ ابن سيده هذا النموذج بموقف شعري زاهي الفتنه حين آخذ المتنبي على أنه استثنى من الدعاء على المهارى المهر الذي أقل محبوبه عند رحيله ، وقد كان أولى أن يدعي عليه من بين سائر المهارى لانفراده بالحبيب وحمله إياه ومن علم الهيئة قوله : وإنما جعل الهودج مصوراً لأنه ذو شكل ، وكل شكل مصور .

و(مصور) هنا تعني أن الهودج له سمت خاص به وهيئة مميزة له . ومنه من علم المنطق قوله : — الصورة تخطيط والتخطيط عرض ، ولو ارتفعت الصورة المنقشة في ذات الستر لارتفع الجوهر الحامل لها ، وارتفاع التخطيط عن المخطوط وبقاء الجوهر بعد ذلك متوهم لا موجود . ويختلط المنطق بالأصول في قوله : إشراق الشمس وتكاثف السحاب فضيلتان ضديتان ، والضدان مختلفان لا مؤتلفان ، ومعتقبان لا ملتقيان وقد رأينا فيهما فضيلتين لا تترادان على ما هما به من كونهما نوعين متضادين ، والبلاغة موجودة في التضمين المتوهم بين البيتين ٤ ، ٥ من النموذج وفي جعل جلالة الجوهر كناية عن جزالة العطاء . وقد مزج النقل بالعقل وهو يستفتي فقهاء الأنام ومتفلسفيهم .

وما قد منابه لهذا النموذج من أنه قطعة أدبية بالغة الفنية يجد مصداقه في كل سطر منه ، ونضرب مثلا لذلك هذه الفقرة « شبه ما في الهوادج من

(١) شرح العكبري جـ ٢ ص ١٦٠ ، وابن سيده ص ٣١٤ — ٣٢٠ .

الحرير المزين ، والوشي الملون بالروض الذي سارت فيه إبلهم في تزاهي قواريره وتخايل أزاهيره ، والمها وهي بقر الوحش عقائل الحمائل الأريضة والعيون المريضة »، ويظهر أنه لما رأى المتنبي قد وفق في هذه القصيدة إلى كثير من غريب الصنعة الشعرية – كما قال – لحق به ووضع رأسه على كتفه .

— ٩ —

مطلع هذا النموذج هو مطلع قصيدة قالها المتنبي يمدح بها أبا الفضل ابن العميد ويودعه ، وأبياته منها هي الأبيات ١ ، ٢ ، ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٣٩ علماً بأن القصيدة تنتهي بالبيت ٤٢ – وها هو ذا النموذج كاملا :

نسيت وما أنسى عتاباً على الصد ولا خفرا زادت به حمرة الخد

الخفر = شدة الحياء ، وهو من علل حمرة الخد وقال : زادت به حمرة الخد : ليشعر أن هنالك حمرة طبيعية سوى الحمرة التي يولدها الحياء ، لأن حمرة الحياء عرض سريع الزوال إذا زال الحياء زالت ، ولذلك مثلت به الحكماء الأعراض السريعة الانتقال فقالوا : وذلك كحمرة الخجل وصفرة الوجل .

ولا ليلة قصرتها بقصـــورة أطالت يدي في جيدها صحبة العقد

قصرتها : جعلتها قصيرة أي ضد الطويلة ، والقصورة : المرأة المقصورة الممنوعة أراد قصرتها بوصال ، قصورة ، وقصيرة : لغة في قصورة . (أطالت يدي في جيدها صحبة العقد) أي – اعتنقتها معظم ليلي أو كله فصحبت دواعي عقدها ، واليد هنا كناية عن كلية الذراع كقوله تعالى « فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق » .

فإما تريْني لا أقيم ببلـــــدة　　فآفه غمدي في دلوقي من حدى

أي بأني سيف ماض كثير الدلوق من حدي ، فغمدي متغير منقد لكثرة تحريكي فيه وقلقي ، وضرب السيف مثلا لنفسه ، والغمد مثلا لجسمه ، والدلوق : مثلا لحركته . أي تنقلي في البلاد يشحبني ويرث بزتي ، وقد فسره بقوله بعد هذا .

تبدل أيامي وعيشي ومنزلي　　نجائب لايفكرن في النحس والسعد

وأوجه فتيان حيـــاء تلثمـــوا　　عليهن لا خوفا من الحر والبرد

وليس حياء الوجه في الذئب شيمةً　　ولكنه من شيمة الأســـد الــورد

إذا لم تجزهم دارَ قوم مـــودة　　أجاز القنا والخوف خيرٌ من الود

أي هؤلاء الفتية إذا مروا بقوم لا يودونهم فراموا صدهم حاربوهم ، فأجازتهم الطريق رماحهم ، والخوف خير من الود أي لأن تخاف خير لك من أن تود وترحم كقولهم في المثل السائر « رهبوت خير من رحموت » ومن أمثالهم : أو فرقا خير من حبين ، وهذا كقول دريد بن فهر في توصيته لبنيه : — ضيفوا الناس وارعوا الكلأ . وأراد : أجازهم القنا إياها ، فحذف المفعولين ، لأن في قوله : — إذا لم تجزهم دار قوم ما يدل على هذا المحذوف إذ دل الأول على الثاني ، والثاني على الأول ، فاستجيز الحذف فيه كقوله تعالى : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » أي والسموات غير السموات . فحذف الثاني — الذي هو الأول المذكور في المعنى أولى .

كفانا الربيع العيس من بركاته　　فجاءته لم تسمع حداءً سوى الرعد

أي كفينا حداء الإبل برعد الربيع ، لأنه قام مقام الحداء بصوته ، وقيل (كفانا الربيع العيس) أي كان منه رعيها وشربها وحداؤها ، ولو عدد للربيع أيادي غير الرعد كما قال لقال : (وجاءته) أي رعت وشربت وجاءته وإنما قال (فجاءته) فبين كيفية الكفاية كما تقول : أحسنت إليك فوهبتك ألفا ، فهبة الألف : تفسير الإحسان ، وقوله : (لم تسمع حداء) جملة في موضع النصب على الحال أي جاءته غير سامعة حداء إلا حداء الرعد ، والرعد هنا مصدر من قولك رعدت السماء ترعد رعداً ، ولا يكون الرعد الذي هو الجوهر الملكي في قوله تعالى ويسبح الرعد بحمده ، لأن ذلك لا يسمع بذاته ، إنما يسمع صوته ، والحداء عرض فمقابلته بالعرض أولى ، وهذا دقيق فتفهمه .

إذا ما استحين الماء يعرض نفســـه كرعن بسبت في إناء من الورد

يصف ما أمطرتهم السماء به من الماء ، وأنبتت لهم الأرض من الربيع في مضيهم إلى أبي الفضل لمكان بركته وأن العناصر تعظم شأنه وتعلى مكانه ، فتسقي وراده وترعي قصاده ، والسبت : كل جلد مدبوغ ، وقيل هو المدبوغ بالقرظ خاصة . وهو يلين الجلود ويحسنها حتى تشبه العرب مشافر الإبل بها فيقول : إذا مرت هذه الإبل بهذه السيول التي غادتها هذه الغيوث ظلت كأنها تعرض نفسها عليها ، فكأن الإبل مستحية منها لإلحاح المياه عليها بعرضها أنفسها وقد أحاطت رياض الورد أو ما يشبه الورد من ضروب الأزاهير وأنواع النواوير فهي تدخل أكارعها فيه وتغمس مشافرها في تلك المشارب متقنعة من إفراط الحياء بذلك الورد النابت ، وإنما عنى بالسبت ها هنا مشافرها كقول طرفة :

وخد كقرطاس الشآمي ومشفر   كسبت اليماني قده لم يُجـــرد

وقيل غسل الماء المستنقع في الأرض أخفاف الإبل من الطين حتى عادت كالسبت في لقائها وأنبتت حافات الغدر زهراً ، فكأن الماء يعرض نفسه يتراءى في إناء من الورد ، والأول أولى .

فتى فاتت العدوى من الناس عينه   فما ارمدت أجفانه كثرَة الرَّمْـــد

ضرب الرمد مثلا للعيوب المعدية ، لأنه داء ربما أعدى كالجرب ونحوه فيقول : كثرت العيوب في الناس ، لكنه سلم هو منها فلم تعده لشرف عنصره وصفاء جوهره ، وقصد منه العين توطئة لذكر الرمد الذي جعله مادة القافية ، وحسن ذلك ما ذكرت لك من طبيعة الرمد في العدوى .

يغير ألوان الليالي على العـــــدا   بمنشورة الرايات منصورة الجند

أي يوقد النيران في معسكر هذه الكتائب فيغير من سواد الليل ، ولما كانت النار إنما توقدها هذه الكتيبه جعل التغير لها ، إذ هي الفاعلة الحقيقية ، والنار وإن كانت مغيرة — فإنها مفعولة للكتيبة . فهي الفاعلة على القصد الأول والنار الفاعلة على القصد الثاني .

إذا ارتقبوا صبحا رأوا قبل ضوئه   كتائب لا يردى الصباح كما تردى

أي يتوهم العدو والمغزو تلك النار صبحاً ، وهو يرتقب حقيقة الإصباح ، فتوافيهم هذه الكتائب مكان الصباح الذي ارتقبوه ، وجعل الكتائب أسرع من الصباح غلواً . وإن شئت قلت : إن مجيء الصباح غير مجيء الكتائب ، لأن مجيء هذه مشى ومجيء الصباح طلوع فلذلك قال : لا يردى الصباح كما تردى .

يغضن إذا ما عدن في متقاذف   من الكثرغان بالعبيد عن الحشد

يغضن : ينعد من فلا يوجدن ، أي بعوثك المتوجهة للغارة على عظمها وكثافتها ذا عادت إلى معظم جيشك غاضت فيه كما يغيض النهر في البحر. ومتقاذف : جيش يقذف بعضه بعضاً لكثرتهم والتقائهم كقول الراجز في صفة خصب وإبل .

أرعيتها أكرم عــود عُــودَا   بحيث يدعو عامر مسعــــودا

أي يتقاذف هذان الراعيان في طول هذا المكان واكتماله حتى ينادي كل واحد صاحبه ، (غان بالعبيد) أي : هذا الجيش متألف من عبيد ابن العميد، فقد استغنى بهم عن الحشد للغرباء ، وأن يكون اسما أولى لتطابق العبيد ، لأن العبيد اسم ، وقد قال — أبو زيد : الحشد : القوم المجتمعون . فهذا مما يقوى فيه الاسمية .

حَثَتْ كل أرض تُربةً في غباره   فهن عليه كالطرائق في البرد

البرد : الثوب الموشى ، وطرائقه مختلفة الألوان أي فهذه الكتائب شتى المطالب بعيدة المذاهب ، فهي تطالبها مرامها ، أرضين مختلفة أنواع التراب اختلافاً لونياً من بياض وسواد ، فكل أرض يطؤها تختفي من غبار هذا الجيش فتكتسب بذلك ألواناً مختلفة بحسب أنواع التراب ، لكل نوع لون فكأن الغبار برد ، وهذه ألوان فيه .

وكل شريك في السرور بمصبحي   أرى بعده من لا يرى مثله بعدي

مصبحي : أوان صباحي ، أي وكل مشارك لي من أهلي في السرور في رجوعي وتصبيحي له عند رؤيته ما أقنانيه لقاء هذا الممدوح من الثروة ، فإني مع ذلك كله منفرد دونه بأمر وهو رؤيتي هذا الممدوح الذي لا يرى هو بعدي مثله .

يقول : فأنا أكره أن أنفرد بنوع من أنواع المسرة دونهم ، فإذا أنا أبت إليهم ورأوني ، رأوا من لا نظير له عندهم ، كما أرى أنا الآن من لا نظير له .

فاستووا معي فيما نلته من العناء وأدركته من المنى. ألا تراه يقول :

وقد كنت أدركت المنى غير أنني يعيرني أهلي بإدراكها وحدي

وهذا كله اعتذار إلى أبي الفضل في إيثاره الرحيل عنه ، وإنما كان يريد التمادي إلى شيراز ثم الأوب إلى أهله[1] .

* * *

في كلمة (زادت) احتياط ذكي من المتنبي وقد فهمه ابن سيده ونوه به علماً بأن حمرة الحياء عرض سريع الزوال ، إذا زال الحياء زالت .

ولذلك مثلت به الحكماء الأعراض السريعة الانتقال ، وقد جعل المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية في (أطالت يدي) جعله كناية عن موصوف هو الذراع .

ويمكن أن تكون اليد مستعملة استعمالا حقيقياً وهو من وجهة نظري أفضل، ومن البلاغة أو من يحثه عنها ، ميله إلى جعل (الحشد) اسما لتتم المطابقة بينه وبين عبيد ابن العميد في البيت الثالث عشر من النموذج .

وقد استغل قول المتنبي :

(أجاز القنا والخوف خير من الود)

فاسترسل يذكر أمثالا تدور حول هذا المعنى وتؤكده ، وهو في البيت (كفانا الربيع العيس ....) .

---

(١) شرح العكبري ج ٢ ص ٥٩ ، وابن سيده ص ٣٢٣ – ٣٢٨ .

يناقش أكثر من معنى مناقشة نحوية ومنطقية ، ويرجح ما هو واضح الرجحان منها . وينطقه صفاء ذهنه بقوله :

الرعد هنا مصدر من قولك : رعدت السماء ترعد رعداً ، ولا يكون الرعد الذي هو الجوهر الملكي في قوله تعالى : (ويسبح الرعد بحمده) .

لأن ذلك لا يسمع بذاته ، إنما يسمع صوته ، والحداء عرض فمقابلته بالعرض أولى . وبقوله : « وجعل الكتائب أسرع من الصباح غلواً » .

وإن شئت قلت : إن مجيء الصباح غير مجيء الكتائب ، لأن مجيء هذه مشي ومجيء الصباح طلوع ، فلذلك قال : « لا يردى الصباح كما تردى » .

والتعبير عن مكونات الطبيعة الخارجية بالعناصر تعبير فلسفي ، وقد رأيناه يفسر البيت : (إذا ما استحين الماء ...) بمعنى ، ثم يورد معنى آخر ، ويرجح الأول دون مبرر ومن يدري فقد يكون المعنى الأول له والمعنى الآخر لغيره .

والبيت الخامس عشر في النموذج من أبيات المعاني بحق ، وقد ظل مشكلا في معظم الشروح ، لكن شرح ابن سيده له قد وضحه .

— ١٠ —

مطلع هذا النموذج هو مطلع قصيدة قالها المتنبي يمدح بها عضد الدولة أبا شجاع فنا خسرو سنة ٣٥٤ هـ .

وأبيات النموذج منها هي الأبيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ١٠ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٢٠ ، ٣٨ ، ٢٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٩ وهو آخر القصيدة .

ولما كان عدد أبيات النموذج هو ثلاثة وعشرون بيتاً ،
فإن هذا يعني أن ابن سيده قد شرح نصف القصيدة تقريباً قال : وله أيضاً :

أوْهِ بديلٌ من قولتي واها لمن نأت والبديل ذكراها

أوه وآه كلمتا توجع وتفجع مبنيتان على الكسر ، و (واه) كلمة استطابة واستزادة فيقول : أنا متوجع لفراقها بعد استزادتي وصالها واستطابتي إياه .

لم أقنع بهجر الدلال حتى بليت بفرقة الزوال .

وقوله (لمن نأت والبديل ذكراها) أي عن التي بانت هذا التوجع .

و (البديل ذكراها) أي ذكراي إياها بدل منها . هي مفقودة ، وذكراها لدي موجودة .

أوْه من ْالاَّ أرى محاسنها وأصْلُ واها وأوه مرآها

أي إنما أرجع هذه الكلمة التي معناها التوجع والتفجع لفقدي رؤية محاسنها . (وأصل واها وأوه مرآها) : إنما كان سبب استطابتي إياها وتوجعي بنواها رؤيتي لها ، وذلك أني رأيتها فهويتها ووصلت فاستطبتها ونأت فتأوهت لها .

شاميّةٌ طالما خلوت بها تبصر في ناظري محياها

شامية : منسوبة إلى الشام يقال شام وشآم ، وناظر العين : إنسانها ، والمحيا : الوجه أي هذه المحبوبة شامية خلوت بها طويلا فاستمتعت بوصالها واستكثرت من نوالها .

فقبلتْ ناظـــري تغالطني وإنمـــا قبلت بــه فاهــا

أي كانت تنظر إلى عيني فتشخص لها صورة وجهها في ناظري ، والفم جزء من الوجه فكانت ترى فاها في جملة وجهها المرئي في ناظري فكانت تقبل الناظر ، تريه أنها تريده وإنما كانت تريد فاها فتقبله في الناظر كما كانت في المرآة ، لأن الناظر عضو مجلو فتشخص فيه الصورة كتشخصها في المرآة .

فليتهــا لا تــزال آويـــة وليتــه لا يــزال مأواهــا

أي ليت صورتها لا تزال آوية ناظري ، يقال أويت المكان وأويت إليه ، وذكر آوية ، وكان الحكم آويته ، ذهاباً إلى الشخص أو الشكل ، وليت الناظر لا يزال مأوى هذه الصورة ، وهذا البيت مشتمل على قضيتين ترجعان إلى قضية واحدة ، لأن التمني الأول هو التمني الثاني .

لقيننـــا والحمـــول سائـــرة وهـــن در فذبـــن أمواها

لقيننا : يعني هؤلاء الظعن ، والحمول سائرة بهن : يعني الإبل بما عليها من الهوادج وهن دراري قد رقت بشراتهن وصفت فهن كالدر ، وأراد مثل الدر فبالغ حتى جعلهم الدر نفسه ، ولابد من اعتبار (مثل) إذ هن لا يكن دراً لأن الدر جماد وهن حيوان ناطق ، وقوله (فذبن أمواهاً) أي بكين لما سارت بهن الإبل ، فلما كانت دموعهن كبشراتهن التي شاكلت الدر رقة وصفاء ، ظننتهن دراً ذائباً ، وهذا كقوله هو :

أوفي فكنت إذا رميت بمقلتي بشرا رأيت أرق من عبراتهــا

وقوله : أمواهاً منصوب على الحال ، وإن كانت الأمواه جوهراً ، فقد يكون الجوهر حالا ، حكي سيبويه عن العرب : (العجب من بُرٍّ مررنا

به قفيزاً بدرهم) قال : قد يكون خبراً ما لا يكون صفة ، يعني بالخبر الحال ، وقد قال : (هذا بسرا أطيب منه رطباً) ، وفي التنزيل (هذه ناقة الله لكم أية) ومثله كثير . وقال (ذبن) وإنما يعني دموعهن .

أو عبرتْ هجمة بنـــا ترُكت تكُوس بين الشُّروب عـَقـْراها

الهجمة : القطعة من الإبل ، وقد اختلف في عددها ، فقيل ما بين السبعين إلى المائة وقيل : أولها الأربعون إلى ما زادت .

يصف شربه وقراه الأضياف فيقول : تمر بنا إبلنا فنعرقبها للضيفان حتى تكوس أي تمشي على ثلاث ، وقيل : تزحف على ركبها ، قال الأعور النبهاني يهجو غسان السليطي :

ولو عند غسان السليطي عرست رعي قرن منها وكاس عقير

والشروب : يجوز أن يكون جمع شارب كشاهد وشهود وساجد وسجود ، ويجوز أن يكون جمع شرب اسم لجمع شارب عند سيبويه ، وجمعاً له عند أبي الحسن ، لكن أن يكون جمع شارب أولى ، لأنه إن كان اسم جمع على مذهب سيبويه ، فجمع اسم الجمع في القلة كجمع الجمع من حيث كانا مشتركين في الدلالة على الجمع ، وإن كان الشرب جمعاً على رأي أبي الحسن ، فجمع الجمع قليل لا يحمل سيبويه صيغة الجمع عليه ما وجد عنه مندوحة ، وإنما يقر بجمع الجمع إذا لم يجد سبيلا إلى غير ذلك .

ومن ثم ذهب الفارسي في قراءة من قرأ (فَرُهُنٌ مقبوضة) إلى أنه جمع رهن كسجل وسجل وسقف وسقف ، واستجاز هذا على قلته كراهية أن يحتاج أن يقول : إن رهناً جمع رهان ورهان جمع رهن .، وإنما ذلك

من أبي على فرار من جمع الجمع فلهذا قلنا : إن شروب جمع شارب أولى من كونه جمع شرْب فافهمه .

تقود مستحسن الكلام لنـــا كما تقــود السحاب عظماها

أي إذا اعتبرنا مآثره وامتثلنا مفاخره لقنتنا مستحسن الكلام فيه وقادته لنا كما يقود السحاب سحاباً .

لو فطنت خيــله لنائـــله لم يرضهـــا أن تراه برضاهـــا

أي لو شعرت خيله أنه إنما يعدها للهبة وأنه إنما يهب منها الخيار المرضية ، لم ترض هذه الخيل أن يرى منها راضياً ، لأن ما رضى منها موهوب لآمله ومبذول لسائله .

تسر طرباتـــه كرائنــــة ثُم يزيل السرور عقباهـــا

الكرائن جمع كرنية وهي المغنية ، والكران العود .

أي أن الكرائن إذا غنينه أطربنه فوهب لهن وسرهن بذلك ، ثم تجاوز الطرب ذلك الحد فيهبهن للشروب فيأسين لفراقه ، فيزيل عقبي الطرب سرورهن لهبته إياهن لنداماه ، والهاء في (عقباها) راجعة إلى الطربات ، وكان حكمه طرباته (بتحريك العين) لأنه جمع فعله اسماً ، لكن الشاعر إذا اضطر سكن مثل هذا لإقامة الوزن أنشد الفارسي .

أبتْ ذِكَرٌ عودن أحشاءَ قلبــه خُفوقاً ورفْضات الهوى في المفاصل

* * *

بكل موهوبــة مولولـــة قاطعـــة زيــرها ومثناهــا

ولولتها : رنينها لفقده ، وقطعها الزير والمثنى ندم لمن حصلت عنده ممن ليس نده .

تعوم عـوم القـذاة في زبـد من جود كف الأمير يغشاها

زبد : مزبد ، ليس على الفعل ، لأنا لم نسمع زبد ، وإنما هو على النسب أي ذو زبد كما ذهب إليه سيبويه ، أي هذه الموهوبة محتقرة في جملة عطائه كاحتقار القذاة في معظم التيار .

لا تجد الخمـر في مكارمـه إذا انتشى خـلة تلافاهـا

أي كرمه طبيعة فسواء عليه صحا أو سكر لا يقع في كرمه تقصير قبل الخمر ولا خلة يفسدها الخمر . هذا قول البحتري :

تكرم من قبـل الكؤوس عليهم فما استطعن أن يحدثن فيه تكرما

وقال المتنبي :

وجاد فلولا جـوده غير شارب لقلنا كريم هيجتـه ابنة الكرم

وأراد (تتلافاها) فحذف إحدى التاءين كراهية اجتماع المثلين ، وهذا مطرد في اللغة ، وانتشى : سكر .

تصاحب الـراح أريحيتـه فتسقط الراح دون أدناهـا

أريحية الراح يتكرم بها اللئيم ويزداد كرماً بها الكريم ، فهي على كل حال توجد مزية لم توجد قبلها ، وأريحية الممدوح طبيعة بالغة غاية تكون أريحية السكر مقصرة عن أدنى منازلها ، فكيف أن توجد مزية لم تكن من قبل .

تجمعت في فـؤاده همم ملء فؤاد الزمان إحداهـا

ليس للدهر فؤاد ، لأن الفؤاد جوهر والدهر عرض ، ولا يكون

الجوهر جزءاً من العرض ، ولكن استعاره له صنعة واقتداراً ، وقد بين ذلك بقوله :

ولو برز الزمـان إلى شخصا   لخضَّب شعر مفرقه حسامي

ولما جعل له فؤاداً استجاز أن يجعل له همة ، لأن الفؤاد مطية الهمة ، وحسن ذلك قوله :

تجمعت في فؤاده همم ، فيقول : في فؤاد هذا الممدوح همم كثيرة مجتمعة يملأ فؤاد الدهر منها واحدة ويضيق عما سواها .

فإن أتى حظها بأزمنـة   أوسع من ذا الزمان أبداهـا

أي فإن أتى حظ هذه الهمم التي لا يسع فؤاد الزمان منها إلا واحدة بأزمنة أوسع من هذا الزمان ، أبدى الممدوح تلك الهمم التي لا يبديها إلا لضيق الزمان عنها .

و (حظها) هنا كقوله (جدها) وقوله « (بأزمنة) » أحسن من قوله بزمان بعد أن يحتمله الوزن ، لأن الجمع أبلغ من الواحد .

وصارت الفيلقـان واحـدة   تعثُر أحياؤهـا بموتاهـا

واحدة : أي فيلقا واحدة ، وإنما صارت الفيلقان فيلقاً ، لاختلاطهما حتى كأنهما تجسدتا والهاء في (إحيائها) و (موتاها) عائدة إلى الفيلق الواحد

يعجبها قتلها الكمـاة ولا   يُنظِرُهـا الدهر بعد قتلاها

أي إذا قتل الفارس فارساً أعجبه ذلك ، ثم لا يلبث أن يتاح له فارس آخر فيقتله .

ودارت النيرات في فلك   تسجـد أقماره لأبهاهـا

عنى بالفلك هنا ذات المعترك حيث التقت الأملاك والأبطال الأنجاد ، وكلا هذين الفيلقين أقمار فهي تسجد لأبهاها يعني الملك .

الفارس المتقي السـلاح به الـ مثني عليه الوغي وخيـلاها

يتقي به السلاح ، لأن السلاح لا يؤثر فيه ، بل هو المؤثر فيها كقول الآخر :

اللابسين قلوبهم فوق الدروع لدفع ذلك

أي أن أفئدتهم أوفي لهم من دروعهم ، لأنها أثبت صيانة وأشد منهم حصانة ، وثنى الخيل ، لأنه يريد خيله وخيل عدوه ، لأن الحرب إنما تقوم بطائفتين متضادتين ، ولذلك قال بعض الأوائل من الحكماء الأفاضل : الحرب جسد ذو طبيعتين متضادتين أي قوامها ذلك فإن بطل أحد الضدين بطلت الحرب .

لو أنكرت من حيائهـا يـده في الحرب آثارها عرفناهـا

ذهب قوم إلى أنه يجل عن الفخر بتأثيره في عداه ، فلو أنكرت يده ذلك لعرفنا أن هذه الآثار لها .

والذي عندي أن آثار مفاخره في العالم حسان ، وذلك بإغناء فقير ، وافتكاك أسير وبث فضل وإقامة عدل .

وأما آثارة في عداه فقبيحة الصور لأنها إنما هي إفساد جواهرهم ، وتغيير ظواهرهم وبواطنهم ، فلو أنكرت يده هذه الآثار حياء من قبحها لعرفنا نحن أنها لها ، لأنه لا يؤثر في العدا هذا التأثير إلا هي .

وكيف تخفي التي زيادتهـا وناقع الموت بعض سيماهـا

يعني يده ، وكيف تخفي آثار هذه اليد التي سوطها وناقع الموت جزء من سيماها عنى بناقع الموت : السيف ، وبالزيادة : السوط ، وذاك أنه يضرب بالسوط ويقتل بالسيف وإذا كان هذا بعض سيماها ونتيجتها الضرب والقتل فما الظن بكلية سيماها .

الناس كالعابدين آلهة وعبده كالموحد الله

الآلهة ، لا تغني عبادها ، والله يغني عباده .

يقول : فمن أمل غير هذا الملك لم يستغن بواحد عن آخر ، مع ما ينتج له من ذلك من قلة الغناء ، ومن أمله كفاه وأغناه[1] .

استهل ابن سيده شرح أبيات هذا النموذج بدفعة لغوية قوية ، سببها تكرار (أوه) و (واها) في البيتين الأول والثاني .

والبيت الثالث شهادة لهذه الشامية بالجمال والابتذال .

ومن المصطلحات المنطقية في النموذج (القضية) (القضيتان) و (بعض) سيماها و (كلية) سيماها .

وقد أفسد منطقه تذوقه البلاغي ، فهو يلح على التشبيه البليغ في (هن در) حتى ينزله عن درجته الفنيه بتقدير أداة التشبيه (مثل) بين طرفيه .
لماذا يا ابن سيده ؟

يجيب : لأن الدر (جماد) و (هن) حيوان ناطق .

ولما كان المنطق (نحو) العقول ، فإنه لم يفسد النحو عنده .

قال : (أمواها) منصوب على الحال ، وإن كانت الأمواه جوهراً ،

---

(١) شرح العكبري جـ٤ ص ٢٦٩ ، وابن سيده ص ٣٢٨ – ٣٣٦ .

فقد يكون الجوهر حالا لكن يلج به منطقه حتى يقول : (وثنى الخيل : خيله ، وخيل عدوه ، لأن الحرب إنما تقوم بطائفتين متضادتين . ولذلك قال بعض الأوائل من الحكماء الأفاضل :

(الحرب جسد ذو طبيعتين متضادتين، أي قوامها كذلك ، فإن بطل أحد الضدين بطلت الحرب) .

ومن المنطق الممروج بالبلاغة وبالنقد قوله :

ليس للدهر فؤاد ، لأن الفؤاد جوهر ، والدهر عرض ، ولا يكون الجوهر جزءاً من العرض .

وقد فارت كلمة (الشروب) في كأس الشارح فأحدثت جرعة نحويه كبيرة وظل البيت :

تقود مستحسن الكـــلام لنا ... ...

غير مفهوم حتى بعد شرح ابن سيده له ، وبإرجاعه إلى سياقه في القصيدة يتضح معناه ولا يحتاج إلى شرح ، وما قبله في القصيدة هو :

أبا شجاع بفارس عضد الدو لة فنا خسرو شهنشاهـــا

أسا ميأ لم تــزده معرفـــة وإنمـــا لـــذة ذكرناهـــا

والبيت :

يعجبها قتلها الكمـــاة ولا ينظرها الدهــر بعــد قتلاها

إنما هو البيت رقم ٢٠ في القصيدة ، وقد أورده ابن سيده في النموذج بعد البيتين ٣٧ ، ٣٨ منها ، ولم نفهمه لهذا إلا بعد أن أرجعناه إلى سياقه الأصلي ، وقد وجدنا قبله هذا البيت المفهم له .

والخيـل مطرودة وطـاردة   تجـر طول القنـا وقصراها

ويختار المعنى الغريب المعجب ، وهو يشرح البيت :

لو أنكرت من حيائها يـده   في الحرب آثارها عرفناهـا

وهو البيت ٢١ في الموذج ، و ٤٠ في القصيدة .

تعقيب

الآن وبعد أن فرغنا من دراسة « مشكل شعر المتنبي » وسقنا أمثلة منه نسأل : أكان ابن سيده الذي حكمنا بأنه كان محايداً بالنسبة لشراح المتنبي السابقين نسأل : أكان محايداً أيضاً بالنسبة للمتنبي ؟!

ونجيب بأننا لا نستطيع أن نقول إلا أنه – كجمهور أهل الأندلس – كان مأخوذاً به وبشاعريته الفذة ، ولا نريد أن نعيد في هذه العجالة التي نختم بها هذا الفصل ، ما وجدناه على الأقل في النماذج العشرة السابقة من مواقف الاعجاب به وبغريب الصنعة عنده .

وإن دل هـذا على شيء ، فإنما يدل عـلى انفعاله به ، بل على حبه له ، أجل حبه له ، فالخلوص إلى مشكل شعر المتنبي لشرحه ، وشغل النفس به بغية توضيحه لا يكون إلا عن تقدير خاص من ابن سيده للمتنبي ، والتقدير الخاص للماضيين لا يقل – إن لم يزد – عن الحب للمعاصرين .

وللمرة الثانية نسأل : ألم نجد في شرح مشكل شعر المتنبي « مواقف أو مآخذ تدل على أن ابن سيده لا يحب المتنبي ، أو على الأقل لا يقدره حق قدره ؟

ونجيب بأن ثمة بعض المآخذ ، لكنها في جملتها مآخذ خفيفة ، لا تؤثر

في تقدير الشارح للشاعر ، ولا في حبه له وهذه نماذج منها :

— ١ —

يقول المتنبي :

أذا الغصن أم ذا الدعص أم أنت فتنة

وذيا الذي قبلته البرق أم ثغر

فيقول ابن سيده : كان أصنع أن يقول (برق) لمكان (ثغر) فهما نكرتان[١] والمأخذ هنا فني.

— ٢ —

يقول المتنبي في مدح شجاع بن محمد الطائي المنبجي :

أنى يكون أبو البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد

فيقول ابن سيده : هذا محل من القول وسفه ، أي أنك أنت الإنس والجن ، وأبوك محمد هذا يعني أبا الممدوح ، فما لهذه البرية وادعائها آدم أباها ؟!

وهذا من قبيح الضعف وطريف السخف .

ونضحك ونحن نقرأ الكلام الآتي ، فهو دال على سذاجة ابن سيدة وطيبته بل على تدينه وصوفيته ، يقول :

قد حل به العقاب في أنه لم يحسن تأليف البيت ، ولم يوفق لإقامة اعرابه ألا تراه فصل بين المبتدأ والخبر بجملة أجنبية في قوله :

(وأبوك والثقلان أنت محمد)

وموضوع الكلام : (أبوك محمد) و (الثقلان أنت) .

(١) ص ٦١ .

وهذا لا يكاد يسيغه لنفسه الذي يقول :

ضحك الناس وقالوا شعر وضاح اليمان

إنما شعري قندٌ قد عُقِد بجلجلان (1)

قال ابن سيده ذلك ، فهل اشتفي ؟

لا وها هو ذا يعاود الكلام فيه للمرة الثانية :

فهو يورد قول المتنبي في مدح أبي هارون بن عبد العزيز الأوراجي الكاتب المتصوف :

لو لم تكن من ذا الورى اللذ منك هو عقمت بمولد نسلها حواء

ثم يعقب عليه بقوله : جعل الورى جزءاً منه ، بعد أن جعله جزءاً من الورى ، فالأول حقيقة والثاني مجاز .

لا يكون الكل جزءاً للجزء ، هذا خلف ، لكن جعلهم منه إشعاراً أنه جمال هذا النوع ، به عرف ، وإليه نسب ، فكأنه إنما يكون منه كقوله :

أنّى يكون أبو البرية آدام وأبوك والثقلان أنت محمد

وهذا قبيح داخل في الشنع(2)

— ٣ —

ولما كان المتنبي يمدح بدر بن عمار الأسدي قال :

طلبنا رضاه بترك الذي رضينا له فتركنا السجودا

---

(1) ص ٥٩ .
(2) ص ٩٥ — ٩٦ .

وقد عالجه ابن سيده هكذا :

أي رضينا أن نسجد له إذا رأيناه إكباراً له وإيثاراً ، إلا أنه لا يريد ذلك منا ، لأن هذا إنما ينبغي لله عز وجل ، فطلبنا نحن حينئذ رضاه بتركنا السجود الذي ترضينا له .

فقد مدح بدراً هنا بشيئين :

أحدهما : جلالة القدر حتى رؤى أهلا للسجود له .

والآخر : تورع بدر عن هذا الذي رضيه المتنبي له .

قبحاً لكلامه ، ونهراً في هذا الموضوع وأشباهه لنظامه[1] .

وواضح أن هذه المؤاخذة المزودجة أو المتكررة إنما هي مؤاخذة دينية وهذا يعني أن ابن سيده لا يؤمن بالقيمة الفنية للأدب ، وهي تهدر هذه الناحية .

فليكن أن ابن سيده لا يؤمن بالقيمة الفنية للأدب ، وأنه يصدر في نقده عن دينه وخلقه . ليكن هذا أو ذاك ، أو ليكونا معاً ؛ فليس عيباً بل ليس بدعاً أن يتمرس ابن سيدة بذلك قولا وفعلا ؟

ها هــو ذا الناقد فنشنتسومادجي **Vincentzo Madji** يقرر في شرحه الذي أصدره سنة ١٥٥٠م لكتاب أرسطو (فن الشعر) أن الشعر ذو غاية أخلاقية خالصة ، ولهذا فإنه ينكر على الشعراء الذين يتناولون الأمور الشهوانية والمجون نعت الشعراء ، ويصفهم بأنهم طاعون المدنية[2] .

---

(١) ص ١٠٠ .
(٢) مقدمة ترجمة فن الشعر لأرسطو د. عبد الرحمن بدوي ص ١٣ .

ومنذ عصر النهضة كثر القول بالتزام الشاعر ، يقول الناقد الشاعر وردزوث (١٧٧٠ – ١٨٥٠) : « كل شاعر عظيم فهو معلم ، وأحب أن يعتبرني الناس معلماً أو لا شيء »(١) .

وكان ماتيو أرنولد (١٨٢٢ – ١٨٨٨) يرى أن الشعر نقد للحياة ، وأنهما (الحياة في الشعر) صورتان مختلفان لشيء واحد(٢) .

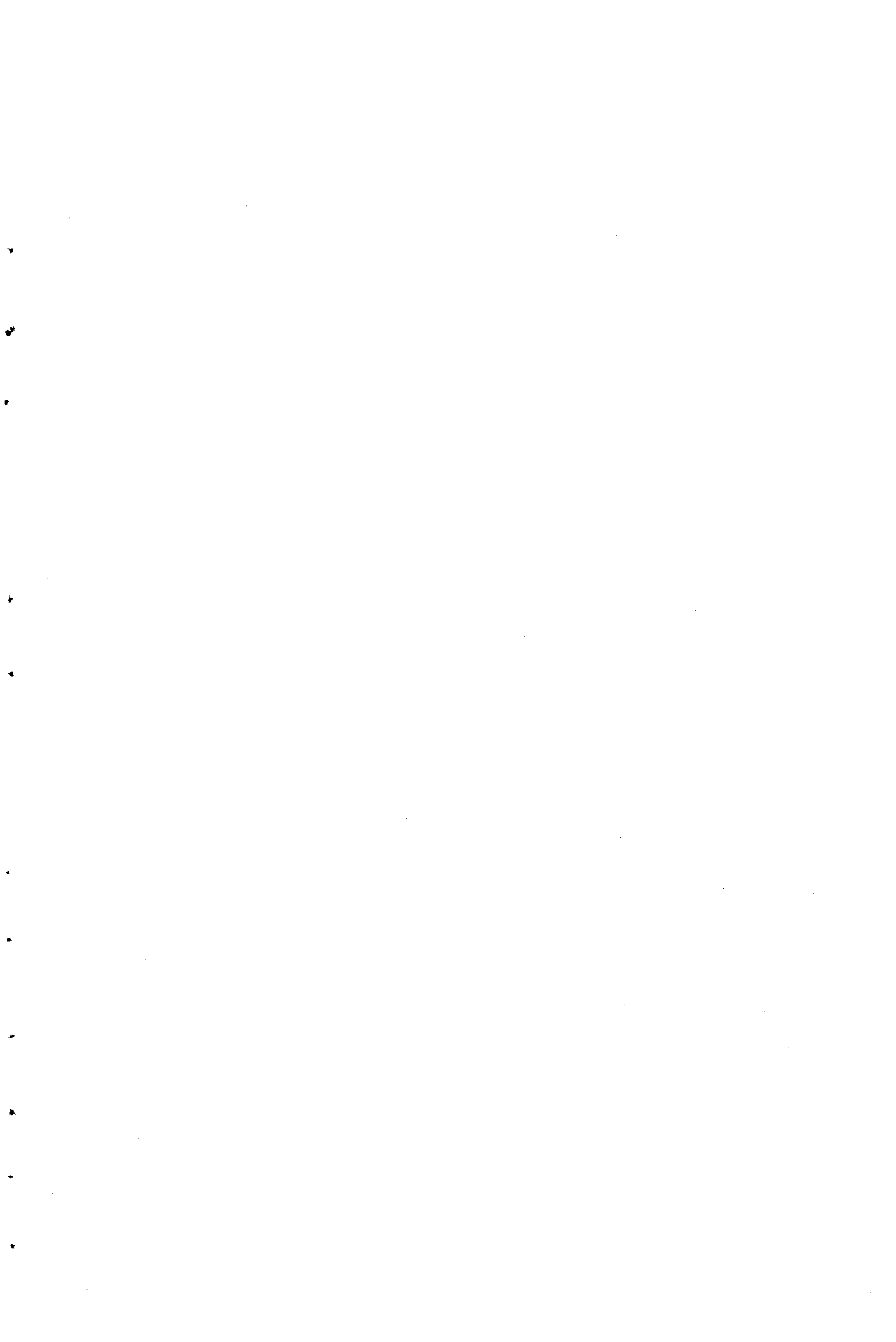
* * *

وفي رأيي أن هذه المؤاخذات وأشباهها لم تؤثر في موقف ابن سيده من المتنبي فقد رأيناه في شرحه لمشكل شعره يثني عليه ويشد على يديه أكثر من مرة ، تقديراً له ، وإعجاباً به .

بل إن هذا الشرح منه قد يفسر على أنه ترحيب بالمتنبي وبشعره في وطنه (الأندلس) . والله أعلم .

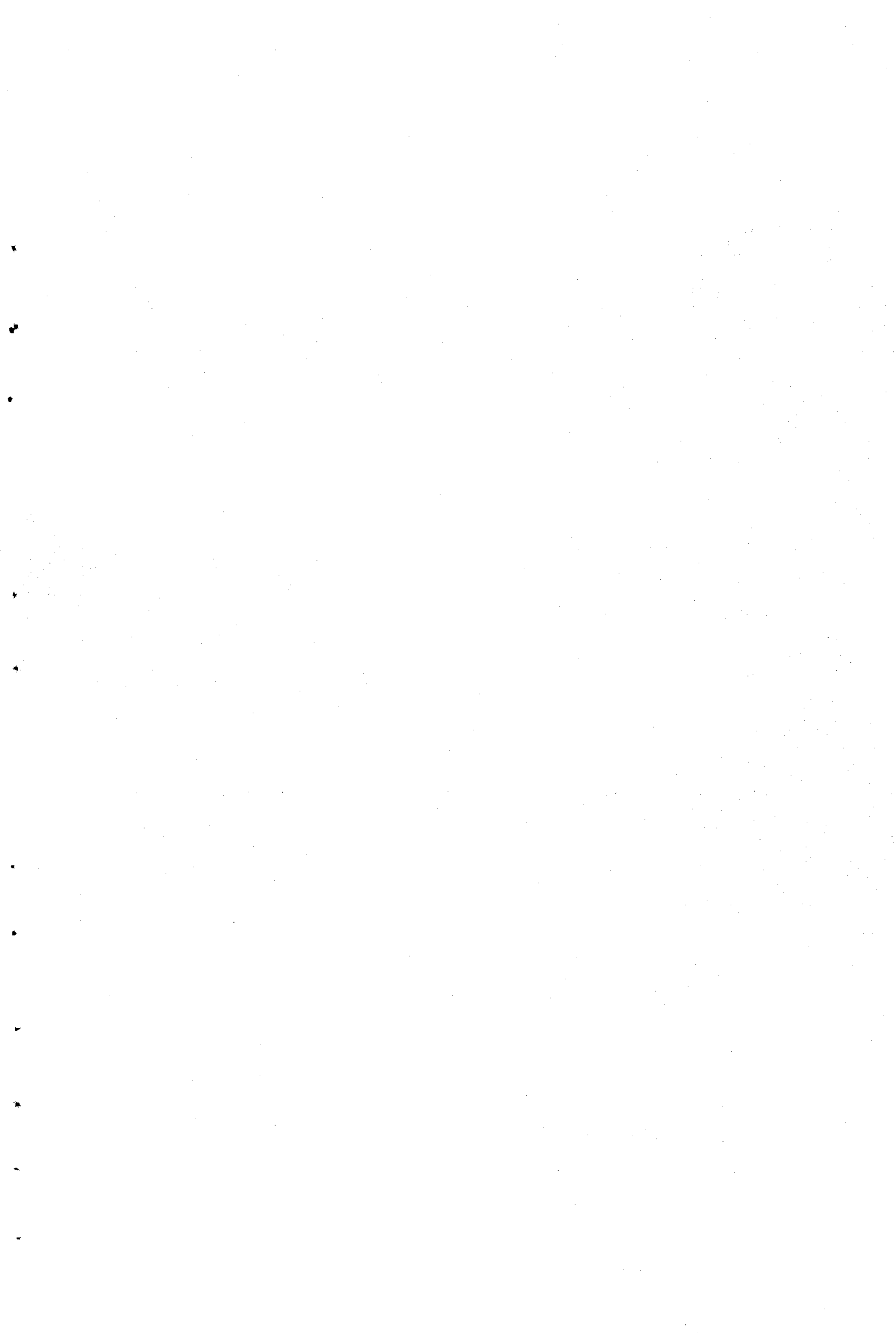
---

(١) فن الشعر تأليف الدكتور إحسان عباس ص ١٧٥ .
(٢) المدخل إلى النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد غنيمي هلال ص ٤٢١ .



الفصل الرابع

ابن بسام وكتابه : سرقات المتنبي ومشكل معانيه



الفصـــل الرابع
مع ابن بسام فى كتابه
سرقات المتنبى ومشكل معانيـــه

ابن بسام :

عرف ابن سعيد به في كتابه (المغرب في حلى المغرب) نقلا عن كتاب : نجوم السماء في حلى العلماء) قال :

الأديب أبو الحسن ابن بسام التغلبي الشنتريني ، العجب أنه لم يكن في حساب الآداب الأندلسية ، أنه سيبعث من شنترين ، قاصية الغرب (غرب الأندلس) ومحل الطعن والضرب [1] من ينظمها قلائد في جيد الدهر ، ويطلعها ضرائر للأنجم الزهر ، ولم ينشأ بحضرة قرطبة ، ولا بحضرة أشبيلية ولا غيرها من الحواضر العظام من يمتعض امتعاضه لأعلام عصره ، ويجهد في جمع حسنات نظمه ونثره ، وسل الذخيرة ، فإنها تعنون عن محاسنه الغزيرة . [2]

وتنويه ابن سعيد بابن بسام ، لأنه نظم الآداب الأندلسية قلائد في جيد الدهر ، وأطلعها ضرائر للأنجم الزهر ثم تنبيهه إلى امتعاضه لأعلام عصره ، وإلى اجتهاده في جمع حسنات نظمه ونثره .

هذا الموقفان لابن سعيد — التنويه والتنبيه — يكشفان لنا عن حب ابن بسام لوطنه — الأندلس ، وعن بلائه الحسن في إثبات وجوده ، فهو لا يضيع مجد وطنه أوبالأحرى لا يضحي به في زحمة إعجابه بآداب المشرق

(١) يشير إلى أنها كانت مستهدفة من قبل الأعداء الجلالقه : وأن ذلك كان سبباً في عزوف طلبة العلم عن قصدها .

(٢) المغرب جـ ١ ص ٤١٧ طبعة دار المعارف تحقيق الدكتور شوقى ضيف .

وإعلامه . عنده أن الأندلس – بالنسبة للأندلسيين على الأقل – تأتي أولا ، ويجب أن تكون كذلك دائماً .

ولربما كانت غايته الأولى من تأليف كتابه – بدليل جعل اسمه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة – رفع درجة إحساس الأندلسيين بأندلسيتهم وبأدبهم ، والتلويح بهما في وجوه المنافسين لها ، أو من لا يجلونهما من المشارقة ، ويعز عليه أن يرى نكوص مواطنيه عن التصدي للمشارقة وتحديهم .

ها هو ذا ينعى عليهم تخاذلهم وتقليدهم بل إعجابهم بكل ما هو مشرقي ، غير مدركين أن ما عندهم من علم وأدب يعدل أو يمكن أن يعدل ما عند المشارقة من علم وأدب .

قال : إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أوطن بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنماً ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً ، وأخبارهم الباهرة وأشعارهم السائرة ، مرمى القصية ، ومناخ الرذية ، لا يعمر بها جنان ولا خلد ولا يصرف فيها لسان ولا يد ، فغاظني ذلك وأنفت مما هنالك وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري ، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهله ، وتصبح بحاره ثماداً مضمحلة[1]

وقد تفوق كتاب (الذخيرة) على صاحبه في الشهرة ، وفي اهتمام الناس به فهو يحتل مكانة مرموقة بين أهل الأدب في المشرق والمغرب .

أما مؤلفه ابن بسام فمهمل خامل الترجمة :

(١) الذخيرة ١/١ ص ٢ .

لم تترجمه دائرة المعارف الإسلامية .

ولم يترجمه ابن بشكوال في الصلة مع كونه من أهل عصره وبلاده . وسبقت وفاته وفاة ابن بشكوال بنيف وثلاثين سنة .

وترجمه خير الدين الزركلي في (الأعلام) فذكر أنه من الكتاب والوزراء وأنه توفي سنة ٥٤٢ هـ ، ويظهر أنه استمد نفح الطيب في تحديد سنة وفاته[١] .

ونحن نعرف من كتاب الذخيرة ، وقد عرفنا من كتابه الذي نحن بصدده أنه أديب ناقد لكن وصفه مَنْ نسخ كتابه في سنة ٦١٥هـ بأنه نحوي قال :

قال الشيخ الإمام العالم الفاضل العلامة ابن بسام النحوي رضى الله عنه . هذا كتاب في ذكر سرقات أبي الطيب ومشكل معانيه المرتبة على القوافي[٢] ولما رأى المحقق الفاضل ذلك قال : فاحتمل أنه نسبة إلى علم النحو وهو الأظهر ، واحتمل أنه نسبة إلى جد . وفي القاموس وتاج العروس :

بنو نحو بطن من الأزد هم بنو نحو بن عمر بن غنم بن غالب بن عيمان ابن نصر بن زهران بن كعب بن عبد الله بن الحارث بن كعب بن مالك ابن نضر بن الأزد .

وفي اللباب لابن الأثير :

النحوي : نسبة إلى معرفة النحو وهو العلم .

وإلى قبيلة .

فأما القبيلة فهم بنو نحو بن عبد شمس .. من الأزد .

---

(١) نفح الطيب جـ ٤ ص ٢٧٢ طبعة مصر سنة ١٣٠٤ هـ .
(٢) ص ٣ .

فإذا فرضنا أن يكون وصفه بالنحوي ، نسبة إلى هذا البطن ، تعين ألا يكون تغلبياً ، إذ لا صلة بين تغلب ، والأزد .

فإن تغلب من قبائل قضاعة ، والأزد من قبائل سبأ .

وقد يكون لفظ التغلبي محرفاً عن الثعلبي بمثلثه في أوله بعدها عين مهملة فإن في بطون الأزد بطناً يعرفون بيني ثعلبة[1] .

كتاب سرقات المتنبي ومشكل معانيه

هذا الكتاب من نفائس المخطوطات التي أخذت الدار التونسية للنشر على عاتقها نشرها .

ومحققه هو محقق كتاب (الواضح في مشكل شعر المتنبي) للأصبهاني سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، صدر سنة ١٩٧٠ في ١٤٨ صفحة من القطع المتوسط ، وهو يمتاز عن الكتب السابقة بأن غرضه مزدوج .

شقه الأول — كما جاء في عنوانه — سرقات المتنبي .

وشقه الثاني — مشكل معانيه .

وقد خالف المؤلف هذا الترتيب في الداخل، فبدأ بمشكل معانيه في أبواب أضافها إلى قوافيها هكذا :

باب قافية الهمزة — باب قافية الباء — باب قافية التاء ...

وبعد أن ينتهي من أبيات المعاني المندرجة تحت قافية الباب ، يورد أبياته

(١) مقدمة المحقق صفحة (ى) .

المسروقة أي الأبيات التي من نفس قافية الباب ، والتي يرى أن المتنبي سرقها من غيره .

وهو يوردها تحت عنوان ثابت هو (فصل في سرقاته) .

أي في سرقات هذا الباب .

أو في سرقات المتنبي المندرجة تحت هذا الباب ، لأنها على نفس قافيته.

وقد جاء الكتاب في سبعة عشر باباً وسبعة عشر فصلا .

هكذا :

باب قافية الهمزة — فصل في سرقاته

باب قافية البـــاء — فصل في سرقاته

باب قافية التـــاء — فصل في سرقاته

لكن قد توالى بابان هما :

باب السين ص ٥٥

وباب الضاد ص ٥٦

كما قد توالى فصلان هما :

١ — فصل سرقات باب قافية القاف ص ٦٧ .

٢ — فصل سرقات باب قافية الكاف ص ٧٣ .

وهذا التوالي في البابين والفصلين سببه وجود نقص في المخطوطة بمقدار ورقة عند توالي البابين ، وبمقدار ورقتين عند توالي الفصلين .

وأبواب الكتاب هي :

١ – باب قافية الهمزة .

٢ – باب قافية الباء .

٣ – باب قافية التاء .

٤ – باب قافية الحاء .

٥ – باب قافية الدال .

٦ – باب قافية الراء .

٧ – باب قافية الزاي .

٨ – باب قافية السين .

٩ – باب قافية الضاد .

١٠ – باب قافية العين .

١١ – باب قافية الفاء .

١٢ – باب قافية القاف .

١٣ – باب قافية اللام .

١٤ – باب قافية الميم .

١٥ – باب قافية النون .

١٦ – باب قافية الهاء .

١٧ – باب قافية الياء .

ولهذه المخالفة بين الترتيب الوارد في عنوان الكتاب والترتيب الوارد في الكتاب – من حيث تقديم سرقات المتنبي على مشكل معانيه في العنوان وتقديم مشكل معانيه على سرقاته في الكتاب .

لهذه المخالفة دلالة احتمالية على تردد المؤلف بين الأمرين . :
أيهما يقدم ، وأيهما يؤخر .

بأيهما يبدأ ، وبأيهما يختم .

ولما لم ينته إلى موقف محدد جعل المسألة قسمة عادلة فبدأ بالسرقات في العنوان وبأبيات المعاني في الكتاب .

وقد كانت للأبيات المسروقة الغلبة على أبيات المعاني ، فهي أكثر منها ، ولو أنه لم يوضح نواحي الأخذ فيها .

كل ما فعله أن أوردها مشفوعة بأنها من قول فلان كذا أو من قول فلان كذا ، وهكذا . فهو مثلا يقول وقوله :

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلل

من قول الشاعر .

لعل سبا يفيد حبا فالشر للخير قد يجر

أو من قول ابن الرومي :

احمد الله إذ رزقت هجاء هو بعد الحمول نوه باسمك

قد تذكرت موبقات ذنوبي فرجوت الخلاص منهما بشتمك (١)

على هذا المنوال جاءت سرقات المتنبي ، وبعبارة أصح : جاءت اتهامات المتنبي بالسرقة في جميع فصول الكتاب .

ولن نعرض لها هنا فهي ليست من موضوعنا ، وقد قلنا ما قلنا عنها تتميما للفائدة ببيان مادة الكتاب .

---

(١) ص ٩٤ .

أما مشكل معانيه :

فقد جاء في اثنين وعشرين ومائتي نموذج ، كل نموذج بيت واحد ، إلا نموذجاً واحداً جاء في نصف بيت هو النموذج ٦٩ .

(اخترتَ دهماتينْ يا مطر) ص ٤٣

والا ً اثنين وعشرين نموذجاً ، كل نموذج منها بيتان وهي النماذج ١٠ ص ٥ ، ٢٧ ص ١٢ ، ٣٧ ص ٢١ ، ٤٨ ص ٢٩ ، ٤٩ ص ٢٩ ، ٦٢ ص ٣٣ ، ٦٧ ص ٦٤ ، ١٠٥ ص ٧٥ ، ١٣٤ ص ٨٥ ، ١٥٥ ص ٨٦ ، ١٧٨ ، ص ١١٤ ، ١٧٩ ص ١١٥ ، ١٨٦ ص ١١٧ ، ١٨٨ ص ١١٧ ، ١٩٢ ، ص ١١٨ ، ١٩٧ ص ١٣١ ، ١٩٩ ص ١٣٢ ، ٢٠٨ ص ١٣٣ ، ٢١٢ ص ١٣٧ ، ٢١٣ ص ١٣٧ .

وقد شمل ابن بسام بنماذجه معظم أبيات المعاني التي جاءت في الكتب السابقة ، وربما التقي في فهمه لها مع غيره ، وربما انفرد بفهم لا يشاركه فيه غيره .

ومما أنفرد به (أ) ما ذهب إليه في قول المتنبي :

وعن ذملان العيس إن ساحت به وإلا ففي أكوارهن عقاب

قال : وأنا غني عن ذملانها وهو سرعة سيرها إن سمحت به ، وإن لم تسمح به فعليها مني عقاب نستغنى بطيرانها عنها وعن ذملانها .

ويحتمل أن يكون دعا عليها بعقاب يأكلها كما قالوا :

« عليه العفا ، وعليه لعنة الله » .

يقول المحقق الفاضل : هذا التفسير مما انفرد به ابن بسام من بين شارحي الديوان وهو حسن [1] .

(ب) ما ذهب إليه في قول المتنبي :

فتى يشتهي طول البلاد ووقته تضيق به أوقاته والمقاصـد

من أن الواو في (والمقاصد) واو المعية فقوله (تضيق به أوقاته والمقاصد) أي معها كما تقول : كيف أنت وزيد ؟ أي مع زيد [2]

(جـ) ما علل به جعل المتنبي الليلة في طول ست ليال بالبيت :

أحاد أم سداس في أحـاد لييلتنـا المنـوطة بالتنـاد

فقد قال :

تشكك فيها لطولها فاستفهم أهي واحدة أم ست ؟ وخص ستاً ، لأنها نهاية ما خلق الله . عز وجل فيها السموات والأرض .

وقوله (في أحاد) يعني في شكل واحدة أو في ضمن واحدة ، ولم يرد أنها مضروبة في واحد ، لأن ذلك لا يفيد [3] .

ومع أن كثيراً من أبيات المعاني عند ابن بسام صعب الفهم بحق إلا أن شرحه لها شرح موجز مركز على عكس شرح ابن سيده فإنه مطنب ومطول . ومهما يكن من إيجازه وتركيزه فإنه – في الغالب – يكون وافياً بالغرض .

فمن الغالب شرحه لهذا البيت :

ياليت باكية شجاني دمعهـا نظرت إليك كما نظرت فتعذرا

---

(١) ص ١٤ .
(٢) ص ٢٨ .
(٣) ص ٣٠ – ٣١ .

قال : أي ليت من يبكي لغيبتي عنه رآك فعذرني في انقطاعي إليك وإيثاري لك[1] .

وشرحه لهذا البيت :

بنا منك فوق الرمل مابك في الرمل وهذا الذي يضني كذاك الذي يبلى

أي هذا الذي يضنينا بسببك مثل الذي يبليك في قبرك[2]

وشرحه لهذا البيت :

ضربن إلينا بالسياط جهالة فلما تعارفنـــا ضربن بها عنـــا

قال : أي تبادروا إلينا قبل أن يعرفونا ، فلما عرفونا انهزموا وهربوا[3]

ومن غير الغالب :

الشرح الجزئي ، والشرح الذي لا يبين ، وعدم الشرح أصلا

فمن الشرح الجزئي شرحه لهذا البيت :

يخدن بنا في جوزه وكأننـــا على كرة أو أرضه معنا سفر

قال : أي ليس لسيرنا في هذه الفلاة غاية كما أن الكرة ليس لها مبدأ ولا منتهي فصارت خطاً واحداً لاعرض له .

هنا لم يشرح ابن بسام قول المتنبي (أو أرضه معنا سفر)[4] .

---

(١) ص ٤٥ .
(٢) ص ٧٧ .
(٣) ١٣١ .
(٤) ص ٤٤ .

وشرحه لهذا البيت :

نظرت إليهم والعين شكرى فصارت كلها للدمع ماقا

أي نظرت إليهم وقد امتلأت عيني عبرة ففاضت من جميع جهاتها ، فصارت كلها كالماق الذي هو مسيل الدمع[1] .

هنا لم يوضح ابن بسام سبب النزول ، أي لم يشرح الظرف الذي قال المتنبي فيه بيته وهو الرحيل ولو أنه فعل لعرفنا أن عقد دموعه قد انفرط منه برغمه .

ومن الشرح الذي لا يبين وهو الشرح المحتاج إلى شرح :

فدانت مرافقهن البرا على ثقة بالدم الغاسل

وما بين كاذتي المستغير كما بين كاذتي البائل

قال : أي قاربت مرافقهن التراب من سعة الخطو وشدة السير واثقة بأن الدم يغسلها والكاذة : لحم في أصل فخذ الفرس .

والمستغير : الذي يطلب الغارة حتى أنها تفحجت فخذاها من شدة السير[2] ومنه :

أمط عنك تشبيهي بما وكأنه فما أحد فوقي ولا أحد مثلي

أي : لا أحد فوقي فيقال : كأنه كذا ، ولا أحد مثلي ، فيقال ما هو ؟ وما جنسه ؟ ، لأن (ما) سؤال عن جنس[3] .

---

(١) ص ٦٦ .
(٢) ص ٧٥ .
(٣) ص ٨٢ .

ومن عدم الشرح أصلا :

وسيفي لأنت السيف لا ماتسله   لضرب ومما السيف منه لك الغمد
ورمحي لأنت الرمح لا ما تبله   نجيعاً ولولا القدح لم يثقب الزند

هذان البيتان من أبيات المعانى للمتنبي وقد اقتصر ابن بسام في شرحهما على قوله : أي وحق سيفي ، وحق رمحي[1] .

ومنه : قال المتنبي :

بسط العــذر في اليمين يمينــا   فتولــوا وفي الشمال شمالا

فقال ابن بسام : هذا من قوله تعالى (ترونهم مثليهم رأى العين)[2]

ومنه قال المتنبي :

بحب قاتلتي والشيب تغذيتي   هواي طفلا وشيبي بالغ الحلم

فقال ابن بسام في شرحه : تغذيتي مبتدأ ، وما قبله خبره ، وهواي : مبتدأ وطفلا : حال يسد مسد الخبر .

هكذا أعرب ابن بسام البيت ، وهو يقصد شرحه ، ويظهر أن ناسخ الكتاب لم يصفه بالنحوي عبثاً[3] .

ومنه قال المتنبي :

تماشى بأيــد كلما وافت الصفا   نقشن به صدر البزاة حوافيا

فقال ابن بسام يشرح : نبه بقوله (حوافياً) على شدة صلابتها[4]

---

(١) ص ٣٣ .
(٢) ص ٨٠ .
(٣) ص ١١٤ .
(٤) ص ١٤١ .

وقد جعلنا هذا نتصور من يسأل عن حيثيات الحكم بأن هذا البيت أو ذاك من أبيات المعاني على الأقل في نظر ابن بسام .

ونجيب بأن الحيثيات كثيرة ، وهي تنتظم الأبيات وتستغرقها ، ولا يعني هذا أن كل بيت يذهب بحيثية بحيث تتعدد الحيثيات بتعدد الأبيات .

والقاسم المشترك الأعظم بين أبيات المعاني هو الغموض .

غموض معنى البيت ، إما لأنه يغوص في العمق ما يشاء ، وإما لأنه غريب أو مرتبك الأداء .

فوصف البيت بأنه من أبيات المعاني ليس مدحاً له على الإطلاق وفي جميع الأحوال ونستعرض بعضاً من أبيات المعاني في كتاب ابن بسام في محاولة للتعرف على سر ورودها في هذا المقام .

١ – قال المتنبي :

فلو غير الأمير غـــزا كلابا   ثناه عن شموسهم ضبـــاب

وقال ابن بسام : عنى بالشموس أماثلهم أو نساءهم ، وبالضباب ما يلقاه دونهم من المكاره التي تثنيه عنهم وتحول بينه وبين الوصول إليهم[1] والاقتصار على هذا الشرح يعني أن سبب جعل البيت من أبيات المعاني إنما هو هاتان الصورتان البيانيتان .

٢ – قال المتنبي :

لذلك سمى ابن الدمستق يومه   مماتا وسماه الدمستق مولـــدا

---

(١) ص ١١ .

وقال ابن بسام : كان ابن الدمستق قد أسر في ذلك اليوم وأفلت أبوه[1] هذا كل ما قاله ابن بسام في شرح البيت ، وهو يعني أن السبب في كونه من أبيات المعاني إنما هو تلك الإشارة التاريخية الخفية .

٣ — قال المتنبي :

يترشفن من فمي رشفـــات هن فيه أحلى من التوحيد

وقال ابن بسام : يريد عندهن لقلة دينهن وغلبة الشهوة عليهن ، ولذلك قال (فيه) ولم يقل (عندي)[2] .

وواضح أنه إنما ذكر هذا البيت في أبيات المعاني ليعطي هذا الاحتراز .

٤ — قال المتنبي :

سأطلب حقي بالقنـــا ومشائخ كأنهم من طول ما التثموا مرد

هذا البيت واضح ، وكان حقه ألا يكون من أبيات المعاني ، لكن أراد ابن بسام أن يطلعنا على سر تعويل المتنبي على المشائخ في طلب حقه قال :

إنما خص المشائخ ، لأنهم أعظم مجداً ، وأكثر صبراً وجداً وأوقد عقلا ورأياً وأقل أملا في الحياة ، وأسخي نفساً بالوفاء ، وكل ذلك من أسباب الظفر ووصفهم بالتلثم ، لأنه من أمارات السر وعلامات الفكر[3] .

٥ — قال المتنبي ملغزاً ببحيرة :

ناعمة الجسم لا عظام لهـــا لها بنـــات وما لهـــا رحم

يبقر عنهن بطنها أبـــدا وما تشكي وما يسيـــل دم

---

(١) ص ٢٨ .

(٢) ص ٣٠ .

(٣) ص ٣٢ .

وقال ابن بسام شارحاً :

يصف بحيرة ، وبناتها : سمكها ، ويبقر : يشق[1] ونفهم من هذا الشرح لهذين البيتين أن سبب كونهما من أبيات المعاني أنهما نوع من الألغاز الشعري .

٦ – قال المتنبي :

أبا الحسين استمع فمد حكم في الفعل قبل الكلام منتظم
وقد توالى العهـــاد منـــه لكم وجادت المطـــرة التي تسم

فقال ابن بسام يشرح :

العهاد : مطر يتكرر ، والوسمي : أول المطر ، لأنه يسم الأرض بالنبات أي افعل ما تمدح به ، فقد تكرر مدحي لكم ، وهذا من بديع الاقتضاء وبديع الاستجداء[2] ونفهم أن سبب عد البيتين في أبيات المعاني إنما هو ما اشتملتا عليه من الطلب في خفاء ، وعلى استحياء .

من مشكل شعر المتنبي عند ابن بسام

– ١ –

وهب الملامة في اللذاذة كالكرى مطرودة بسهـــاده وبكائـــه

أي اجعل الملامة وقدرها في نفسك مما تلتذبه ، كما تلتذ بالكرى ، فما ينفع التذاذه بها إذا كان لا يصل إليها لسقم أعضائه ، وإصغائه كما لا ينفعه التذاذه بالنوم إذا كان السهر والبكاء يمنعانه منه .

(١) ص ١١٤ .
(٢) ص ١٢٥ .

يقال : وهبني الله فداك ، أي جعلني [1] انتهي شرح ابن بسام .

وهذا البيت من قصيدة لها قصة ، وقصتها أن سيف الدولة أعجب بأبيات لأبي ذر سهل بن محمد الكاتب ، فطلب من المتنبي إجازتها ، وقد أجازها في أول الأمر بسبعة أبيات ثم توقف ، ولم يتمالك سيف الدولة نفسه من الإعجاب به فاستزاده ، وكان المتنبي قد اندمج في الموقف الشعري الذي اقترح عليه فمضى إلى أن جعل الأبيات خمسة وعشرين .

وانظر أبيات أبي ذر وقصيدة المتنبي في ديوانه بشرح العكبري ج ١ ص ١ وما بعدها . وشرح ابن بسام لبيت النموذج من الشرح التقريبي ، أي من الشرح المحتاج إلى شرح . وقد نظر فيه إلى شرح ابن جني للبيت ، وقد تصادف أنه فيه غامض فبهت عليه ، ثم هو قد اختصره ، واختصار الغامض يزيده غموضاً .

قال ابن جني : اجعل ملامتك إياه في التذاذكها كالنوم في لذته ، فاطردها عنه بما عنده من السهاد والبكاء ، أي لا تجمع عليه اللوم والسهاد والبكاء ، أي فكما أن السهاد والبكاء قد ازالا كراه ، فلتزل ملامتك إياه .

وقد رد عليه الواحدي وقال :

هذا كلام من لم يفهم المعنى ، فظن زوال الكرى من العاشق ، وليس كما ظن ، ولكنه يقول للعاذل :

هب أنك تستلذ الملامة كاستلذاذك النوم وهو مطرود عنك بسهاد العاشق وبكائه فكذلك دع الملام ، فإنه ليس بألذ من النوم ، فإن جاز ألاتنام جاز ألا تعذل [2] .

(١) ص ٤ .

(٢) شرح العكبري جـ ١ ص ٥ .

والواحدي في نظري ليس خيراً من ابن جني ، ولا من ابن بسام ، كلهم في الهم شرق ، وشرح كل واحد منهم محتاج إلى شرح .

ولنترك البيت للسياق فإنه ينهض له بما عجز الشراح عن النهوض به من توضيحه ، ها هو ذا البيت في كوكبته .

إن المعين على الصبابة بالأسى	أولى برحمـــة ربها وإخائه
مهلاً فإن العذل من أسقامــه	وترفقاً فالسمـــع من أعضائه
وهب الملامة في اللذاذة كالكرى	مطرودة بسهـــاده وبكائه
لا تعذل المشتـــاق في أشـــواقه	حتى يكون حشاك في أحشائه
إن القتيل مضرجاً بدموعـــــه	مثـــل القتيـــل مضرجا بدمائـــه
والعشق كالمعشوق يعذب قربه	للمبتلى وينـــال من حوبائـــه
لو قلت للدنف الحزين فديته	مما به لأغرته بفدائـــه [1]

— ٢ —

من يهتدي في الفعل مالا يهتدي	في القول حتى يفعل الشعـــراء

أي هو الذي يهتدي في الفعل إلى مالا يهتدي إليه الشعراء في القول[2]

وهذا البيت هو البيت العشرون من قصيدة المتنبي في مدح أبي علي هارون بن عبد العزيز الاوراجي الكاتب ، وشرح ابن بسام له من الشرح الموجز المركز . وأحسن منه شرح العكبري له قال : — (الشعراء) فاعل (يهتدي) و (من) بمعنى الذي ، وليست استفهاماً ، وتقدير البيت الذي

(١) العكبري جـ ١ ص ٥ إلى ٦ .
(٢) سرقات المتنبي ومشكل معانيه ص ٦ .

يهتدي في الفعل إلى مالا يهتدي إليه الشعراء في القول حتى يفعل هو ، و (ما) بمعنى الذي ، وموضعها نصب على إسقاط حرف الجر تقديره : إلى الذي لا يهتدي إليه الشعراء .

المعنى : هو الذي يهتدي فيما يفعل من المكارم والمساعي الجسيمة إلى مالا يهتدي الشعراء حتى يفعل هو فيعلموا ، فإذا علموا تعلموا من فعله ، فحكوا ما يفعله بالقول ، لأنهم يهتدون إلى ما يفعله فيحكونه بقولهم [1] .

وقد احتفل المحقق بهذا البيت وعلق عليه بحاشية طويلة امتاح فيها العكبري ونقف من حاشيته هذه عند قوله : وقد انتقد هذا البيت بأن فيه ضعف التأليف المخل بفصاحة الكلام ، لأنه أطال الفصل بين ما حقه أن يوصل ، إذ أخر فاعل يهتدي الثاني ، وقدم عليه حرف الغاية ، وحذف متعلقي (يهتدي) الأول و (يهتدى) الثاني .

قلت : وبذلك كان هذا البيت جديراً بأن يعد في أبيات المعاني [2] .

انتهي كلام المحقق الفاضل ، وهو يعطي رأيه في أبيات المعاني ، فهي الأبيات المضطربة الأداء ، واضطراب الأداء هذا هو ما يسميه علماء البلاغة بالتعقيد ، ويقسمونه إلى تعقيد لفظي وتعقيد معنوي لكن هل أبيات المعاني مقصورة على ذلك ؟ أم تشمله وتشمل غيره من أبيات المعاني التي هي المعاني ؟؟

أرى أن أبيات المعاني تشمل النوعين ، وهي لذلك قد تكون صفة مدح ، وقد تكون صفة ذم .

---

(١) العكبري جـ ١ ص ٢٠ إلى ٢١ .
(٢) هامش رقم ١ ص ٦ .

سرب محاسنه حرمت ذواتها داني الصفات بعيد موصوفاتها

أي هذا سرب حرمت دقائق محاسنه والتلذذ بها والتمتع بنظرها ، فلا أنال منها إلا ذكرها والوصف لها لبعد الموصوف بها وتعذر الوصول إليه ، وعنى بالصفات قول الواصف .

ويحتمل أن يريد بالذوات : صواحب المحاسن تقول :

الهندات ذوات مال [١] .

وهذا البيت مطلع قصيدة قالها المتنبي في مدح أبي أيوب أحمد بن عمران وهو بيت دقيق المعنى ، شطره الثاني مؤكد لمعنى شطره الأول .

وفيه من النحو أن المتنبي أضاف ، (ذوات) إلى الضمير وهو مالا يجيزه البصريون إلا المبرد .

ومن اللغة أن السرب هو القطعة من الظباء والوحش والقطا .

ومن البلاغة : الاستعارة التصريحية في (سرب) ، فهو يعني به النساء الجميلات والمقابلة اللطيفة بين (داني الصفات) و (بعيد الموصوفات) وابن بسام قد شرح البيت شرحاً مبيناً .

ونحمد له تجريده المحاسن التي هي صفات ، وتحويلها إلى ذوات في شرحه الأول للبيت، وتقديمه هذا الشرح على الشرح الثاني يدل على أنه من السراة في الأدب وفي النقد الأدبي .

---

(١) ص ٢١ .

وأبعَدَ بُعْدَنا بُعْدُ التـــداني وأقْرَبَ قربنَا قُربُ البعـــاد

أي أبعد السير بعدنا ، وقوله (بعد التداني) يعني قرب القلوب أي قربا لا أريد زواله ، قال أرسطاطاليس . أقرب القرب مودات القلوب ، وإن تباعدت الأجسام وأبعد البعد تنافر التداني[1] .

هذا البيت هو الرابع عشر في القصيدة التي يمدح بها المتنبي علي بن إبراهيم التنوخي وقبله .

أأرضي أن أعيش وإن أكافي على ما للأمير من الأيـــادي

جزى الله المسير إليه خـــيرا وإن ترك المطايا كالمـــزاد

فلم تلق ابن إبراهيم عني وفيها قوت يـــوم للقـــراد

ألم يـــك بيننا بـــلد بعيـــد قصير طوله عرض النجـــاد

ومعنى البيت على هذا أن المسير بعَّد البعد الذي كان بيني وبين الممدوح وقرب القرب الذي صار بيني وبينه ، يريد أنه قربه إليه بحسب ما كان بينهما من البعد ، يقول : كنت على غاية البعد منه ، فصرت على غاية القرب منه .

والمعنى : أنه جعل البعد بعيداً منه ، والقرب قريباً منه[2] .

هذا هو البيت وضبطه وشرحه في السياق ، لكنه جاء في الكتاب مضبوطاً هكذا :

---

(١) ص ٣١ .

(٢) العكبري ج ١ ص ٣٥٨ .

وأبْعَدُ بعدِنا بعدُ التـــــداني وأقربُ قربِنـــا قربُ البعـــاد

(أبعد بعدنا) مبتدأ ، وهو مضاف ومضاف إليه .

و (بعد التداني) خبر .

و (أقرب قربنا) مبتدأ و (قرب البعاد) خبر .

المعنى على هذا : أن أبعد البعد إنما هو بعد التداني ، أي بعد القرب وهو بعد الخصام ، وهو بعد نفسي تزداد حدته وقسوته إذا كان المتخاصمان يعيشان في مكان واحد أو تحت سقف واحد ومنه هجر الفراش .

وعن أقرب القرب وهو قرب البعاد نقول :

إن إحساس المحب بمحبوبه يكون في حضوره وبقربه أقل منه في غيابه وبعده ، فالشوق يعمل عمله ، ويجعل المحب يذكر الوفاق وينسى الخلاف يذكر الحسنات وينسى السيئات .

أجل ، فذنوب المحبين في القرب قربات في البعد ، ولم يبعد العكبري عن مناخنا عندما تمثل بقوله :

وكم من قريب قلبه عنـــك نازح وكم من بعيد قلبه بك مغرم

والمعنى الذي قلناه هو ماعناه الحكيم أرسطاطاليس ، والمتنبي متهم بأنه قد نظم الفلسفة اليونانية ، فلم لا يكون هذا البيت من هذا القبيل ؟

— ٥ —

وما أنا وحدي قلت ذا الشعر كله ولكن لشعري فيك من نفسه شعر

أي شعري يهواك ويؤثرك ، فهو الذي قال الشعر فيك وطاوعني على

مدحك وليس ذلك على حد قولهم (شعر شاعر) كما قال أبو الفتح ، لأن المقصود بقولهم (شعر شاعر) مدح للشعر لا المقول فيه . وقوله : (لشعري فيك) يؤذن بتقصيره في غير الممدوح ، فلا يكون مدحاً لشعره ، ويحتمل أن يريد أن ما تضمنه الشعر من معاني هذا الممدوح هو الذي أعان على قول الشعر فيه كما قال :

وقد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لساناً قائلا فقـــل (1)

وهذا البيت هو الثامن والثلاثون من القصيدة التي يمدح بها المتنبي علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي(2) وشرح ابن بسام له شرح واف .

وإذا كان الشعر — كما يقول الناقد الإنجليزي ادواردس — **Adwardis** لا يكتب نفسه فإنه عند المتنبي ذو ديناميكية فاعلة(3) .

ماذا ؟ أليس لشعره في الممدوح من نفسه شعر ؟

ولعل هذه الفريدة العجيبة هي التي أهلت هذا البيت ليكون من أبيات المعاني . بل من أبرز أبيات المعاني في شعر أبي الطيب .

— ٦ —

كم من حشاشه بطريق تضمنها للباتـــرات أمـــين ماله ورع

يعني بالأمين القيد .

انتهي شرح ابن بسام لهذا البيت الذي أجهد ابن سيده فيه نفسه وكاتبه

(١) ص ٤٤ .
(٢) العكبري جـ ٢ ص ١٥٨ .
(٣) مشكلة السرقات الأدبية للدكتور هدارة ص ٢٥٤ .

وقارئه . أجل كاتبه فابن سيده كان مستطيعاً بغيره ، كان يملي ، ومع هذا فقد رأينا كيف وفي البيت حقه .

أما صاحبنا ابن بسام ، فهذا هو جهده ، ولعلنا لم ننس بعدما استوقف ابن سيده من فنيه ، ومن مفارقة موضوعية لوذعية في (أمين ماله ورع) .

وها هو ذا العكبري يبدي إعجابه ويقول رأيه : قوله : (أمين ماله ورع) من أحسن الكلام ، لأن الأمين هو الذي يؤتمن على الأشياء فلابد له من ورع[1] .

— ٧ —

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

أفاض ابن بسام في شرح هذا البيت بمالا نجد له نظيراً في كتابه قال :

قد طعن في عجز هذا البيت من ثلاثة أوجه :

أحدها أنه غير مناسب لأوله في الجزالة .

والجواب : أن الشاعر في آخر البيت أعذر منه في أوله ، لأن المبتديء مختار ، والمتمم مضطر ، وقد قال امرؤ القيس :

وليل كموج البحر أرخي سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلى

وقال بشار :

يسقط الطير حيث ينتثر الحـ ـب وتغشى منازل الكرماء

وقال آخر :

ألا أيها النوام ويحكم هبوا أسائلكم هل يقتل الرجل الحب

(١) سرقات المتنبى لا بن بسام ص ٥٧ والعكبري ج ٢ ص ٢٢٩ .

فأين أواخر هذه الأبيات من أولها في الخزالة ؟

والثاني: أن وقوف الشحيح على طلب خاتم ليس مما يتناهي فيه ويضرب به المثل في الطول .

والجواب : أن المقصود منه الحيرة والهيئة لا شبه المدة .

والثالث : أن الخاتم إن كان كثير الثمن ، فكيف يضرب المثل في الشح بمن جاد به على نفسه ؟

وإن كان قليل الثمن فما عسى أن يبلغ أسفه على تافه حقير ؟

والجواب : أن الشحيح لا يتخذ خاتماً إلا عن ضرورة فادحة أو أمر غالب فشددها عليه لشدة حاجته إليه وصعوبة إيجاد غيره عليه وقد قيل : المراد بالخاتم ما يبقي من نفقته فيكون ذهابه عليه أصعب [١].

انتهي كلام ابن بسام وهو محلوب من كلام ابن جني ، لم يصرح ابن بسام بذلك ولو أنه قد بنى الفعل للمجهول فقال : (قد طعن) و (قد قيل) كما بناه ابن جني للمجهول وقال (وقد عيب)[٢] .

والبيت هو الرابع من أول قصيدة مدح بها المتنبي سيف الدولة أبا الحسن علي بن عبد الله العدوي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة عند نزوله أنطاكية ومنصرفه من ظفره بحصن برزويه ، وكان جالساً تحت شراع ديباج ، فأنشده[٣]

— ٨ —

يا أخت معتنق الفوارس في الوغي لأخوك ثم أرق منك وأرحم

يرنو إليك مع العفاف وعنـــده أن المجوس تصيب فيما تحكم

(١) ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٢) العكبري ج ٣ ص ٣٢٤ .

(٣) العكبري ج ٣ ص ٣١٨ .

سار أبو الطيب من الرملة يريد أنطاكية سنة ٣٣٦ فنزل بطرابلس ، وبها إسحاق بن إبراهيم الأعور بن كيغلغ ، وكان جاهلا ، وكان يجالسه ثلاثة نفر من بني حيدرة ، وكان بينه وبين أبي الطيب عداوة قديمة فقالوا له :

أتحب أن يتجاوزك ولا يمدحك ، وجعلوا يغرونه ، فراسله أن يمدحه ، فاحتج عليه بيمين لحقته لا يمدح أحداً إلى مدة ، فعاقه عن طريقه ينتظر المدة ، وأخذ عليه الطريق وضبطها ومات النفر الثلاثة الذين كانوا يغرونه في مدة أربعين يوماً فهجاه أبو الطيب وأملاها على من يثق به ، فلما ذاب الثلج خرج كأنه يسير فرسه وسار إلى دمشق ، فأتبعه خيلا ورجلا فأعجزهم ، وظهرت القصيدة وكان مطلعها :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم　　عرضا نظرت وخلت أني أسلم

والبيتان اللذان معناهما البيتان الثاني والثالث منها .

أوردهما ابن بسام على أنهما من أبيات المعاني ، وقد صدر شرحه لهما بتفسير ابن جني قال : قال أبو الفتح : رمي المهجو بأخته ، وبالأبنة ، وقوله (ثم) إشارة إلى موضع الفاحشة ، فعلى هذا يريد بالفوارس من يركبه عند الفاحشة ، ويريد بالعفاف عدم القدرة على الوطء .

ولا يوافق ابن بسام على كلام ابن جني ، وإنما جعله دبر أذنه بقوله :

والأشبه عندي أن يريد ما شبهه معتنق الفوارس في الوغي يعني نفسه وقوله (لأخوك ثم أرق منك) مبالغة في وصفها بالقسوة وقلة الرحمة .

وقوله (يرنو إليك مع العفاف) أي لو اعتقد أن المجوس تصيب فيما تحكم به من نكاح الأخوات لعف عنك ، فكيف وهو بخلاف ذلك ؟!

ويبرر ابن بسام رأيه بقوله : فهذا أشبه مما قبله ومما بعده ، لأنه تغزل ثم خرج إلى الهجو بعد[1] ومعنى كلام ابن بسام أن المتنبي بقوله : (يا أخت معتنق الفوارس) كأنه قال (يا أختي) فمعتنق الفوارس هو المتنبي ، وهو برغم فتكه بأقرانه أرحم منها في فتكها به يبالغ في وصف نفسه بالشجاعة من خلال الغزل ، ويبالغ في الغزل من خلال وصف نفسه بالشجاعة .

لقد أصاب عصفورين بحجر واحد . ولا عجب ، فهو المتنبي .

— ٩ —

فقبلت ناظري تغالطني　　وإنما قبلت به فاها

فليتها لا تزال آوية　　وليته لا يزال مأواها

هذان البيتان هما البيتان ٤ ، ٥ من القصيدة التي مدح بها المتنبي أبا شجاع فناخسرو سنة ٣٥٤ هـ[2] .

وقد وفاهما ابن بسام – كابن سيده – حقهما من الشرح قال :

أي رأت شخصها في ناظري فقبلت فاها ، وهي توهم أنها تقبل ناظري .

وقوله (لا تزال آويه) أي ليت هذه المرأة لا تزال آويّ الناظر ، وكان حقه أن يقول : آويته لكنه ذكر على معنى الشخص ، أي لا يزال شخصاً آويه ، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه .

ويجوز أن يريد آويه شخصها أو فوها فحذف المضاف وأقام الضمير المضاف إليه مقامه ، فلما ارتفع الضمير استتر ولم يبرز ، لأنه الأول ، فقد جرت الصفة في اللفظ على من هي له .

(١) سرقات المتنبي ص ١١٥ – ١١٦ .
(٢) العكبري ج ٤ ص ٢٧٠ .

ونظيره في مراعاة اللفظ دون المعنى قولهم ، مررت بامرأة حسنة الوجه ، فاستتر الضمير في حسنة ، لما كان في اللفظ للمرأة ، وإن كان في المعنى للوجه .

وكذلك قولهم : هذا جحر ضب خرب ، أي خرب جحره ، ففعل به ما قلناه .

وهذا شيء عرض ، فلنعد إلى ما هو الغرض[1] .

* * *

ونمسك بالعبارة الأخيرة التي هي (وهذا شيء عرض فلنعد إلى ما هو الغرض) لنقرر أن ابن بسام هكذا دائماً ، لا يبعد كثيراً ، بل لا يبعد أبداً عن غرضه أي لا يستطرد ، وهي طريقة مثلى في التأليف أجدر بأن تتبع .

— ١٠ —

أريك الرضى لو أخفت النفس خافياً ولا أنا عن نفسي ولا عنك راضياً

أي أتجمل وأريك أني راض عنك والنفس تبدي خلاف ذلك .

وقوله : (ولا أنا عن نفسي ولا عنك راضياً) محمول على المعنى ، لأن معنى (لو أخفت النفس) ليست النفس مخفية .

* * *

ويجوز أن تكون (لا) بمنزلة (ليس) كما قريء (ولات حين مناص)[2] .

---

(١) سرقات المتنبي ص ١٣٧ — ١٣٨ .
(٢) ص ١٤١ .

هذا البيت مطلع قصيدة في هجاء كافور[1] .

وهو بيت سهل لم يكن محتاجاً إلى شرح ، ومثله غيره كثير وهو آخر بيت في الكتاب .

قال ابن بسام بعده ، وبعد بيت ادعي على المتنبي سرقته :

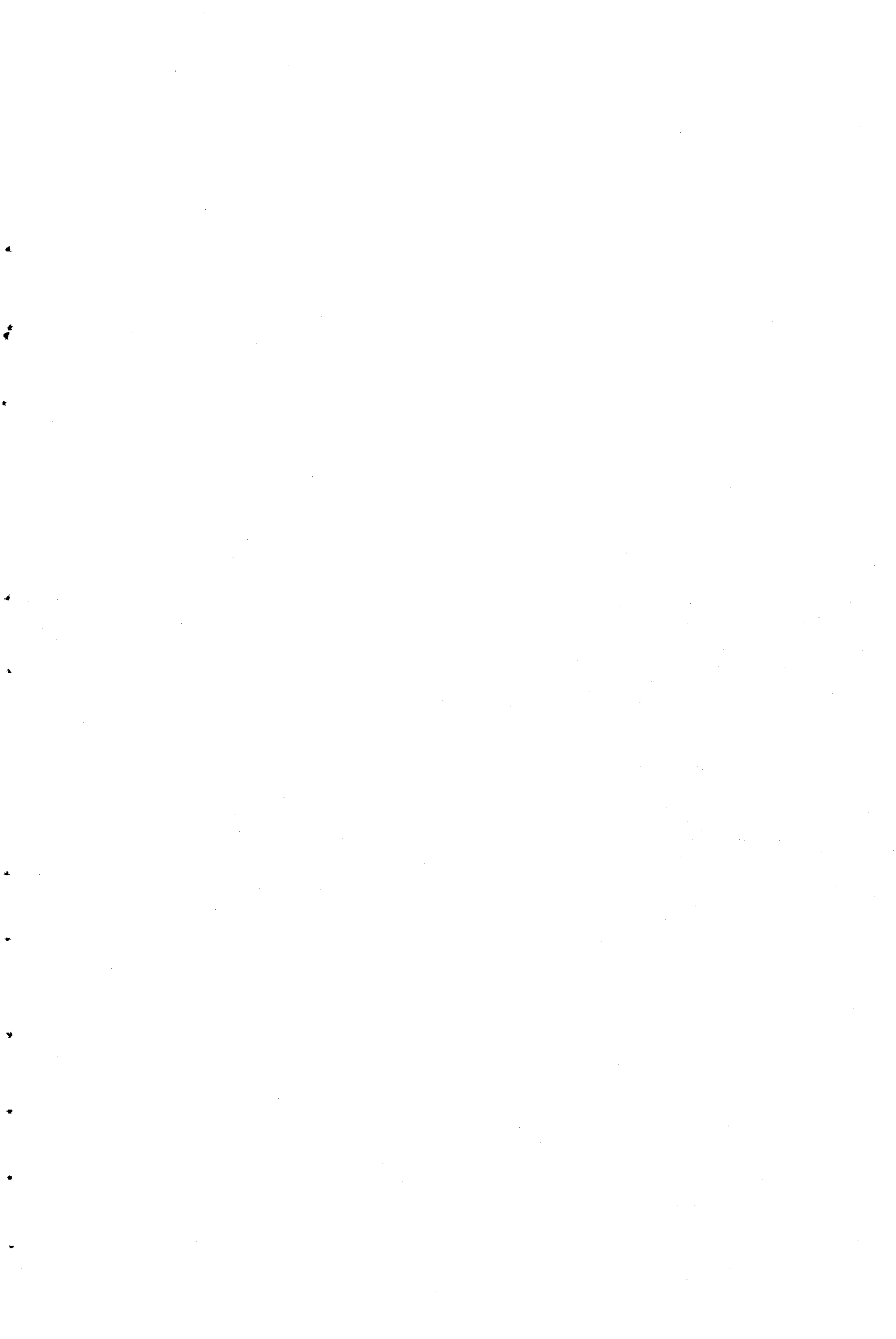
وهذا القدر كاف فيما رمناه ومغن عن تتبع ما سواه ، إذ ليس قصدنا إلا الوقوف على بعضه ، والمشاركة فيه دون استيعاب جميعه ، وما توفيقنا إلا بالله سبحانه ، والحمد لله حمد الشاكرين .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .

(١) العكبري ج ٤ ص ٢٩٤ .

الفصل الخامس

باكثير الحضرمي وكتابه: تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والعيب



الفصل الخامس
عبد الرحمن بن عبد الله باكثير الحضرمي
في كتـــابه

«تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب»

باكثير : باكثير الحضرمي هو الشيخ الإمام العالم العلامة الحبر العمدة الفهامة ، البحر الأديب والذكي الأريب ، أقضى القضاة ، وجيه الدين عبد الرحمن بن عبد الله باكثير الحضرمي المكي الشافعي القاضي بجدة .

* * *

هذه الكوكبة من الألقاب والصفات ليست من عندي ، وإنما هي مما وجد على أغلفة كتابه (تنبيه الأديب) نسخ : الحرم المكي ، والاسكوريال ، ودار الكتب المصرية .

يقال (باكثير الحضرمي) لكل من ظهر واشتهر من عائلة باكثير الحضرمية ، وهي عائلة يمنية معروفة برجالها من الأدباء والعلماء وذوي الجاه ، كعبد الله بن فضل باكثير الحضرمي ، كان من جلساء الحسن بن أبي نمي شريف مكة .

وكعبد الرحمن بن السيد أحمد باكثير الحضرمي المتوفي سنة ١٠٨٠ هـ صاحب كتاب (كشف الغبار عن الإشارات فيما بقي من عمر هذه الدار) .

* * *

لكن يبدو أن عبد الرحمن صاحب (تنبيه الأديب) كان أبرز هذه العائلة .

ومن أخباره :

أنه سكن مكة ، وأنه تولى قضاء جدة ، وأنه كان من المقربين لدى أشراف مكة في القرن العاشر الهجري ، وقد اختص من بينهم بمحمد أبي نمي ابن بركات ممدوحه في أكثر من قصيدة ومن أهداه كتابه (تنبيه الأديب)

والفترة المؤرخة من حياة عبد الرحمن هي الفترة من منتصف العقد الخامس إلى منتصف العقد الثامن من القرن العاشر الهجري (٩٤٥ ــ ٩٧٥) يدل على ذلك ما ذكره الطبري المكي في كتابه المخطوط (فضلاء الزمن ١ـ٢٠٦) من أنه في سنة ٩٤٦ ﻫ توجه الشريف أبو نمي لأخذ جازان ، وصاحبها إذ ذاك عامر بن عزيز ، فأخذها الشريف ، وفر صاحبها فأقام بها الشريف قائداً من جهته لضبطها ، ورجع ظافراً منصوراً ، ومدحه مولانا الشيخ القاضي عبد الرحمن بن عبد الله باكثير بقصيدة طويلة ضمنها أخذ جيزان وانتصارات أبي نمي وهذه أبيات منها :

لقد شرعوا دون الكواكب خرصانا — وقد طنبوا الأخدار بيضا ومرانا
ظبــاء وأجفان الظباء رقابهم — تجول خلال الحي ترقب ماكانا
وألسنة السمر العوالي وشاتهم — فتصغي لأخبار المجيدين آذانا
وطاولت السبع الطباق لأنهــا — مواطن قد صارت لها طوع مولانا
أجل ملوك الخافقين أبي نمي — مليكا هدى ملكا كبيرا وسلطانا
مليك على كل الملوك لأنــه — على جده قد أنزل الله قرآنا

ولما عين أحمد بن أبي نمي شريكاً لأبيه في الحكم سنة ٩٤٧ ﻫ هنأه

بقصيدة طويلة عدتها اثنان وأربعون ومائة بيت منها :

وفت صبها بعد الجفا غادة عذرا ومذ لامها قالت : لعل له عذرا

وزارته لكن بعد طول تشوق إليها ولا لوم عليهـــا ولا وزرا

وكما امتدح أبا نمي وابنه أحمد .

امتدح ابنه الثاني الحسن بأكثر من قصيدة ، يقول في واحدة منها :

زارت تريك الوجه من وجه حسن ومن الجفون تهز مرهف ذي يزن

لحظا سقاه السحر من هاروتـــه كحلا وأرهقـــه بدعجيـــه وسن

وهي طويلة جداً أيضاً يقول في ملخصها :

لكن دهري حين خاف عتبته فأجاب معتذرا بما يجلو الحزن

وبما يسربه الوجود وقال عن فعل القبيح رضا وسعيك للحسن

المالك الملك الذي هزت به أعطافها العلياء واستتر الزمن

ولما تولى الحسن حكم مكة سنة ٩٧٤ هـ هنأه باكثير بهذه التولية ، ثم انقطعت أخباره نهائياً ، فلم نعرف على وجه التحديد : متى مات ؟ كما لا نعرف على وجه التحديد : متى ولد ؟ . [١]

تنبيه الأديب

كان ظهور كتاب (تنبيه الأديب) إلى عالم النور في القرن العاشر الهجري ظاهرة صحية وعملا طيباً ، لو أن صاحبه — غفر الله له وسامحه — كان أصيلا فيه ولو بنسبة ٣٠ ٪ .

أما والكتاب ليس كذلك فنحن معذورون إذ نضيفه إلى ما يعرف اليوم

(١) مقدمة المحقق ص ٧ — ١١

بالمذكرات وهي نصوص طويلة أو قصيرة ، مقتبسة من كتب مختلفة لكنها تخدم قضية واحدة ، وتعالج موضوعاً واحداً ، لا يتصرف فيها جامعها وإنما يعجل إلى طلابه بها على حالها ليذاكروها ويمتحنوا فيها ، لا يستطيع أن ينسبها إلى نفسه وإن توجها باسمه .

والكتب التي جمع منها ما سماه (تنبيه الأديب) هي :

١ ــ الرسالة الحاتمية : لأبي علي محمد بن الحسن الحاتمي المتوفي سنة ٣٨٨ هـ وقد رجع إليها بل نقل عنها ما ادعاه الحاتمي على المتنبي من عقد حكم الحكماء في شعره المضاهي لكلام أرسطو .

٢ ــ يتيمة الدهر لعبد الملك بن محمد أبي منصور الثعالبي المتوفي سنة ٤٢٩ هـ وقد نقل عنه فصولا برمتها هي الفصول الخاصة بسرقات المتنبي من الشعراء ، وسرقات الشعراء من المتنبي ، وأمثال المتنبي في بيت كامل وفي نصف بيت .

٣ ــ شرح الواحدي عليّ بن أحمد المتوفي سنة ٤٦٨ هـ ولو أن نقله عنه من خلال العكبري كان أكثر من نقله عنه مباشرة .

٤ ــ التبيان في شرح الديوان : لأبي البقاء العكبري المتوفي سنة ٦١٦ هـ وقد نقل منه جميع ما يتعلق بإعراب الأبيات ، وتوضيح غريبها وبيان معانيها وآراء الشراح فيها .

٥ ــ معاهد التنصيص : لعبد الرحيم بن أحمد العباسي المتوفي سنة ٩٦٣ هـ وقد نقل منه كل ما يتعلق بحياة المتنبي ، وكثيراً من الأخبار الأدبية والشواهد والاستطرادات والتعليقات على الأبيات .

هذه هي (مصادر) تنبيه الأديب .

لم يشر إليها باكثير ، ولم ندمغه بالسرقة الأدبية ، لأنه لم ينسب ما أخذه منها لنفسه وإنما كان يصدر كل ما ينقله عنها بقوله (قال بعضهم) أو (ولبعضهم) ونحو ذلك مما يبرأ به من ثبوت السرقة عليه .

ويظهر أنه كان يقصد سوق المعلومات إلى المتعلمين دون أن يشق عليهم بتوثيقها ، وهذا القصد – لو صح – لا يشفع له ، ولا يعفيه من المؤاخذة .

وقد نلمح من خلال هذا الركام المتناثر فكرة خاصة بالمؤلف ينقدح بها عقله من وقت لآخر .

والحسن والمعيب في شعر المتنبي يعني شعر المتنبي كله ، فهو إما حسن وإما معيب ، والشعر إذا لم يكن حسناً فهو معيب ، وإذا لم يكن معيباً فهو حسن .

وإنه وإن لم يجعل الحضرمي هذين الطرفين مستغرقين لشعر المتنبي إلا أنهما مستغرقان له ولأبيات المعاني منه فعلا .

وإذا كانت أبيات المعاني في شعر المتنبي قد دخلت في المعيب والحسن من شعره قياساً وعقلا ، فإنها قد دخلت فيهما كذلك سماعاً ونقلا ، ذلك أنها كلها أو معظمها موجودة في (تنبيه الأديب) لا يهمنا أن تكون حسنة أو أن تكون معيبة ، وإنما يهمنا أن تكون مشروحة وهذا هو واقع أمرها أو أمر كثير منها .

وإذا كنا لا نكاد نجد جديداً هنا فإن عزاءنا أننا كنا كذلك في كثير من تنقلنا بين الكتب التي تكلمت عن أبيات المعاني في شعر المتنبي .

فليكن تنبيه الأديب هو نافلة القول فيما قلنا .

والنسخة التي معنا من مطبوعات وزارة الأعلام العراقية ، أصدرتها في تشرين الأول سنة ١٩٧٧ م بمناسبة مهرجان المتنبي في ٤٠٩ صفحة من القطع الكبير تقديم وتحقيق الأخ الدكتور رشيد عبد الرحمن صالح .

مضمون الكتاب ومنهجه وسبب تأليفه :

عرض الحضرمي لسبع وخمسين قصيدة من شعر المتنبي ، يستحسن أبياتاً ويستقبح أبياتاً من كل قصيدة .

وهو لا يقول إذا استحسن . لم استحسن .

وقد يقول إذا استقبح : لم استقبح ، ذلك أنه يعول في النوع الثاني على غيره فهما ونقلا .

* * *

وهذه القصائد مرتبة على حسب قوافيها تبعاً للأبجدية العادية ، فقافية الهمزة تسبق قافية الباء وهكذا .

وهذا بيان بقصائد كل قافية :

القافية	عدد القصائد	القافية	عدد القصائد
الهمزة	١	الشين	١
الالف	١	العين	٣
الباء	٩	الفاء	١
التاء	١	القاف	٤
الدال	٥	الكاف	١

تابــــع

القافية	عدد القصائد	القافية	عدد القصائد
الذال	١	اللام	١٢
الراء	٣	الميم	٥
الزاي	١	النون	٥
السين	١	الهاء	١
		الياء	١

وتحرك باكثير داخل القصائد ليس له معدل ثابت ، فهو مرة مقل ، ومرة مكثر ، ومهما يكن من أمر ، فقد بلغ عدد الأبيات التي تعرض لها في كتابه ٤٠٦ بيتاً : نصفها إلى ثلاثة أرباعها من أبيات المعاني ، وهو الذي سنركز عليه هنا .

لكن ذلك لن يمنعنا من أن نورد أبياتاً غيرها شرحها ، لنرى كيف شرحها ومن أين أتى بهذا الشرح .

ولنذكر أن مخطوطة دار الكتب المصرية معنونة .

(شرح بعض ديوان أبي الطيب)

وهذا البعض الذي هو ٤٠٦ يقل قليلا عن عشر ديوان المتنبي ، إذ تبلغ عدة أبياته ٥١٧٣ بيتاً .

ومن منهجه أنه يقتصر في شرحه على الشعر الذي « لا يهتدي إليه إلا فكر ذكي ألمعي ، ولا يميط عنه النقاب إلا فهم كل أديب لو ذعي »[١] .

(١) مقدمة الكتاب ص ٤٥ .

وهو من هنا يبدأ ، اسمع قوله :

(وكلما أوردت بيتاً أمطت عن وجه معانيه النقاب ، وذكرت معه ما يحتاج إليه من لغة وإعراب وأجبت عن مشكله بأوضح الأجوبة وأرحت الواقف عليه من أن يكد فكرة في فهمه أو يتعبه)[1] .

أما بعد ، فالكتاب — عدا المقدمة والخاتمة — بابان .

الباب الأول في الحسن والمعيب من شعر أبي الطيب .

والباب الثاني في سرقة الشعر .

وهو فصلان :

الفصل الأول في سرقات المتنبي من الشعراء .

والفصل الثاني في سرقات الشعراء من المتنبي .

والباب الأول معنا ، أما الباب الثاني فليس معنا .

وتنبيه الأديب لهذا يشبه (سرقات المتنبي ومشكل معانيه) لابن بسام .

لكن لم ألف باكثير كتابه ؟

الإجابة عن هذا السؤال تتلخص في أن المعركة بين أنصار المتنبي وخصومه ظلت في القرن العاشر الهجري على ما كانت عليه في القرن الرابع الهجري من حيث ارتفاع درجة حرارتها .

وكما ألف القاضي الجرجاني (الوساطة بين المتنبي وخصومه) ألف القاضي الحضرمي (تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب) .

(١) مقدمة الكتاب ص ٤٦

ولندعه هو يتكلم قال: (ولما صار لكل (من المتنبي وأبي تمام) ذام ومادح ، وشاكر وقادح، تفرقوا فرقاً فيما يزين أبا الطيب أو يشينه وأكثروا الفحص فيما يعزه أو يهينه وأطالوا التعصب عليه وله فيما يظهر موجب مدحه أو تنقصيه، وألفوا الكتب في توضيح مشكل كلامه وحل عويصه ،ولم يكن الإجماع عليه منعقداً، ولم أره سالماً من طاعن أو معترض أو منتقد أردت أن أخبر خبره ، لا بالتقليد بل بالاجتهاد ، وانظر أحقاً أم باطلا قول الذين سلقوه بألسنة حداد ، فشمرت حينئذ عن ساعدي الجد بنيل المطلوب ، وتحصيل المراد ، وتبعت جميع كلامه ، لأطلع على ما فيه من المحاسن وما فيه من الانتقاد[1] .

ومما تقدم نعلم أن أبيات المعاني في شعر المتنبي جاءت في (تنبيه الأديب) لكن مجيئها فيه كان عرضاً لا قصداً ، فلم يقصد الحضرمي أن يؤلف فيها رأساً علما بأنه ألفي (أبكار معاني قريضه لم يطمثهن إنس قبله ولا جان ولم يحلق طائر فكر على معاقل ألفاظه الجزلة ، ولم يحم سائح قريحة على مخدرات فكرته الولود ، ولم يمد باعث خاطر ناظره إلى مصونات قريحته القانصة لكل معنى شرود[2] .

ومن عجب أن هذا الإطراء العظيم لمعاني شعر المتنبي لم يتمخض عن تأليف مباشر في هذه المعاني .

ويستوي عندنا أن يكون مجيء أبيات المعاني في (تنبيه الأديب) قصداً أو عرضاً مباشراً أو غير مباشر .

المهم أن تكون موجودة فيه ، وهذا حاصل فعلا .

وسنقف عند هذه النماذج منها .

(١) مقدمة الكتاب ص ٤٣ .

(٢) مقدمة الكتاب ص ٤٣ .

— ١ —

المتنبي :

أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب وردوا رقادي فهو لحظ الحبائب

الحضرمي : قيل : معناه : ردوا الكواعب والحبائب ليرجع صباحي فأبصر أمري ويرجع منامي إذا نظرت إليهن .

وفيه بُعـــد .

وقال بعضهم : معناه أن دهري ليل كله ، ولا صباح لي إلا وجوههن وليلي سهر كله ولا رقاد لي حتى أراهن .

وألفاظ البيت لا تساعد على هذين المعنيين .

ولو قيل : إن قوله (أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب) كناية عن طول ليله وامتداده وأنه لا صباح له ، لأن صباحه عند حبائبه الكواعب اللائي بن عنه وبعدن وهجرنه ، وطال ليله لطول هجرهن ، فكأنه قد فقد صباحه لفقد حبائبه الكواعب ، فهو يطلب عود صباحه ، إذ لا يعود صباحه إلا إن عاد أحبابه الكواعب . وإن قوله (وردوا رقادي فهو لحظ الحبائب) كناية عن ضعف رقاده وقلته لكونه جعله لحظ حبائبه ، ولحظ حبائبه أي نظرهن له ضعيف قليل لعدم رؤيتهن له بطول بعده ، لم يكن بعيداً .

والمتحصل من معنى البيت : أن ليله لا صباح له ، وأنه لا رقاد له وإن كان فهو قليل كلحظ الحبائب له .

هذا المتبادر من جوهر ألفاظ البيت[1] .

(١) تنبيه الأديب ص ٧٨ — ٧٩ .

انتهي شرح الحضرمي للبيت ، وهو شرح مجلوب من ابن جني ، فهو صاحب ما بعد (قيل)، ومن ابن فورجة فهو صاحب ما بعد «وقال بعضهم».

وبعد أن أوردها ذهب إلى أن ألفاظ البيت لا تساعد عليهما ثم شرع في شرح البيت فأطال ، ولما قارب الإملال قال والمتحصل من معنى البيت كذا

وهذا المتحصل ما هو إلا كلام ابن فورجة ، وكان قد رفضه . لكن يحمد له أنه وضحه حتى أقنعنا به ، وحتى خلنا أنه لا شرح للبيت إلا هذا الشرح ، ولا معنى له إلا هذا المعنى .

— ٢ —

وكلما لقي الدينـــار صاحبـــه في ملكه افترقا من قبل يصطحبا

هذا البيت من قصيدة قالها المتنبي يمدح بها المغيث بن علي بن بشر العجلي مطلعها :

دمع جرى فقضى في الربع ما وجبا لأهـــله وشفي أني ولا كربا[1]

أورد الحضرمي بيت النموذج وجعله من عيوب بل أول عيوب هذه القصيدة ، مبرراً ذلك بقوله :

فإن معنى هذا البيت متناف ، وذلك أن نصفه الأول صريح في أن الدينارين يلتقيان في ملكه . .

ونصفه الثاني صريح في أنهما يفترقان من قبل الاصطحاب .

فظاهر مصراعي البيت التناقض .

(١) العكبري ج ١ ص ١٠٩ .

وقد أجيب عنه بأنهما يلتقيان مجتازين .

وهذا جواب ليس يقوى ، مع أن البيت قد اشتمل على عيب آخر من جهة العربية وهو حذف (أن) وإبقاء عملها في (يصطحبا) لكنه — على ما فيه — أبلغ من بيت جرير يقول :

إنا إذا اجتمعت يوما دراهمنا ظلت إلى طرق المعروف تستبق

لأنه (بيت جرير في زعمه) أثبت لها اجتماعاً لكنه أرق وأحشم من بيت المتنبي . وقريب من قول المتنبي البيت الذي قبل بيت جرير وهو :

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا لكن يمر عليها وهو منطلق

وما أحسن قول ابن النقيب في المعنى .

وما بين كفي والدراهم عامر ولست بها دون الورى ببخيل
وما استوطنتها قط يوما وإنما تمر عليها عابرات سبيـــل

وما ألطف قول السراج الوراق :

إن الدراهم مسهـــــا ألم يشق على الكـــرام
الضرب أول أمرهــا والحبس في أيدي اللئام
ماذا على شؤم الـــدرا هم من مقاساة الأنـــام
ولخوفهـــا من ذا وذا ك تفر من أيدي الكرام

هكذا رأيت (الكرام) مكررة في هذه الأبيات .

ولطيف قول بعضهم :

رأيت الدراهم تبغضني كأني قتلت أبا الدرهم

ولمؤلفه قديماً :

لما شكوت إلى الدينار ذات يدي ... وما ألاقيه من فقري ومن محني

فقال لي : لا تحدث قط نفسك بي ... أنا المعيدي تسمع بي ولا ترني

وله أيضاً :

الهم آخـــر درهم ... والنار للدينار آخـــر

قـــد أتعبـــا كل الورى ... وعليهما الإنسان دائر[1]

انتهي باكثير وما ذكره في صدر كلامه مأخوذ من كلام ابن جني لكن بعد خلطه بغيره ، وإدخال رأسه في كمه ، وتغيير بعض أجزائه .

وقد تسبب ذلك كله وغيره في نسبة بيتين إلى جرير . أما أولهما فلجؤية بن النضر ، وأما الآخر فمجهول القائل ، هذه واحدة .

والثانية : أنه لم يرتض التقاء الدرهمين متجاوزين غير مصطحبين علماً بأنه هو الحل الأمثل لشبهة التناقض والتفسير السليم للبيت ، لأن الصحبة مرحلة تالية للقاء :

نلتقي أولا ، وبعد اختيارنا لبعضنا وتآلف أرواحنا نصطحب .

والثالثة : حكمه بأن البيت الذي نسبه إلى جرير أرق ، وأحشم من بيت المتنبي .

وإذا سلمنا له أنه — جدلا — أرق .

فبم أو فيم كان أحشم .

(١) تنبيه الأديب ص ٨٤ — ٨٦ .

وما التقليد أو العرف أو الدين أو الخلق الذي كسر المتنبي عصا طاعته ، وخرج بفعله عن أصول الحشمة .

وأبيات ابن النقيب ، والسراج الوراق من معاهد التنصيص ج ١ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

أما (لطيف قول بعضهم) فمن معاهد التنصيص أيضاً و ص ٢٠٨ أيضاً لكن ج ٢ .

وبعد ذلك كله نورد شرح ابن جني لنرى أنه قال الكلمة الفاصلة في شرح البيت بلا نتوء ولا التواء ولا عسر هضم .

قال : هذا صحيح المعنى على ما في ظاهر لفظه من مقارنة التناقض ، وذلك أنه قد يمكن أن يقع التقاء من غير اصطحاب ، لأن الصحبة مقرونة بالمواصلة . يريد : إنما يلتقيان مجتازين مصطحبين ، وهذا أبلغ من قول جؤية بن النضر :

إنا إذا اجتمعت يوما دراهمنا   ظلت إلى طرق العلياء تستبق

لأن (جؤية) أثبت لها اجتماعاً ، وهذا (المتنبي) نفي عنها الاصطحاب .

وأما بيت جؤية : فهو أجود من بيت المتنبي ، وأزيد في المعنى ، وذلك أن أبا الطيب أثبت اجتماعاً بقوله (افترقا) ، إذ لا تكون الفرقة إلا بعد اجتماع ، ثم إن حؤية زاد استباقها إلى طرق المعروف .

ومثل بيت المتنبي قول الآخر :

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا   لكن يمر عليها وهو منطلق(١)

(١) العكبري ج ١ ص ١١٦ .

وترى المروءة والفتوة والابــو ة فيَّ كل مليحــة ضراتهـــا
هن الثلاث المانعاتي لــــذتي في خلوتي لا الخوف من تبعاتها

هذان البيتان من قصيدة فيها الكثير من أبيات المعاني .

فمطلعها وهو :

سرب محاسنه حرمت ذواتهـــا داني الصفات بعيد موصوفاتها

أحد أبيات المعاني .

والأبيات من ١٠ — ١٤ منها من أبيات المعاني وهي :

ومطالب فيها الهلاك أتيتهـــا ثبت الجنان كأنني لم آتهـــا
ومقانب بمقانب غادرتهــــا أقوات وحش كن من أقواتها
اقبلتها غرر الجيـــاد كأنمـــا أيدي بني عمران في جبهاتها
الثابتين فروسة كجلودهـــــا في ظهرها والطعن في لباتهـــا
العارفين بهـــا كما عرفتهم والراكبين جدودهم أماتها[1]

ثم البيتان المكونان للنموذج . شرحهما باكثير فقال :

إن كل مليحة ترى ضراتها فيَّ المروءة والفتوة والأبوة .

وإنما أترك لذتي لهذه الثلاث الخصال ، لا للخوف من تبعات المعصية ، والبيتان مليحان لو سلما من النهور في البيت الثاني فإنه شنيع أعاذنا الله منه[2].

* * *

(١) العكبري جـ ١ ص ٢٢٥ وما بعدها .
(٢) تنبيه الأديب ص ١٠٢ .

النقد هنا غير فني. والحضرمي في هذه الناحية متشدد جداً فمنهجه النقدي ديني أخلاقي، وقد كثرت لهذا مؤاخذته الدينية والأخلاقية لما يراه خروجاً من المتنبي على قواعد الدين والأخلاق.

وهو في هذا المقام ينسى نفسه ويشتم، يشتم بسوء الأدب، والتهور والابتذال والفحش والسخف وبالدناءة والخسة.

ولما وصل من حروف القافية إلى (حرف القاف) قال:

وفيه ثلاثة أبيات أبان المتنبي فيها عن رقة الدين وضعف العقيدة والغلو الزائد، والتهور القبيح نستعيذ بالله منه وهو:

أي محل أرتقي أي عظيم أتقي

« وكل ما خلق الله وما لم يخلق »

محتقر في همتي كشعرة في مفرقي[1]

وكان هذا هو موقفه من:

يترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

فقد غضب عليه بقوله:

إن فيه تهوراً ومبالغة مفضية إلى المحذور[2].

ولا يسعنا ونحن نسجل هذه الظاهرة البارزة في نقد الحضرمي إلا أن نثبت تعقيبه على قول أبي الطيب:

وأبهر آيات التهامي أنه أبوكم وإحدى مالكم من مناقب

---

(١) تنبيه الأديب ١٦٥.

(٢) تنبيه الأديب ص ١١٢.

فهو يمثل أعلى درجة حرارة سجلها مقياسه النقدي لهذا الوباء المتفشي في شعر المتنبي قال :

أراد – من سوء أدبه – بالتهامي : النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد بالغ في هذا البيت مبالغة أفضت به إلى الكفر – والعياذ بالله – كما يعطيه ظاهر اللفظ ، لكونه أطلق فيه اللسان وفي وقت نظمه لم تخالط بشاشة الإيمان جنانه ، وقد أكثر الناس الكلام فيه ما بين المجيب عنه والمكفر له . وبالجملة فهو شنيع الظاهر جداً لكونه جعل أبهر آيات البي صلى الله عليه وسلم كونه أبا الممدوح ، ولكونه – لا بارك الله فيه – جعل النبي صلى الله عليه وسلم إحدى ما للممدوح من مناقب ولولا ضرورة حل معنى البيت لما تجاسرنا على النطق به[1] .

– ٤ –

مما عالجه الحضرمي القصيدة التي مطلعها :

اليوم عهدكم فأين الموعـــد هيهات ليس ليوم عهدكم غد

وبعد أن شرح هذا المطلع قال ومن عيوبها قوله في المديح .

أنَّى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقــلان أنت محمـد

فإن فيه تعقيداً ، وضعف تأليف ، واستكراه لفظ ، واعتقال معنى ، يسببه عسر فهم معنى البيت على ما فيه من محذور .

والمعنى فيه : كيف يكون آدم – عليه الصلاة والسلام – أبا البرية ، وأبوك محمد ؟ والثقلان أنت ؟ أي أنك جميع الإنس والجن ، وآدم واحد

(١) تنبيه الأديب ص ٧٩ ، ٨٠ .

الإنس فكيف يكون أبا البرية ؟ وعلى هذا التقدير ، فأبوك مبتدأ ، ومحمد خبره ، وفصل بين الجملة التي هي المبتدأ والخبر بقوله ـ والثقلان أنت .

ويحتمل أن يكون (الثقلان) المبتدأ ، وأبوك خبر مقدم ، وأنت محمد . مبتدأ وخبر ، فيكون معناه على هذا الإعراب :

كيف يكون آدم أبا البرية ، والثقلان أبوك ، وأنت محمد ، والثقلان : الإنس والجن ، وآدم واحد من الإنس .

وعلى كلا التقديرين ، فهو سيء النظم متكلف وليس فيه معنى غريب .

وإنما أطلنا الكلام في هذا البيت لكثرة السؤال عن إعرابه ومعناه . ومعنى هذا البيت مأخوذ من قول أبي تمام ، كما حكي أن أبا تمام قال لأحمد ابن أبي داود لما اعتذر إليه : أنت جميع الناس ، ولا طاقة لي بغضب جميع الناس . فقال له : ما أحسن هذا الاعتذار ، فمن أين أخذته يا أبا تمام ؟

فقال من قول أبي نواس :

ليس على الله بمستـــكثر　　　أن يجمع العالم في واحد [1]

شرح هذا البيت مأخوذ من اليتيمة ج ١ ص ١٧٠ .

وإعرابه مأخوذ من العكبري ج ١ ص ٣٤٠ .

وحكاية اعتذار أبي تمام لأحمد بن أبي دؤاد مأخوذة من معاهد التنصيص ج ٤ ص ٨١ ــ ٨٢ ، وإذن :

فليكن شرح هذا البيت تصديقاً لما وصفنا به (تنبيه الأديب) من أنه مذكرات .

---

(١) تنبيه الأيب ص ١١٦ .

لسانى وعينى والفؤاد وهمتي   أوُدّ اللوانى ذا اسمها منك والشطر

هذا البيت من القصيدة التي مدح بها المتنبي علي بن أحمد بن عامر[١] أورده الحضرمي ونقده ثم شرحه فقال :

فيه تعقيد وتعسف ، لأنه غير ظاهر الدلالة على المعنى المراد ، وإذا طرق السمع لم يصل إلى الفهم إلا بعد إتعاب الفكر ، وكد الخاطر واجتهاد القريحة ، ثم بعد هذا لم يظفر منه بمعنى مستغرب و (أوُد) جمع : ود .

ومعنى البيت أنه يقول : لساني وعيني وفؤادي وهمتي ، تود لسانك وعينك وفؤادك وهمتك .

والشطر : النصف أي هي شطرها كأنها شقت منها فصارت شطرين ، فلشدة محبتي لك كأنك شقيقي .

قال بعضهم : وليس في هذا البيت كبير مدح ، ولكونه جعل الممدوح شقيقه فلعل الممدوح لا يرضى بذلك .

وأيضاً فإن (ذا) اسم إشارة إلى اسم مذكور ، وكان حقه أن يقول : هذه أسماؤها .

وفي البيت اضطراب في فهم معناه ، وهذا أحسنها مع ما فيه من الاضطراب[٢] .

انتهي باكثير .

---

(١) العكبري ج ٢ ص ١٥٨ .

(٢) تنبيه الأديب ص ١٣٢ .

والنقد لابن فورجة ، والغريب للعكبري ، والشرح لابن جني ، أما الاعتراض الذي أورده باكثير مشوشاً فهو للعروضي ، استدرك به على ابن جني ، وصحح له به قوله (كأنك شقيقي) .

* * *

وليكون البيت قد شرح نذكر معناه كما حكاه العكبري عن ابن جني والعروضى قال :

قال أبو الفتح يقول : لساني وعيني وفؤادي وهمتي تود لسانك وعينك وفؤادك وهمتك وتود النظر منها كأنها شقت منها فصارنا شطرين ، ولشدة محبتي لك كأنك شقيقي . وقال العروضى الذي حكاه أبو الفتح أجود ما قيل في هذا البيت وأقول : قول : (كأنك شقيقي) لا مدح فيه ، ولعل الممدوح لا يرضى بهذا ، ولكن معناه عندي أن الشريف من الإنسان هذه الأعضاء التي ذكرها فقال :

إن الأعضاء التي طار اسمها في الناس وذكرها ، بك تأدبت ، ومنك أخذت وقوله : (الشطر) أي أن الله خلقها ، وأنت أدبتني وأعطيتني ، فمنك رزقها وأدبها ، والخالق الله تعالى [1] .

— ٦ —

على طريقة ابن سيده نسوق هذا النموذج : وهو صورة ما جاء في صفحتي ١٧٣ ، ١٧٤ من تنبيه الأديب تحت عنوان (حرف الكاف) مسلسل ٣٤ .

---

(١) العكبري ج ٢ ص ١٥٨ .

يعني القصيدة الرابعة والثلاثين من جملة القصائد التي تكلم عنها ، وعددها كما سبق سبع وخمسون قال :

القصيدة التي أولها :

فدى لك من يقصر عن نداكا   فلا أحد إذا إلا فداكا

ولو قلنا : فدى لك من يساوى   دعونا بالبقـــاء لمن قـلاكا

يقول : يفديك كل من لم يبلغ غايتك ، فإن استجيب هذا الدعاء ، فداك جميع الملوك لأنه لم يبلغ ملك غايتك ، فكلهم دونك .

ولو قلنا : يفديك من يساويك في الرتبة وتساويه ، دعونا بالبقاء لأعدائك ، لأنهم كلهم دونك ولا يساوونك .

وهذا معنى غريب .

وهذه القصيدة آخر ما أنشأ من شعره ، وفي غضونها كلام جرى على لسانه ، كأنه ينعي به نفسه ، ويعزيها ، وحصل التفاؤل فكان هلاكه قوله :

وأنيَّ شئت يا طرقي فكـوني   أذاة أو نجـاة أو هـلاكا

فإنه جعل هذه القصيدة في أبي شجاع عضد الدولة يودعه بها وعند انصرافه من عنده حصل له في الطريق ما حصل .

ومما جرى على لسانه ، وكأنه يعزي فيه نفسه في هذه القصيدة أيضاً قوله :

وكم دون الثوية من حزين   يقول له قدومي : ذا بذاكا

الثوبة : مكان بالكوفة .

يقول : كم دونها من إنسان حزين لفراقي ، فإذا قدمت سر بقدومي ، فيقول له قدومي : هذا السرور بذلك الحزن الذي لقيته بغيبتي .

ولو قال (من مشوق) مكان (من حزين) لكان خالياً من التفاؤل ، ولكنه غلظ القول على الممدوح في قضيته ليأذن له فيه .

ومما جرى على لسانه ، وكان فيه تفاؤل على نفسه ، قوله أيضاً في هذه القصيدة .

وما أنا غير سهم في هـــواء يعــود ولم يجد فيــه امتساكا

يقول للممدوح :

أنا في الخروج من عندك ، وقلة اللبث في أهلي كالسهم الذي يرمي به في الهواء فيذهب وينقلب سريعاً ، وما في البيت ما يدل على السرعة ، فإنه لم يقل في سرعة الأوبة وتقليل اللبث[1] انتهي باكثير .

ولقد صار تعليقنا عليه معروفاً ومألوفاً ومتوقعاً ومعذرة .

فصاحب فكرة أن المتنبي قد استشعر بعقله الباطن دنو أجله فتشاءم لنفسه إنما هو عضد الدولة في القائلين ، والثعالبي في الكاتبين ، قالوا : إن عضد الدولة لما نعي إليه المتنبي قال : تطيرت عليه من تركه النجاة بين الأذاة والهلاك .

يشير إلى قوله :

وأيّاً شئت يا طــرقي فكــوني أذاة أو نجــاة أو هــلاكا

* * *

أما الثعالبي فقد نص على ذلك في اليتيمة جـ ١ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

والكلام الذي أورده باكثير في ذلك هو كلام الثعالبي .

* * *

(١) تنبيه الأديب ص ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ .

وقد شرح الواحدي البيت الثاني من النموذج فقال :

لقد قلنا : فدى لك من يساويك وتساويه ، ودعونا بالبقاء لأعدائك ، لأنهم كلهم دونك ولا يساوونك[1] وهو نفس كلام باكثير بعد إضافة (في الرتبة) إلى (ولا يساوونك)

* * *

وشرح العكبري البيت الرابع من النموذج فقال : الثوية : مكان بالكوفة على ثلاثة أميال منها .

المعنى : يقول كم دونها من إنسان حزين لفراقي : فإذا قدمت فرح بقدومي ، فيقول له القدوم :

هذا السرور بالغم الذي كنت لقيته بالبعد .

وهذا كقول الطائي :

وليست فرحة الاوبات إلا لموقوف على ترح الوداع

وقال ابن الرومي يخاطب أمه وقد أراد سفراً :

فقلت لها : إن اكتئابا بشاخص سيتبعه الله ابتهاجا بقادم[2]

* * *

أما البيت الخامس : فهذا ما جاء في العكبري شرحاً له :

قال الواحدي : أنا في الخروج من عندك وقلة اللبث في أهلي كالسهم الذي يرمي في الهواء وينقلب سريعاً .

---

(١) العكبري جـ ٢ ص ٣٨٦ .

(٢) العكبري جـ ٢ ص ٣٩١ .

قال : وقال أبو الفتح : لم يقل في سرعة الأوبة وقلة اللبث كما قيل في هذا البيت والبيت مدخول ، ولم يعرف ابن جني وجه فساده وهو : كل سهم يرمي به في هواء لا يعود إلا إذا ما عولي به ، ولم يذكر في البيت أنه أراد الهواء العالي .

قال الخطيب : اختلف أهل النظر في هذا الموضوع : فقال قوم : إن السهم والحجر إذا رمي به صعد،فبتناهي صعوده يكون له في آخر ذلك لبثة ما ، ثم يتصوب منحدراً .

وقال آخرون : لا لبث له هناك ، وإنما أول وقت انحداره عقيب آخر صعوده [1] .

— ٧ —

إذا عذلوا فيها أجبت بأنـــة حبيبتا ، قلبا ، فؤادا ، هيا جمل

هذا البيت من القصيدة التي مدح بها المتنبي شجاع بن محمد الطائي المنبجي جعله الحضرمي من عيوب هذه القصيدة ، وأعقبه بقوله :

قال بعضهم : في فهم هذا البيت عسر وصعوبة وعدم دلالة على المراد ، وكأن قائل هذا لم يحسن العربية ، وإلا لو أحسنها لما صعب عليه فهمه.

والمعنى : إذا لاموني فيها وفي حبها أجبت بأنة ، والأنة . مأخوذة من الأنين .

ثم قلت : حبيبتي . قلبي فؤادي يا جمل .

والحبيبة ؟ تصغير الحبيبة ، وأصل : حبيبتا — في البيت — يا حبيبتي ،

---

(١) العكبري ج ٢ ص ٣٩٦ .

ثم صغرها للتقريب من قلبه ، ثم أبدل الياء من حبيبي ألفاً في النداء بعد حذف حرف النداء فصار حبيبتا .

فالألف فيها وفي (قلبا) و (فؤادا) بدل عن ياء الإضافة ، لأن (قلبا) و (فؤادا) بدل من (حبيبتا) ، وكلها في موضع نصب ، لأنها نداء مضاف .

أراد (يا حبيبتي) ، (يا قلبي) ، (يا جمل) وأبدل كلا مما قبله بدل كل من كل . فجعل القلب والفؤاد هما الحبيبة كما يقال : أخي . سيدي . مولاي يا فلان . فجعل كلامه كله نداء بعد نداء ، وبالجملة فلا يخلو هذا البيت من تعقيد .[1]

انتهي باكثير .

والبيت هذه المرة مشروح شرحاً جيداً .

ويبدو باكثير فيه عالماً وفاهماً ، بل أكثر من ذلك ينعي على من لم يفهم عدم فهمه ويشنع عليه بأنه كأنه لم يحسن العربية ، وإلا لو أحسنها لما صعب عليه فهمه . لكنه لم يلبث أن نسي هذا الكلام الحلوله في ختام شرحه للبيت .

أو أنه تراجع عنه .

وعلى كل فقد استدرك على نفسه بقوله :

وبالجملة فلا يخلو هذا البيت من تعقيد .

وما لم يقله هو أن (جمل) — قافية البيت — من أسماء نساء العرب كهند وليلى وسلمي وسعدى وسعاد .

---

(١) تنبيه الأديب ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

تركت خدود الغانيات وفوقهـا دموع تذيب الحسن في الأعين النجل

تبل الثرى سودا من المسك وحده وقد قطرت حمرا على الشعر الجثل

هذان البيتان من القصيدة الي رثى بها المتنبي أبا الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة . جعلهما الحضرمي من محاسنها ، وبعد أن أورد البيت الأول منهما قال وجه إذابة الدمع الحسن : أنه يفسد العين ويزيل حسنها كما قال الآخر :

أليس يضر العين أن تكثر البكا ويمنع عنها نومها وهجودهـا

ولما كان الذوب في معنى السيلان ، والدمع سائل فكأن الحسن قد ذاب ، وسال معه .

ومن محاسنها قوله في وصف الدموع المتقدم ذكرها :

تبل الثرى سودا من المسك وحده وقد قطرت حمرا على الشعر الجثل

أي هذه الدموع تصل إلى الأرض فتبلها وهي سود لامتزاجها بالمسك وحده ، لأن الجواري لا يكتحلن (لأجل المصيبة) ولأن كَحَل عيونهن يغنيهن عن الكُحل فلا يحتجن إليه . وقد استعملن المسك قبل المصيبة فبقي في شعورهن ، فالكحل لا يبقي طويلا ، وهذه الدموع قطرت وهي حمر لامتزاجها بالدم ، فغلب عليها سواد المسك فعادت سوداء ، وإنما قطرت على الشعر لأنهن نشرن الشعور وهي جثلة أي كثيرة ، وفيها مسك ، فمرت الدموع عليها فاسودت من مسكها .

وهذا المعنى مأخوذ من قول أبي نواس :

وقد غلبتها عبرة فدموعهـا على خدها حمر وفي نحرها صفر

فجعلها صفرا على النحر ، لأنها اختلطت بالطيب ، وفيه الزعفران[1]

انتهي باكثير .

ونحن نشكره على نقله الأمين من العكبري ، وإذا كان زاد عليه أن الجواري لا يكتحلن ، لأن كحل عيونهن يغنيهن عن الكحل ، فقد نقص عنه تفضيل الإذابة على الإزالة[2] .

— ٩ —

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمـه

هذا النموذج هو مطلع أول قصيدة مدح بها المتنبي سيف الدولة الحمداني أورده الحضرمي وقال : هذا المطلع في غاية ما يكون من التعقيد والتكلف والتعسف ، أو لا ترى لصوارم الأفهام عن تصور معناه نبوة ؟ ولجياد الأفكار عن تفهمه كبوة ؟!

وبعد إجهاد الفكر فيه ، وكدّ الفهم عليه لا يحصل منه على طائل ، ولنذكر لغته وإعرابه ليلوح من أفقه المظلم نوره ، وتفوح من شذا روض الراوي نوره فتقول :

الباء في (بأن) متعلقة بفعل محذوف يدل عليه قوله :

وفاؤكما ، فكأنه لما قال : وفاؤكما كالربع ، قال : وفيتما بأن تسعدا ، هذا تقديره ، فكأنه قال : وفيتما بالاسعاد .

والطاسم : الدارس ، والطامس : مثله .

(١) تنبيه الأديب ص ٢١٠ .
(٢) انظر العكبري ج ٣ ص ٤٤ .

وأشجاه : أشده شجواً ، كما يقال : أحزنه وآسفه وهو اسم ، والفعل منه شجاه . وبعد معرفة لغته وإعرابه ، فللناس في فهم معنى هذا المطلع اختلاف كثير ، واضطراب كبير لعدم دلالة اللفظ على المعنى المراد منه ، إلا بتقدير وحذف وتقديم وتأخير ، وهو وإن كان جزل اللفظ عذبه ، فتراه عسر فهم المعنى صعبه ، وأحسن ما قيل في معناه ما قاله صاحب المغنى وهو :

« وفاؤكما يا صاحبي بما وعدتماني به من الإسعاد بالبكاء عند ربع الأحبة إنما يسلبني إذا كان بدمع ساجم أي هامل ، كما أن الربع إنما يكون أبعث على الحزن إذا كان دارساً » .

انتهي كلام صاحب المغنى ، وهذا معنى صحيح لو ساعدت ألفاظ البيت عليه من غير تكلف .

وقيل : معنى البيت : كنت أبكي الربع وحده ، فصرت أبكي وفاءكما ، ولهذا ازددت بكاء .

وقوله : (أشجاه طاسمه) أي كلما تقدم عهده شجا وحزن ، وكان كلما خفيت الآثار واضمحلت الرسوم زاد شجوه وبكاؤه .

وقيل : معناه أنه يخاطب خليليه اللذين عاهداه على أن يسعداه بالبكاء عند ربع الأحبة .

يقول لهما : وفاؤكما بإسعادي مشبه بالربع .

ثم فسرو بين وجه الشبه ، فقال : أشجي الربع طاسمه ، يعني أنه كلما تقدم عهده كان أشجي لزائره ، وأشد لحزنه ، لأنه لا يتسلى به المحب .

وأشفي الدمع للحزين — أيضاً — ساجمه وهو الهامل الجاري .

والمعنى . ابكيا بدمع ساجم ، فإنه أشفي للغليل ، كما أن الربع أشجي للمحب إذا درس ، ووفاؤهما بالإسعاد ، وهو الإعانة على البكاء والموافقة فيه هو البكاء ، ولذلك قال : (والدمع أشفاه ساجمه) .

والمعنى : ابكيا بدمع في غاية السجوم ، فهو أشفي للوجد ، فإن الربع في غاية الطسوم وهو أشجي للمحب . وقيل غير ذلك . وموجب الاختلاف في معناه الاختلاف في إعرابه .

ولله در سيف الدولة حيث قال عند إنشاد هذا البيت :

يحتاج أن يكون سيبويه على منشده ، وكلما أنشده أعربه له [1]

انتهي باكثير .

وأنا راض عنه ، وإن كان ناقلا ، فقد نسج بشرحه للبيت نسجاً محكماً .

— ١٠ —

أول شعر لقي أبو الطيب كافوراً به هو القصيدة التي مطلعها :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا ... وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وفي هذا المطلع من ذكر الموت والداء والمنايا ما يوجب الطيرة التي تنفر منها الطباع ، فليس هو من حسن الابتداء ، ولا من براعة الاستهلال ، ولا من أدب الضيف ولا من ذكاء الممتاح في شيء ، وقد شفع له ما في القصيدة من محاسن .

ومن محاسنها قوله :

---

(١) تنبيه الأديب ص ٢٢٠ — ٢٢٢ .

قواصدَ كافور توارِكَ غــيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

فجاءت بنا إنسانَ عين زمانه وخَلّتْ بياضا خلفها ومآقيــا

قوله (قواصد كافور) قواصد : حال من (الجرد) المتقدم ذكرها في البيت قبله . أي يقصدنه ويتركن غيره ، لأنه البحر ، وغيره كالساقية – وهو النهر الصغير – وجعله (إنسان عين الزمان) كناية عن السواد ، وأنه هو المعنى والمقصود من الدهر وأبنائه وأن من سواه فضول لا حاجة بأحد إليهم ، فإن البصر في سواد العين ، وما حوله جفون وآماق لا حاجة إليها ، من محاسنها قوله :

ترفع عن عُون المكارم قَدرُه فما يفعل الفعلات إلا عذاريا

العون : جمع العوان . يقول : هو أجل قدراً من أن يفعل في المكرمات فعلا قد سبق إليه ، وإنما يأتي بالمكارم ابتداء واختراعاً .

وقال بعضهم : هذا البيت مما دسَّه أبو الطيب على كافور ، فإن ظاهره مدح حشيم ، ويجوز أن ينقلب هجاء .

وذلك أن قوله (ترفع عن عون المكارم) يحتمل أن يكون على سبيل التهكم .

وقوله (فما يفعل الفعلات) والفعلات تكون من المكارم والمخازي وقد صرح بتركه المكارم ، وأبهم ما يفعل من الفعلات المشتملة على القبائح والمكارم ومع نفيه إتيان المكارم انحصر فعله في المخازي التي لم يسبق إليها وفيما قاله بعد[1] .

---

(١) تنبيه الأديب ص ٢٤٩ – ٢٥٠ .

أجل بعد أي بعد .

وهذا يعني أن الحضرمي لا يرى رأي ابن جني وغيره فيما دعوه الشعر الموجه أو الكلام الموجه وقد عالجنا هذه القضية معالجة وافية في الفصل الأول من هذه الدراسة .

وبعد ثلاثة أبيات من البيت السابق ومن نفس قصيدته .

يختم الحضرمي هذا القسم من كتابه بقوله :

وها هنا انتهي ما أردناه وتم ما أوردناه ، ولم يبق باب يدخل الطعن منه على أبي الطيب غير ما ذكر بحسب الطاقة ، ولا زاوية من بيوت شعره إلا وقد استخرجنا منها من العيوب ما مر ولم يحل لمن ذاقه[1] .

تعقيـــب

بعد هذا التطواف نسأل عن موقف الحضرمي من المتنبي — أهو من أنصاره أم من خصومه ؟!

والجواب أنه لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وإنما هو مع الحق من أمر المتنبي فيما يعتقد أنه الحق من أمره .

وقد رأيناه يلومه ويشنع عليه بل يكفره إذا تجاوز حدود الأدب والأخلاق والدين في شعره . أما النواحي الأخرى ، فهو يعتز به ويطرى شاعريته ، ويذهب إلى أنه يقدر على مالا يقدر عليه غيره .

يقول المتنبي :

أيفطمه التوراب قبـــل فطامه ويأكاه قبل البلوغ إلى الأكل

فيلومه باكثير ، لكنه مع لومه له يعلى شأنه إعلاء عظيماً إذ يجعله سلطان الشعراء وملك البلغاء قال :

---

(١) تنبيه الأديب ص ٢٥٢ .

فإن لفظ (التوارب) من أطم ما تعاطاه من الألفاظ الثقيلة ، ومن التفاصح بالكلمات النافرة التي لم يرض بها من دونه من الشعراء ، فكيف به وهو سلطان الشعراء وملك البلغاء ولكنه في التلفظ بها كأنه لم يطأ الحضر ، ولم يعرف ألفاظ البادية[1] .

ويعجبه بيته :

أتراهـا لكـثرة العشـاق ❊ تحسب الدمـع خلقة في المآقي

فيقول : مطلع ما سمع مثله ، ومعنى غريب تفرد به [2] .

---

(١) تنبيه الأديب ص ٢٠٨ .

(٢) تنبيه الأديب ص ١٦٩ وانظر صفحتي ١١٩ ، ٢٣٨ .

خاتمـــة

الآن . وقد وصلنا بالبحث إلى غايته التي حددناها له ، وهي معالجة أبيات المعاني عند المتنبي في هذا القطاع الزمني المتطاول من حدود ٤٠٠ إلى ١٠٠٠ هـ .

وفي تلك الرقعة الممتدة في العالمين الإسلامي والعربي من أقصى الشرق في بلاد فارس حيث أصبهان وبروجرد ، إلى أقصى الغرب في البلاد الأندلسية حيث مرسية وشنترين مروراً ببؤرة الكرة الأرضية وهي مكة المكرمة .

نحمد الله على تيسير الكتب التي أرفدته وكانت مصادره فبقراءتها بل بمعايشتها عرفنا أبيات المعاني في شعر المتنبي ووقفنا على شروحها ونقدها ودرسنا لحظات الإشراق في فهمها ، ومواقف الانغلاق دونها .

ولما استوى عملنا على سوقه غرسناه في حديقة أبي الطيب وهو خمسة فصول كما رأينا :

في الفصل الأول : حددنا – من خلال تسعة وتسعين نموذجاً – موقف الأصبهاني من ابن جني أصلا ، ومن المتنبي فرعاً . وهو رجل مطلع على الشعر العربي قديمه وحديثه وكانت له وجهات نظر خاصة به فأبداها ، « بغية إصلاح فرطات ابن جني » وقد رأينا فيه وبه صورة مشرقة للعالم الفاهم ، وللناقد الذي يتأرجح في نقده وبنقده بين المعجمين اللغوي والأدبي . وقد استعصم بعلمه وبأدبه عن أن يكون مقلداً لغيره .

وكتابه ـ لهذا ـ أصيل في فكره ، وفي نقده .

وفي الفصل الثاني : كنا مع ابن فورجة في كتابه : (الفتح على أبي الفتح).

وقد أوضحنا أنه ألف لمجرد التأليف ، لا ليفتح أو يتجنى ، سأله سائل أن يؤلف فألف ، وموقفه من ابن جني أحسن من موقف الأصبهاني منه :

الأصبهاني نصب نفسه أميراً عليه ومراجعاً له ، وقد كان لهذا مشغولا بأن ينبه على خطئه هنا أو هنا ، وعلى أنه لم يستكمل كذا أو كذا .

أما ابن فورجة فلم يخرج عن كونه منافساً لابن جني في شرح شعر المتنبي . وقد بلغت عدة نماذجه سبعاً وأربعين ومائتي نموذج انفرد منها بست وعشرين ومائة نموذج واشترك مع ابن جني في واحد وعشرين ومائة نموذج .

وابن فورجة والأصبهاني معقولان في شرحهما لأبيات المعاني . وأسلوبهما لهذا مثل للمساواة .

لا إطناب كما عند ابن سيدة .

ولا إيجاز كما عند ابن بسام .

ويزدحم **الفصل الثالث** بابن سيده وكتابه (شرح مشكل شعر المتنبي) .

ولا عجب ، فقد عالج فيه من أبيات المعاني ما يمت بصلة إلى ثلاث وأربعين ومائة قصيدة والنماذج عنده تتردد بين أن تكون نصف بيت وثلاثة وعشرين بيتاً ، ولكن هذين الطرفين لم يتكررا .

وإذا كانت كمية النماذج عند من قبله في حدود البيت الواحد ، فإنها عنده تتجاوز العشرة غالباً ، وأمر آخر هو أنه يتعامل مع أبيات المعاني رأساً ، لا يصل إليها عبر من سبقه بل ولا مع من سبقه .

إنه يتعامل معها وكأنه أول من يتعامل معها ، فلا يذكر كلام غيره إلا نادراً ، ولابن جني الغلبة في تلك الندرة .

ويلقانا ابن بسام في الفصل الرابع بشطر كتابه

(سرقات المتنبي ومشكل معانيه)

وقد عالج فيه اثنتين وعشرين ومائتي نموذج موزعة على سبعة عشر باباً ، ولكنه لا يعطي الأبيات حقها من الشرح ، وإن فعل ففي إيجاز شديد .

يبدو شرحه للأبيات وكأنه تعليقات عليها .

من شرحه ما هو جزئي ، وما هو غامض ، وما ليس بشرح أصلا والبيت يكون من أبيات المعاني عنده بأمور كثيرة منها :

١ — ما فيه من صورة أو صور بلاغية .

٢ — ما فيه من إشارة أو إشارات تاريخية .

٣ — ما فيه من احتراز .

٤ — ما فيه من ألغاز .

٥ — ما فيه من تبرير حكم .

٦ — ما فيه من بديع اقتضاء .

أما الفصل الخامس والأخير :

فعن القاضي الحضرمي الذي ترسم في القرن العاشر الهجري خطى القاضي الجرجاني في القرن الرابع الهجري .

وكما ألف الأول (الوساطة بين المتنبي وخصومه) ألف الثاني (تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب) .

كانت المهمة صعبة ، ولم يكن الرجل مؤهلا لها ، فجاء كتابه جماً لماً كأنه المذكرات . ولست أزعم أني وفيت الموضوع حقه ، فأبيات المعاني في شعر المتنبي تحتاج إلى أكثر من وقفة .

لقد درستها مع الخمسة الذين ذكرتهم وعندهم .

لكن يبقى أو هي تتحمل أن تدرس بذاتها ولذاتها ، وأن تدرس لمقارنتها بغيرها ، وأن تدرس دراسة إحصائية :

نحصرها ونعدها ونبحث عن أسباب كونها أو جعلها من أبيات المعاني . ثم نوزعها على هذه الأسباب شارحين مع كل بيت منها سبب أو أسباب دخوله فيها.

أبيات المعاني في شعر المتنبي تتسع لهذا ولأكثر منه ، بل إن كل شعر المتنبي يتسع لهذا ولأكثر منه

وإذا كنا قد وصلنا إلى أن أبيات المعاني إنما هي الأبيات الغامضة ، فإننا قد رأينا من وسع مفهومها حتى جعلها كل شعر فيه نتوء يحول دون دخوله في الذهن ، أو يعوق فهم الذهن له فهماً سليما مستقيما .

لكن ما الجديد في هذه الدراسة ؟

وما الذي توصلت إليه ؟

أما الجديد فهو أنها نظرت في معالجات العلماء لأبيات المعاني .

كان الناس — قبلي — يتواردون على أبيات المعاني نفسها ويحتكون بها فهماً وشرحاً ونقداً ، وإن عرج بعضهم على كلام من سبقه ، ليستعين به على ما هو فيه ، أو ليقارنه بما هو فيه ، أو ليدفعه عما هو فيه ، فإن ذلك كان جزئياً وذاتياً .

أما أنا فقد وضعت اجتهادات العلماء في فهم أبيات المعاني موضع الدراسة المباشرة كلياً وموضوعياً ومع هذا فقد نفذت من خلالها إلى أبيات المعاني نفسها ، فقلبتها على وجوهها ، ووضعت نفس تحت تأثيرها .

وفي أثناء ذلك كانت عيني وكان عقلي على ما قاله غيري أرى فيه رأيي .

الجديد في هذه الدراسة أنها عايشت أبيات المعاني عند من شرحوها ونقدوها ، وأنها — وهو الأهم — أول تقييم لهم وأول موازنة بينهم ، وقد صح لذلك ما قلناه في عنوانها من أنها :

دراسة أدبية نقدية مقارنة .

وأما ما توصلت إليه : فهو تحديد لون وطعم ورائحة كل واحد من هؤلاء العلماء الذين عرضوا لأبيات المعاني في شعر المتنبي بالشرح والنقد .

بل أكثر من ذلك تسليط الحاسة السادسة عليهم لمعرفة نغمة ودرجة كل منهم في المجالين العلمي والفني .

وثمة حقيقة يجب التنبيه عليها والتنويه بها .

وهي أن دراسة أبيات المعاني في شعر المتنبي من خلال شراحه وهي أبيات من قصائد ، قد جعلتني أرجع بها إلى قصائدها وأرى معطياتها وهي في سياقها ، ثم أوزان بين دلالاتها هنا ودلالاتها عند شراحها الذين اقتلعوها من ديوانها وزرعوها في كتبهم ، فلقد كان ذلك — إلى حد ما — سبب غموضها

إن هذه الدراسة قد أفادتني وجعلتني أتعامل مع شعر المتنبي بعامة وليس مع أبيات المعاني منه بخاصة ، وهو أمر أعتد به مغنماً من مغانمها ، في مقابلة الكثير الكثير من مغارمها .

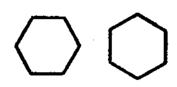
وعند الله أحتسب ما بذلته فيها من وقت وجهد وصحة .

راجياً أن تكون فاتحة خير لدراسات تكملها وتحقق لموضوعها ما طمح إليه تطلعي العلمي ، لكن قعد بي عنه ضعف قوتي وقلة حيلتي وضيق وقتي .

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء انا من أمرنا رشدا

أ. د. عبده قلقيله

الرياض ٢٤ـ٥ـ١٤٠٠ هـ ١٠ـ٤ـ١٩٨٠ م



المصادر والمراجع مرتبة حسب الحروف الهجائية لأسماء الكتب

١ – أبو الطيب المتنبي . دراسة في التاريخ والأدب – تأليف د. ر. بلاشير وترجمة د. إبراهيم الكيلاني . دمشق ١٩٧٥ م .

٢ – أخبار أبي تمام تأليف أبو بكر محمد بن يحى الصولي وتحقيق خليل محمود عساكر (بالاشتراك) – طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٣٧ م .

٣ – أخبار وتراجم أندلسية (مستخرجة من معجم السفر للسلفي) تحقيق وإعداد د. إحسان عباس . دار الثقافة – بيروت ١٩٦٣ م .

٤ – أدب الفقهاء . عبد الله كنون الحسني . دار الكتاب اللبناني – بيروت . د. ت .

٥ – أساس البلاغة تأليف جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري وتحقيق عبد الرحيم محمود . القاهرة ١٣٧٢ هـ – ١٩٥٣ م .

٦ – أعمال الأعلام . تأليف لسان الدين بن الخطيب (محمد بن عبد الله بن سعيد التلمساني القرطبي) – الدار البيضاء ١٩٦٤ م .

٧ – الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني . مصور عن طبعة دار الكتب المصرية د. ت .

٨ – تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) د. إحسان عباس ط – ٤ – بيروت ١٩٧٥ م .

٩ — تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) د. إحسان عباس ط — ٣ — بيروت ١٩٧٤ م .

١٠ — تاريخ الأدب العربي . تأليف بروكلمان وترجمة د. عبد الحليم النجّار دار المعارف — مصر — ١٩٦٨ م .

١١ — تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط (القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام) . تأليف لسان الدين بن الخطيب وتحقيق د. أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني — دار الكتاب — الدار البيضاء ١٩٦٤ م .

١٢ — تاريخ النقد الأدبي عند العرب : نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري . د. إحسان عباس — الطبعة الأولى بيروت ١٣٩١ هـ . ١٩٧١ م .

١٣ — تاريخ النقد الأدبي في الأندلس د. محمد رضوان المداية . دار الأنوار بيروت ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م

١٤ — تعريف القدماء بأبي العلاء . طبعة دار الكتب المصرية د. ت .

١٥ — تفسير أبيات المعاني من شعر أبي الطيب المتنبي . اختصار أبي المرشد سليمان بن علي المعري وتحقيق الدكتور ين مجاهد الصواف ومحسن عجيل — طبعة جامعة الملك عبد العزيز ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م .

١٦ — التكملة لكتاب الصلة تأليف ابن الأبار (محمد بن عبد الله البلنسي) ونشر عزت العطار الحسيني. القاهرة ١٩٥٥ م .

١٧ — تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب .

تأليف عبد الرحمن بن عبد الله باكثير الحضرمي وتحقيق الدكتور رشيد عبد الرحمن صالح — وزارة الاعلام العراقية ١٩٧٧ م.

١٨ — ثقافة الناقد الأدبي د. محمد النويهي . الطبعة الثانية مكتبة الخانجي بمصر ١٩٦٩ م .

١٩ — الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور تأليف ضياء الدين بن الأثير وتحقيق الدكتورين : مصطفى جواد وجميل سعيد — المجلس العلمي العراقي ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م .

٢٠ — جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس تأليف الحافظ الحميدي (محمد بن فتوح بن عبد الله) . الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م .

٢١ — خاص الخاص تأليف أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي وتقديم حسن الأمين — بيروت ١٩٦٦ م .

٢٢ — الخصائص لابن جني . مطبعة الهلال بالقاهرة ١٣٣١ هـ — ١٩١٣ م

٢٣ — دراسات عن ابن حزم وكتابه (طوق الحمامة) . د. الطاهر أحمد مكي — القاهرة مكتبة وهبة ط — ٢ — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م .

٢٤ — ديوان الحماسة . شرح التبريزي . الطبعة الأولى . دار القلم . بيروت . د. ت

٢٥ — ديوان المتنبي بشرح العكبري وتحقيق مصطفى السقا (بالاشتراك) الطبعة الثانية — القاهرة ١٣٧٦ هـ . — ١٩٥٦ م .

٢٦ – ديوان المتنبي وفي أثناء متنه شرح الإمام العلامة الواحدي تأليف فيدرخ ديتر بصى – طبعة براين ١٨٩١ م .

٢٧ – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني – طبعة القاهرة ١٩٣٩م – ١٩٤٥ م .

٢٨ – سرقات المتنبي ومشكل معانيه لابن بسام النحوي تحقيق محمد الطاهر ابن عاشور – طبعة الدار التونسية ١٩٧٠ م .

٢٩ – شرح التنوير على سقط الزند – القاهرة . طبعة مصطفي محمد . د . ت.

٣٠ – شرح مشكل شعر المتنبي تأليف . أبو الحسن علي بن سيده وتحقيق د. محمد رضوان الداية – دار المأمون للتراث . دمشق ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م .

٣١ – الصلة لابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) نشر عزت العطار الحسيني – القاهرة ١٩٥٥م .

٣٢ – طبقات الأمم لصاعد الأندلسي . المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩١٢م

٣٣ – العقد الفريد لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي . لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٢ – ١٩٥٦ م .

٣٤ – الفتح على أبي الفتح تأليف محمد بن حمد بن فورجه وتحقيق عبد الكريم الدجيلي – وزارة الإعلام العراقية – بغداد ١٣٩٤ ه ١٩٧٤ م .

٣٥ – الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي تأليف : أبو الفتح عثمان ابن جني وتحقيق د. محسن غياض عجيل – بغداد ١٩٧٣ منشورات

وزارة الإعلام العراقية . سلسلة كتب التراث رقم ٢١ .

٣٦ – فقه اللغة للثعالبي – طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة . د. ت .

٣٧ – الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون : الدكتور عبد الله شريط – طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر ١٣٧٩ هـ – ١٩٥٩ م .

٣٨ – الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبي الحديد– تحقيق الدكتورين أحمد الحوفي وبدوي طبانة – الطبعة الأولى ١٣٧٩ هـ – ١٩٥٩ م

٣٩ – فنون الأدب : تأليف هـ. ب تشارلتن وترجمة د. زكي نجيب محمود – طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٩٤٥ م .

٤٠ – فن الشعر : تأليف إحسان عباس – الطبعة الثالثة – دار الثقافة بيروت . العدد الثالث من الفنون الأدبية .

٤١ – فن الشعر لأرسطو : ترجمة د. عبد الرحمن بدوي مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٣ م .

٤٢ – قلائد العقيان في محاسن الأعيان: أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله ابن خاقان – القاهرة ١٣٨٣ هـ .

٤٣ – كتاب المعاني الكبير : تأليف أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري – طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن – الهند ١٣٦٨ هـ – ١٩٤٩ م .

٤٤ – الكشف عن مساويء شعر المتنبي تأليف الصاحب بن عباد . وتحقيق محمد حسن آل ياسين – بغداد سنة ١٩٦٥ م .

٤٥ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : تأليف مصطفي عبد الله الشهير بحاجي خليفه ـ طبعة استانبول سنة ١٣٦٠ هـ ـ ١٩٤١ م .

٤٦ ـ ما يجوز للشاعر في الضرورة : تأليف القزاز القيرواني وتحقيق المنجي الكعبي ـ تونس ١٩٧١ م.

٤٧ ـ المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث د. محمد عبد الرحمن شعيب دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م .

٤٨ ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : تأليف ضياء الدين ابن الأثير تحقيق الدكتورين أحمد الحوفي وبدوي طبانه ـ الطبعة الأولى ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٥٩ م .

٤٩ ـ المحكم والمحيط الأعظم : لابن سيده تحقيق مصطفي السقّا والدكتور حسين نصار ـ طبعة الحلبي القاهرة ١٣٧٧ هـ .

٥٠ ـ مختصر تفسير ابن كثير : محمد علي الصابوني ـ بيروت ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م .

٥١ ـ المخصص لابن سيده : مصر ١٣٢١ هـ .

٥٢ ـ المدخل إلى النقد الأدبي الحديث : تأليف د. محمد غنيمي هلال. القاهرة ١٩٥٨ م .

٥٣ ـ مشكلة السرقات الأدبية : د. محمد مصطفي هداره ـ طبعة أولى. القاهرة ١٩٥٨ م .

٥٤ ـ معاني الشعر : تأليف أبو عثمان سعيد بن هارون الاشنانداني برواية

ابن دريد . قدمه ونظر فيه الدكتور صلاح الدين المنجد ــ دار الكاتب الجديد ــ بيروت ١٩٦٤ م .

٥٥ ــ المعجب في تلخيص أخبار المغرب : تأليف عبد الواحد المراكشي وتحقيق محمد سعيد العريان ــ القاهرة ١٣٨٣ ــ ١٩٦٣ م .

٥٦ ــ معجم الأدباء لياقوت الحموي : طبعة مرجليوث ــ مصر ١٩٢٣ ــ ١٩٣٠ م .

٥٧ ــ معجم البلدان لياقوت الحموي : دار صادر ــ بيروت ١٩٥٥ ــ ١٩٥٧ م .

٥٨ ــ معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة دمشق ١٣٨٠ هـ ــ ١٩٦٠ م

٥٩ ــ المغرب في حلي المغرب : تأليف أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي وتحقيق د. شوقي ضيف ــ دار المعارف ــ مصر . الطبعة الثانية ١٩٦٤ م .

٦٠ ــ من التراث الأدبي للمغرب العربي : د. عبده عبد العزيز قلقيله ــ عالم الكتب القاهرة ١٩٧٩ م .

٦١ ــ النبوغ المغربي في الأدب الغربي : عبد الله كنون ج ١ ، ٢ ، ٣ ــ الطبعة الثالثة ــ بيروت ١٣٩٥ هـ ــ ١٩٧٥ م .

٦٢ ــ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب . تأليف أحمد بن محمد المقري التلمساني وتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ــ القاهرة ١٩٦٧ م .

٦٣ — النقد الأدبي عند القاضي الجرجاني د. عبده عبد العزيز قلقيلة — مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٦ م .

٦٤ — النقد الأدبي في العصر المملوكي : د. عبده عبد العزيز قلقيله مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٢ م .

٦٥ — النقد الأدبي في المغرب العربي : د. عبده عبد العزيز قلقيله مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٣ م .

٦٦ — الواضح في مشكلات شعر المتنبي . تأليف : أبو القاسم عبد الله ابن عبد الرحمن الأصفهاني وتحقيق محمد الطاهر بن عاشور — الدار التونسية للنشر ١٩٦٨ م .

٦٧ — الوساطة بين المتنبي وخصومه : تأليف : القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني وتحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم — عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٩٦٦ م .

٦٨ — وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تأليف : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان وتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد — الطبعة الأولى ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م .

٦٩ — يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي : تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد — القاهرة ١٩٥٦ م .

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

